حسين جلبي

العبور من الجحيم

سيرة ذاتية لمعتقل



موزاييك للدراسات والنشر
MOSAIC FOR STUDIES AND PUBLICATION

العبور من الجحيم

سيرة ذاتية لمعتقل

ISBN: 978-625-6589-06-5

عنوان الكتاب: العبور من الجحيم | رواية

اسم المؤلف: حسين جلبي

لوحة الغلاف: نجاح البقاعي

الطبعة الأولى: ٢٠٢٣

دار موزاييك للدراسات والنشر

الفاتح -اسطنبول -تركيا.

E-mail: info@mosaicspm.com

رواية

العبور من الجحيم

سيرة ذاتية لمعتقل

حسين جلبي

باستثناء (السَّجين الجلّاد) الذي شاركته الزنزانة لفترة، لم أعرف أسماء الجلّادين ولم أرَ وجوههم طوال مدة اعتقالي، لذلك لن أتعرف على أحدٍ منهم إذا التقيته أو مرّ من جانبي يومًا، فقد كانت عيناي مطمّشتين طوال الوقت، ويرغمونني - علاوةً على ذلك - على وضع يديّ على الطمّاشة، سواء خلال الانتظار أو التحقيق معي وأنا بوضعية السجود، أو نقلي محني الرأس من مكانٍ إلى آخر، بينما استحال عليّ رفع رأسي بعد إرغامي على الجلوس القرفصاء، للتقدم مع الآخرين في سلسلة بطريقة (مشية البطة)، خلال التنقلات القصيرة داخل المعتقل، مثل أخذنا عُراة من دون طمّاشة إلى التواليت، بسبب الضربات المتواصلة التي تنهال علينا من العناصر المتواجدين على طرفي الممر، أما عند بدئهم إجراءات الدخول إلى الزنزانة، فقد سارعت مع رفاقي إلى تنفيذ طقس (الدخول في الحائط)، بالوقوف بمواجهته وإلصاق وجوهنا به، بحيث تصبح ظهورنا جهة الباب.

من جهتهم، لم يكن الجلّادون يعرفوننا ولم يكونوا على الأرجح يعرفون أسماءنا، ذلك أنهم نادوا على كل واحد منا، حسب لون اللباس الذي يرتديه (أنت ولاك أبو الكنزة الخضرا أو أبو البيجاما السودا)، أو المكان الذي قد نتواجد فيه (أنت يا حقير اللي بالنص أو اللي ع اليمين)، كما تفننوا في إطلاق ألقاب قذرة علينا، مأخوذة من العالم السفلي وذات صلة بالأعضاء التناسلية، استخدموها على مدار الساعة لإهانتنا ووصف ذوينا بها، خاصةً الأم والزوجة والأخت والابنة. ناداني بعض الجلّادين خلال لحظات حياد نادرة (زينفيكس)، وهو اسم الدواء الذي كنت أتناوله يوميًا قبل اعتقالي، وجعلوا أسمي مرةً رقمًا، طلبوا مني حفظه ثم استخدموه لمدة قصيرة، بحيث رددت على كل من ناداني وقتها (١٣٢٠): حاضر سيدي.

لم يقف عدم معرفتنا بأسماء السجّانين وعدم تمكننا من رؤيتهم، عائقًا أمام تمييزهم عن بعضهم البعض، أطلقنا من جهتنا عليهم ألقابًا، تناسب اللهجة التي يتحدثون بها أو سلوكهم، أو أيّ شيء رأيناه أو سمعناه منهم. في معتقل مطار المزة، كان هناك (القندرة السودا)، الضابط الذي قال لي (لا تنسى هالقندرة السودا)، عندما تأكد من متابعتي لحذائه الأسود اللميع، خلال حركته قرب رأسي، بينما أنا ملقىً على الأرض مطمّش العينين، شبه مغمىً علي من شدة التعذيب، وذلك الذي أسميناه (الضابط الساحلي)، نظرًا للهجته التي تدل على أنه من المنطقة الساحلية، من الطائفة التي ينتمي إليها رئيس الدولة، أما ما ميز (الضابط الحمصي) عنه، فهو سؤاله المعتقلين فيما إذا كانوا من حمص، حيث نكّل بهم أكثر من غيرهم، وهو التنكيل الذي مارسه علينا السجّانون من طائفة الأكثرية أيضًا، الذين بالغوا في إظهار شراستهم، ربما لإثبات ولائهم لنظام الحكم أو نفي شكوك عدم الولاء عنهم.

في معتقل صيدنايا، لدينا السجّان (أبو القندرة الحمرا)، الذي أعطيناه هذا الاسم، بعد تمكننا من رؤية حذاءه، عندما تجرأنا فنظرنا عبر الشبك الحديدي أسفل باب الزنزانة، ثم ربطنا بين لون الحذاء وصوته، ولدينا (الضابط المحترم)، ذلك الذي فقد لقبه خلال أيام قليلة، بعدما كشّر عن أنيابه، فأصبح اسمه (أبو المئة وثمانين كبلة)، والطبيب الذي لقبناه (الدكتور)، لتمييزه عن الطبيب الآخر السيء الذي أسميناه (الحقير)، أما السجّان الذي اختلفنا حوله، وتحدث لهجة لم نرد نسبتها إلى منطقة محددة، واشتهر بابتكار أساليب تعذيب رهيبة، سيسمع بها المرء لأول مرة هنا، فقد أسميناه (متعب)، في حين أسمينا السجّان الذي كانت لغته العربية ضعيفة (الكُردي).

على الرغم من عدم رؤية أدوات التعذيب، ومعرفة أسمائها من الجلّادين، عند طلبهم استخدامها، إلا أنني أصبحت قادرًا على التفريق بينها بسهولة ووصفها بدقة، حتى إذا أغفلوا ذكر أسمائها قبل الاستخدام. استغربت أول الأمر عندما قال أحدهم، (أعطوه مئة سيليكون وجبة عشاء) أو (علقوه عشرة أيام بلانكو)، لكنني بتُّ أعرف (السيليكون والبلانكو) فيما بعد، والفرق بينهما وبين (التابوت والأخضر الإبراهيمي ومواسير التمديدات الصحيّة)، وذلك حسب وضعية الجسم والمنطقة المستهدفة والآثار التي تتركها، فالمعتقل مدرسة قسرية، يتخرج منها المعتقل رغمًا عنه بعد الدرس الأول، على أيدي معلم لا يملك من الوسائل سوى الشتائم وهراوة يستخدمها بعدوانية، على الرغم من عدم وجود معرفة سابقة مع ضحاياه.

الفصل الأول: الاستدعاءات الأمنية

مناورات على طريق الجحيم

بالكاد نمت ليلة أمس، انهمكت حتى وقت متأخر للغاية، بحذف سجلات المكالمات في جهازَي الهاتف. عندما استفسرت زوجتي عما أفعله طوال الوقت، حدثتها عن المشاعر السلبية التي باتت تسيطر عليّ مؤخرًا، منذ الاستدعاء الهاتفي السابق إلى فرع الأمن العسكري، عندما طلب مني شخصٌ عبر اتصال، الحضور إلى الفرع بعد ساعة:

- تعال للضرورة، لأننا ما بنريد نجي بنفسنا ونجرك ورانا بالشوارع.

لازمني منذ الاتصال شعورٌ بعدم الارتياح، دفعني إلى التساؤل عمّا إذا كنت سأصل سالمًا إلى يوم الجمعة، ثم مغادرة قامشلي إلى عفرين، بعد المظاهرة المخطط لها ظهرًا، للتخلص من الضغوط الأمنية التي تتصاعد على مدار الساعة، ومن موعد المحكمة العسكرية في الأسبوع المقبل، في الدعوى المقامة عليّ مع آخرين بجرم التظاهر، رغم أن المتصل ردَّ على سؤالي حول ما إذا كان ما قاله معناه، أنني أصبحت رهن الاعتقال:

- لا أعرف، أنا مهمتي إبلاغك بالأمر، وأنت بالنهاية حر بالمجيء من عدمه.

لكون سجلات المكالمات في الهاتفين كبيرة، يستغرق التعامل معها وقتًا طويلًا، قررت حذف الأسماء والأرقام التي يمكن أن تلفت الانتباه أكثر من غيرها.

بدأتُ بالجهاز الذي استخدم فيه بطاقة اتصال سورية، فحذفت وغيّرت

الكثير من الأسماء، ثم انتقلت إلى القائمة الموجودة على الهاتف الثاني، الذي أستخدم فيه خطًّا من شبكة الاتصالات التركية، وهو أمرٌ متاح للسكان في منطقتنا الحدودية المجاورة لتركيا، لكنني لم أفلح في مسح سجل المكالمات الواردة والصادرة، لعدم وجود ميزة المسح الكامل أو ربما عدم فهمي لها، لوجود الإعدادات باللغة التركية، فرغم حذف الأسماء المكتوبة بالأحرف اللاتينية من السجل الأساسي، إلا أنها بقيت مع أرقامها في سجل الاتصالات، لكن الطويلة منها لم تكن تظهر كاملةً. في المحصلة، لم أتمكن من إنجاز الهدف كاملًا، فقد وجدت صعوبة في إبقاء عينيّ مفتوحتين، من شدة النعاس.

أما ما استحال عليّ حذفه، فهو مقطع الفيديو المنشور على الانترنت، للمظاهرة التي أعقبت المحاولة الفاشلة لاغتيال مشعل التمو. سيكون المحقق في المخابرات الجويّة بمطار المزة آخر من سيسألني عنه، بينما أنا مطمّش العينين في وضعية السجّود، سيفتح المسجّل فأسمع معه المقطع بدقائقه الخمس كاملةً، بما فيه تصفيق المتظاهرين في الخلفية وهتافاتهم:

- الشعب، يُريد، إسقاااااط النظام.

ثم يعيد عدة مرات الجملة التي أقول فيها:

- أُحذر السلطات من التعرض لأيّ ناشط، وأقول بأنني سأُفاجئكم في حالة قيامكم بذلك.

سيوقف المحقق المسجل، ويرميني بجملة أسئلة، دفعة واحدة:

- من أنت حتى تهددنا بمفاجأة يا كلب؟ وكيف تتصور أن أكون أنا حيًّا، أتنفس، وأسمح ببقاء واحد مثلك، يشجع على الإشارة بسوء إلى السيد الرئيس، ويهدد الدولة؟ قل لي بماذا ستفاجئنا؟ هل لديك أسلحة ومسلحين، أم أردت أن تجعل من نفسك بطلًا؟

سأدخل مع هذا السؤال، في مرحلة لا ينفع معها الإنكار، فإذا كنت نجحت حتى ذلك الوقت في ترقيع أجوبة لأسئلته، وتعرضت على الرغم من ذلك لتعذيب رهيب، فما الذي يمكنني فعله مع أسئلته هذه، وصوتي في التسجيل واضحٌ لا تخطئه الأذن، وكلامي صريحٌ لا يقبل التأويل؟ سأرد على الرغم من ذلك على المحقق مبررًا:

- والله وبصدق يا سيدي، خرج الكلام هكذا ارتجاليًا، والمقصود بالمفاجأة متابعة التظاهر، هذا ما قصدته، لا تسليح ولا غيره.

بالكاد سأنهي جملتي، حتى تنهال عليّ الهراوات وعصي السيليكون من جميع الجهات، ضربًا تكاد شدته أن تنسيني، تعليقي بطريقة البلانكو قبل ساعات. سيستخدمون الكمّاشة معي هذه المرة، فيضعون أصابعي بين فكيها، إصبعًا وراء آخر، ثم يضغطون عليها بشدة، لكنهم يتركونها قبل أن تنقطع مع أنفاسي، من شدة الصراخ. سيقول لي المحقق بعد ذلك:

- اختر سنًا من أسنانك، لنقلعه لك.

سأشير إلى السن الذي كسروه، عندما ضرب السجّان رأسي بباب الزنزانة، أثناء إحضاري إلى غرفة التحقيق، على الرغم من رغبتي بالحفاظ عليه، حتى بعد أن أصبح عبئًا عليّ، لكن طلبهم سيذكّرني بمشكّلة خلقوها، باتت تؤرقني، وأريد حلها بأية وسيلة.

ستفتح يدان فمي على وسعه، ثم يدخلون الكمّاشة إليه ويضعون السن بين فكيّها، يضغطون عليه بشدة ويسحبونه، لكنهم سيتركونه نصف مخلوع، مثل أصابعي نصف مقطوعة، مثلي أنا نصف ميت.

استجبت لاستدعاء فرع الأمن العسكري، لعدم وجود خيار آخر، أخذوا مني هويتي وهاتفي عند بوابة الفرع، ثم نقلوني إلى مبنى داخله، وتركوني أنتظر

في ممرٍ وسط أناس يسيطر عليهم التوتر، من دون أن يتوقف وصول آخرين وانضمامهم إلينا، بينما يدخل من ينادون على اسمه إلى مكتبٍ، ثم يغادره بعد فترة أو لا أعود أراه بعد ذلك، إلى أن طلبوا مني بعد أكثر من عشر ساعات، عندما كان الوقت اقترب من منتصف الليل الدخول إلى المكتب، حيث طلب مني محققٌ مكفهر الوجه في الغرفة سيئة الإضاءة، كتابة تعهد بعدم التظاهر وذكر الأسباب التي تدفعني للمشاركة في المظاهرات وتوضيح علاقتي بالتنسيقيات.

أعلمت المحقق، بألا مشكلة لدي بالنسبة للنقطة الأولى. في الواقع، كانت لدي وجهة نظري بهذا الشأن، هي موافقة كل معتقل على كتابة مثل ذلك التعهد إذا طُلب منه، لأن المسألة شكليّة ويمكن مخالفته بكل بساطة. بعد أن نفيت علاقتي بالتنسيقيات، كتبت عن أسباب مشاركتي في المظاهرات:

- أنا المواطن السوري شبال إبراهيم، تعرضت للظلم لأنني كُردي فحسب، الأمر الذي دفعني للمشاركة في المظاهرات التي انتشرت في البلاد، بعد بداية الربيع العربي، ولعل آخر المظالم التي تعرضت لها على الصعيد الشخصي كانت، عدم تعييني بوظيفة ممرض التي أُحبها، على الرغم من حصولي على شهادة من المعهد الصحي بعد دراسة مدتها خمسة عشر عامًا، ثم على موافقة وزير الصحة بالتعيين، لأن الموافقة كانت مشروطةً بمراجعة الجهات المختصة، التي لم تكن سوى فرع الأمن السياسي.

عندما راجعت الفرع، اتهموني بأنني خطر على أمن الدولة، على الرغم من سجلي العدلي النظيف وخدمتي العسكرية، وربطوا منحي موافقتهم على التوظيف، بالتعاون معهم وتقديم ما قالوا عنها أدلة على وطنيتي، عبر نقل النشرات الداخلية للحزب القومي الكُردي في سوريا، ليتم بالنتيجة رفض

توظيفي، ورفض منحي وثيقة (لا مانع من السفر) بعد ذلك، لاستخراج جواز سفر لمواصلة الدراسة خارج البلاد.

سلّمت المحقق الورقة فألقى نظرة سريعة عليها، ثم غادر المكتب وعاد من دونها بعد قليل، ليبلغني بأن عليّ اعتبار نفسي معتقلًا، وبأنه بانتظار مزيد من التعليمات بشأن وضعي، لكنه تلقى اتصالًا، خاطب المتصل بسيدي وردّ عليه بكلمات، ظهر من خلالها غير مصدق لما يسمعه، قبل أن يغلق السماعة ويطلب مني الذهاب إلى البيت، على أن أعود في التوقيت نفسه صباح الغد، وهو ما عزمت على عدم الالتزام به، مهما كان الثمن.

إن ما زاد من شعوري بالحصار خلال الأيام الأخيرة، ودفعني إلى التفكير بكسره ومغادرة المدينة، ظهور رجل أمن جديد، إلى جانب الفروع الأمنية الكثيرة، أعلن عن نفسه عبر شخص يدعى حمو، أبلغ جارنا بأن ضابطًا كبيرًا من المخابرات الجوية قادمٌ من دمشق، يريد لقائي.

برر حمو اتصال المخابرات به، بوجود رقم هاتفه لديها منذ ست سنوات، بعد القبض عليه ونقله مع آخرين إلى المخابرات الجوية بالعاصمة، أثناء قيامه بالتهريب عبر الحدود التركية، إلا أن كثيرين رجحوا تجنيدهم له منذ ذلك الوقت، وزرعه في الوسط التجاري بسوق قامشلي. كان لافتًا بعد بداية الثورة، تواجده الدائم في المظاهرات ومبالغته في إظهار حماسه، ما جعلنا نعتبر ذلك وسيلةً لإبعاد الشبهات عن نفسه، لمتابعة نشاطنا عن قرب.

في مقهى يعود لأحد معارفي وسط المدينة، التقيت برفقة عدد من الشبان بالضابط القادم من العاصمة، الذي قدم نفسه باسم المقدم أبو سليمان من مكتب الأمن القومي، وقال بأنه أتى إلى المنطقة في مهمة من نقطتين، هما أنا شبال إبراهيم ومشعل التمو، وأضاف:

- جلستُ مع مشعل، ووافق على التوقف عن حضور المظاهرات، أما بالنسبة لك، فأنت مطلوب من المخابرات الجوية بدمشق، ولكن نظرًا لخصوصية الوضع الكُردي، ولأن الحركة الكُرديّة معروفة بالسلميّة، وليست مثل تلك الموجودة في مناطق الداخل السوري، حيث هناك إرهابيون الآن، فأنا قادم للتحدث معك لآخر مرة، إذا وافقت على طرحي، فسنتفق، وينتهي كل شيء هنا.

عندما سألت رئيس تيار المستقبل الكُردي مشعل التمو، عما ذكره الضابط على لسانه، ضحك، وقال بأنه كاذب:

- لم ألتقيه، فكيف يمكن أن يجري بيننا مثل هذا الحديث؟

الفصل الثاني: الاختطاف

الطريق إلى الجحيم مفروشٌ بالنوايا الطيبة - مثلٍ إنكليزي

استيقظتُ متأخرًا في العاشرة صباحًا، في يومٍ بدا عاديًا، تناولت وأنا في السرير هاتفي وألقيتُ نظرةً على شاشته، كان أكثر ما لفت انتباهي، عدة محاولات للاتصال من مجهول، رقم هاتفه مكوّن من أرقام متشابهة يسهل حفظها، يشبه أرقام هواتف شركات الإعلانات وتستخدم أجهزة السلطة مثله عادةً، ونسميه لذلك الرقم المميز.

وصل ثلاثة من رفاقي في التنسيقيات، في تلك الأثناء، لمراجعة التحضيرات لمظاهرة الغد، فأجّلت الاتصال بالرقم المميز، لا بل نسيته تمامًا بعدما أبلغتني زوجتي عن قرب نفاد حليب طفلتنا ألين، أردتُ الذهاب إلى رأس الشارع لشراء علبتين، بالخمسمائة ليرة التي ناولتني إياها، لأضمن لابنتنا ما يكفيها حتى عيد ميلادها الأول بعد عشرة أيام، لأنني سأُودع أُسرتي وأُغادر المدينة حسبما خططنا له غدًا، وقد ضمنت لها دخلًا تعيش منه خلال فترة غيابي، بعد أن أوكلت إدارة متجري قبل مدة لآخرين، الأمر الذي كان جعلني بعيدًا عن متناول السلطات بشكل دائم.

كان رفاقي على وشك مغادرة المنزل، أريد مرافقتهم لشراء الحليب والعودة به، عندما تلقيتُ اتصالًا من المقدم أبو سليمان، فتحتُ السماعة لأُشاركهم ما سيقوله، فالتزموا الصمت وأصغوا السمع.

أخبرني المقدم، بأنه يتصل معي مباشرةً هذه المرة، بعد امتناعي عن الرد

على اتصالاته السابقة، وبأنه يتواجد في الحارة على مقربة، سيصل خلال دقائق إلى قبالة بيتي، ويطلب لقائي على الشارع لأمر هام، يريد أن يحدثني به وجهًا لوجه كما قال، مؤكدًا بأن ما سيبلغني به من معلومات، على درجة كبيرة من الأهمية والخطورة.

قبل أن أنزل الدرج للقاء الضابط، طلبت من رفاقي الصعود إلى الطابق العلوي غير المجهز من البناء، لمراقبة الوضع، وعدم الخروج إلا بعد ذهابه، كيلا ينكشف أمر وجودهم.

وصل الضابط وحيدًا في سيارة وطلب مني الصعود، جلست على مضض إلى جانبه، وسألته قول ما لديه، متحججًا بالانشغال بشأن خاص، فقال بأن الحارة مشبوهة، عليها مراقبة من الأمن (وكأنه ليس من الأمن)، وعرض عليّ أن نتحدث خلال جولة قصيرة في الشوارع القريبة، فوافقت وطلبت منه عدم الابتعاد. لم أنتبه حتى تلك اللحظة، إلى أنني أحمل جهازَي الهاتف معي.

رغم استبعادي التعرض لأذى، لأن الوقت نهار وحارة قدوربك كلها تعرفني، وستحميني عند الضرورة، بالإضافة إلى إظهار السلطات لنوع من ضبط النفس تجاه الاحتجاجات في منطقتنا حتى الآن، مقارنةً بتعاملها الدموي مع المناطق السوريّة الأُخرى، عبر حصر مظاهراتنا في مواقع محددة والاكتفاء بمراقبتها، واعتقال بعض المتظاهرين ثم الإفراج عن معظمهم سريعًا، بعد قليلٍ من الشد والجذب وعلى الأكثر بعد التظاهرة التالية من أجلهم، إلا أنني شعرت بانقباض في صدري فور تحرك السيارة، تهيأ لي سماع صوت داخلي يسألني، عن الحكمة في التواجد لوحدي مع شخص غامض بالكاد أعرفه، ظهر فجأةً قبل أيامٍ قليلة ولم يخفِ مهمته، في وقتٍ يجهل فيه وجود شهود على ذهابي معه، الأمر الذي قد يدفعه للظن، بأنه استفرد بي.

بدأ المقدم حديثه بالقول، بأن له أقرباء معتقلون في درعا، وبأن عواطفه تبقى مع المتظاهرين، حتى إذا تصرف عكس ذلك، لأنه مرغمٌ على تنفيذ الأوامر، فظننته واقعٌ في ضيق ويلمّح إلى طلب المساعدة، في وقتٍ تزايدت فيه الانشقاقات عن الجيش، لذلك عرضتها عليه، وذهبت بعيدًا إلى حد إبداء استعدادي لإخراجه إلى كُردستان أو تركيا إذا أراد ذلك، لكنني أضفت بأنني لن أثق به، مثلما لم أثق برجل مخابرات من قبل، إن لم يقدم ما يثبت تعاطفه معنا.

بالغ المقدم أبو سليمان في إظهار نفسه منحازًا لرأيي، طالبني بدوره بعدم الثقة به، وصل به ذلك إلى حد مفاجأتي بالقول، بأنه إذا تلقى أمرًا بقتلي في هذه اللحظة التي يتحدث فيها معي، فسينفذ من دون تردد.

على الرغم من أنني اعتبرت كلامه، حول استعداده للذهاب إلى أقصى مدى في التعامل معي مبالغةً، لوجودنا في وضح النهار وسط زحام المدينة، إلا أنني بدأتُ بمراجعة إجراءات السلامة التي كنت اتخذتها، نافذة السيارة التي تركتها مفتوحةً على سبيل الاحتياط، وقراري بفتح بابها والقفز منها، إذا لاحظت أيّ حركة مشبوهة منه.

تناول الضابط مظاهرة أول أمس، التي جرت تحت عنوان (ثلاثاء الوفاء لحسين عيسو)، الناشط المدني الذي اعتقلته أجهزة المخابرات قبل أكثر من أسبوعين في الحسكة، وأخفته من دون أثر، قال بأن العقيد رئيس فرع الجوية غاضب مما جرى، ففي الوقت الذي كان ينتظر مني العمل على التهدئة ووقف التظاهر مدة أسبوعين، نُقل له مشاركتي بفعالية في المظاهرة، فأصبح متيقنًا من أنني المسؤول عن الحراك الذي يجري.

بينما تتصارع الأفكار في رأسي، منتظرًا المعلومات الهامة التي يريد إبلاغي

بها، حسبما أعلمني خلال اتصاله، فاجأني المقدم بالحديث عن مشكلة تواجهه، لا أتوقع أن طلبه لقائي، كان من أجلها:

- راح أخبرك بشيء بيني وبينك، أنا أعاني من البواسير وطلبت من الصيدلاني القريب من المشفى القديم تحضير خلطة علاجيّة لي، أنا رايد أروح أجيبها.

غادرنا مركز المدينة باتجاه الغرب، سلك الضابط الشارع المار من المنطقة التي تعج بالأفرع الأمنية ومؤسسات الحزب الحاكم، كان النجاح سيحالفه بالتأكيد، لو أخذني إلى أيّ واحد منها، لكنه تابع وانحرف بالسيارة جنوبًا، فأصبح فرع الأمن العسكري خلفنا. عدا عن تجاوزه للإشارة الحمراء الواقعة على تقاطع دوار حافظ الأسد، ثم استخدامه الفرامل فجأةً على شارع القوتلي بعده، من دون داع، وكأنّه تذكّر شيئًا، وذلك عندما أصبحت الصيدلية على بعد مئة متر أمامنا، فقد كان الوضع عاديًا تمامًا، ولا شيء يثير الريبة.

أوقف أبو سليمان السيارة على طرف الشارع، جهة المشفى الوطني القديم، ونزل يريد قطعه للذهاب إلى الصيدلية في الجهة الأُخرى. فتحت الباب أريد النزول، بدا مستغربًا، إن لم يكن مصدومًا وهو يسألني عن ذلك، قبل أن يضيف بأنه لم ينهِ حديثه معي بعد، وعندما أبلغته بأنني أريد الذهاب بدوري للصيدلية، لشراء حليب لابنتي فحسب، رأيته مبتسمًا لأول مرة، أوقفني وحاول إظهار كرمه بالقول، بأنه سيجلب الحليب بنفسه، لكنني رفضت عرضه وحلفت، بأنني لن أقبله إن لم يأخذ ثمنه، فمد يده:

- مو مشكلة، وهاي هي الخمسمائة ليرة آخذها منك.

عاد الضابط خالي اليدين، قال بأن الصيدلاني ليس موجودًا في هذه الصيدلية، بل في فرعها الثاني الواقع مقابل المطار، وسألني عن رأيي حول الذهاب إليها، أو ترك أمر الدواء لوقت آخر، يذهب وحده لإحضاره، تركت

الأمر له، فانطلق بنا نحو الصيدلية الثانية.

طبّع ما حدث حتى ذلك الوقت الوضع، إلى درجة غاب فيها عن ذهني، مسألة وجود الصيدلية التي نتوجه إليها، قرب فرع المخابرات الجوية الواقع ضمن مطار قامشلي، وساهم في تطبيعه تمامًا، قيام الضابط بتعبئة المسافة الفاصلة عنها، بحديث متواصل عن الموضوع الذي أراد لقائي من أجله، عن (انشقاقات ستحدث خلال الأيام القليلة القادمة في نظام الحكم، ومنها انشقاق رئيس الوزراء، تحركات في القصر الجمهوري ستؤدي إلى وضع التزامات على الرئيس، سيتم عزله إذا لم يقم بتنفيذها، إجراء مصالحة وطنية وإطلاق سراح المعتقلين، لقاءات ستجري مع الأمريكيين)، وغيرها من مثل هذه القصص، التي حاول من خلالها إظهار نفسه مطلعًا على خفايا الأمور، عبر تأكيده في كل مرة على أنها بيني وبينه، على الرغم من أن معظم السوريين يتداولونها منذ بعض الوقت، لكنني انجذبت إليها، ربما لأنني أردت سماعها منه، فتخليت عما بقي لدي من حذر.

قبل الوصول إلى مطار قامشلي بعشرات الأمتار، ترك المقدم أبو سليمان الشارع الرئيسي المتجه نحو الحسكة جنوبًا، وانعطف بالسيارة يسارًا، نحو الفرع الثاني للصيدلية، أوقفها وغادرها لوحده ثانية. عاد هذه المرة وبيده كيسٌ، قال قبل أن يصعد، بأن حليب الأطفال الذي طلبته غير متوفر هنا، وسألني عما إذا كنت أريد حليبًا من ماركة أُخرى لإحضاره، رددت بالنفي وشكرته، أضفت بأنني سأتدبر الأمر بنفسي، فأعاد لي الخمسمائة ليرة.

غادرنا المكان، متوقعًا أن يعيدني الضابط إلى الموقع الذي أخذني منه أمام البيت، إلا أن أمرًا آخر كان بانتظاري، فعندما وصلت السيارة إلى الشارع الرئيسي، حيث مطار قامشلي بمواجهتنا في الجهة الأُخرى، وبدلًا من

الانعطاف يمينًا نحو المدينة، فاجأني بالتوجه يسارًا، فسألته تحت وقع المفاجأة:

- لوين رايح!؟

لم يرد المقدم، بل ضغط على دوّاسة الوقود حتى النهاية. أرعد المحرك فزلزل السيارة، وصدر عن الإطارات عويلٌ، شاركها فيه الشارع سيء التزفيت. قفزت السيارة وانطلقت بسرعة جنونية، مثل طائرة على وشك الإقلاع، نظرت إلى الضابط، في محاولة لفهم ما يجري، فوجدت إلى جانبي شخصًا آخر تمامًا، لا أعلم فيما إذا كان قناعًا سقط عن وجهه، أم تحوّل خلال تلك الثواني إلى مخلوق مرعب، بوجهه الشاحب المتعرق، وهو يمسك المقود بقوة وينظر بحدة إلى الأمام، وكأنّه يفر من الموت، أو يريد اللحاق به. أعدتُ سؤالي بصوت أعلى، مشحونًا باستنكار:

- لوين رايح!؟

تابع الضابط صمته المستفز وتركيزه على القيادة، فلمعت في رأسي فكرة الوصول إلى مسدسه، لحظة وقوع عيني عليه، في الجهة اليمنى من حزامه، جهتي، وذلك في محاولة لم يعد لي غيرها، لتهديده وإرغامه على العودة، وقد صحوت على حقيقة أن اعتقالي بهذه الطريقة المبيتة، هو من الخطورة بمكان، بحيث يتساوى في نهاية المطاف مع قتلي، إن لم يؤدِ إليه فعلًا، وخلقت كراهيتي للغدر استعدادًا، لإنزال أقصى العقاب به.

خرج الضابط بالسيارة عن الشارع الرئيسي، وانحرف بها يمينًا باتجاه فرع المخابرات الجويّة، فارتفعت عارضة حاجز الفرع الحديدية أمامنا. ازددت توترًا، مثل طائرٍ يمضي إلى مصيدة ستطبق عليه، فحسمت أمري أخيرًا، ومددت يدي اليسرى إلى مسدسه، وعندما وصلتُ إليه، وضع المقدم يمناه

عليها وأحكم تثبيتها، فجعلني عاجزًا عن تحريكها أو إفلاتها، وتابع القيادة، بالإصرار ذاته.

أفشل جسم المقدم الضخم، وقوته التي ظهرت خلال وقت عصيب، محاولاتي لانتزاع مسدسه، وجعل يدي اليسرى وبالًا عليّ، لذلك عملت على الاستفادة من الأُخرى، فحاولت فتح غطاء أحد الهاتفَين بها، لنزع شريحته واتلافها، وقد نجحت في فتح الغطاء وابعاد البطارية، وبينما أنا منهمكٌ بالوصول إلى الشريحة، بأصابعي التي أثقلها الوقت، ضغط الضابط على الفرامل وأوقف السيارة، ثم ترك يدي وتحدّث أخيرًا، قائلًا بأنه ليس هناك داع لإخراج الشريحة، فنظرت إليه ثم إلى حيث ينظر، لأجد نفسي داخل فناء المخابرات الجوية، ينتظرني عناصر مدججون بالسلاح.

الفصل الثالث: المخابرات الجويّة بقامشلي

بوابة الجحيم الأولى

فتح عسكري باب سيارة المقدم وأنزلني، ثم أمسك مع آخر ذراعيّ وأدخلاني إلى مكتب أبو السعود، مدير مكتب رئيس فرع الجوية. انتزعوا مني جهازَي الموبايل وبدؤوا بتفتيشي، أخرجوا علبة السجائر من جيبي، فاستلّيت سيجارة منها وأشعلتها على عجل، غير مدرك للتغيير الذي طرأ على وضعي، طلب مني المدير إطفاءها، قائلًا بأن التدخين ممنوع، لاحظت منفضة سجائر على الطاولة، فأردت تذكيره:

- ولكنك تدخن!

- أنت صرت معتقل، وما بيحق لك أيّ شيء.

تجاهلت طلب أبو السعود، فانتزع السيجارة من فمي، رماها وداس عليها. تابعوا التفتيش، أخذوا هويتي والخمسمائة ليرة التي كنت سأشتري بها الحليب لابنتي، ثم أدخلوني إلى مكتب رئيس الفرع العقيد حسين، الذي أراد إظهار سعة صدره، ولكن نفاد صبره أيضًا:

- أنا أعطيتك فرصة يا شبال، على الرغم من أن الجويّة ما فيها فرص، قلت لك ما في داعي للمسخرة اللي عم تديرها، فحاولت إظهار نفسك وكأنك شخص ما له علاقة بقيادة المظاهرات، لكنني راح أسمعك تسجيل يكذّب كل ادعاءاتك.

أسمَعَني العقيد المقطع الصوتي الذي أُحذر فيه السلطات من التعرض

للنشطاء، فأعلمته بأن الأمن العسكري سألني عنه قبل أسبوعين. سأل مستغربًا:

- أنت جاد؟ وليش ما اعتقلوك؟

- ما بعرف، يمكنك الاتصال بهم وسؤالهم عن الموضوع.

يبدو بأن إجابتي أربكت الضابط، ربما شعر في ظل التنافس المعروف بين أجهزة المخابرات، بوجود لعبة مخابراتية ما، لذلك لم يصعّد في الموضوع، بل أشغل نفسه بالأوراق التي واظب مدير مكتبه على إحضار دفعات منها، من وقتٍ إلى آخر، فأخذ يقلّبها، إلى أن رفع واحدة عليها صورة شخص، أشار إليه وسألني عنه، الأمر الذي أكد لي قيامهم بتفريغ جهازَي الموبايل اللذين صادروهما مني، وبأن الأوراق التي تصله تباعًا، ما هي إلا نسخ عن محتوياتهما. نظرت إلى الصورة، قلت للضابط بأنني لا أعرف صاحبها، ولكنه رد جازمًا:

- بلى أنت تعرفه.

- اسمح لي أقول لك يا سيادة العقيد، أنا شخص ما يعرف الكذب، أنت بنفسك خبرتني المرة الماضية، بأن زبائن متجري يحكون عن أمانتي وبضاعتي النظيفة، وبأنني ما غشيت بيوم من الأيام، لذلك لما أقول ما أعرف صاحب الصورة، فأنا ما بعرفه فعلًا.

أعاد العقيد التأكيد على أمانتي، لكنه أصر على اتهامه لي:

- هذا جمال العلي اللي أنت اتصلت معه البارحة، وكمان في أكثر من مكالمة بينكم.

عدلت إجابتي، قلت له بأنني لا أعرفه بشكل شخصي ولم ألتقِ به من قبل، ولكنه خطب فتاة من المعارف قبل فترة، والاتصالات بيننا بدأت على هذا الأساس، فردّ بنبرة تأنيب، يريد لفت انتباهي إلى خطأي:

- هو يعمل في قناة الغربية!

- هذا شيء خاص به وعمله ما بيمنع اتصالنا ببعضنا، أنا ما أقدر أتدخل بحياته.

- ولكن القناة محرِضة ومغرضة!

- هذه مشكلته، وأظنك تعرف بأنه رفيقكم في حزب البعث العربي الاشتراكي، كان في اتحاد شبيبة الثورة، وبعدين صار بعثي مثلما هو معروف عنه.

سأل العقيد بعد ذلك، عن اسمٍ مكتوبٌ بالأحرف اللاتينية (خليل جاز). كان الاسم لخليل من قناة الجزيرة، حفظته على الموبايل باسم (خليل جزيرة)، لكن الجهاز حفظ من الكنية الأحرف الثلاث الأولى فقط، فظهر بذلك الشكل، وعلى الرغم من أني حذفته من لائحة الأسماء ليلة أمس، إلا أنه بقي في سجل الاتصالات. سأل الضابط:

- من هو (خليل جاز) هذا؟

- هو خليل ابن خالتي جازية.

- ووين ابن خالتك هلّا؟

- في قطر، ابن خالتي صارله عشر سنوات في قطر.

- وليش اتصلت معه؟

- ما أتذكر، أنا أتصل مع كثير من الناس، والاتصالات بيني وبين أهلي أمر عادي، حتى من دون سبب أو مناسبة.

يبدو بأن الأمور تمضي على خير حتى الآن، هدأتُ قليلًا وتراجعت مشاعر السخط، لوقوعي بسهولة في فخهم، على الرغم من أن التحقيق الذي يجري معي سطحي، يحمل طابع تمضية الوقت، إن لم يكن ببعده عن العنف (شبه ودي)، مثل التحقيقات التي يتعرض لها شبان التظاهرات في منطقتنا

الصعبة، التي لم يحسم نظام الحكم بعد، الأسلوب الذي سيتعامل به معها، خلافًا للمناطق الأُخرى، التي تشهد معارك حقيقية بين قواته والمتظاهرين العزل، الذين يختفون في معتقلاته من دون أثر.

في محاولة لإثبات نفسه الأكثر كفاءةً، عاد الضابط للضغط عليّ، من باب ما اعتبره تقصيرًا في عمل زملائه. بدأ سؤاله الجديد بمقدمة، حول وجود صلاحيات لديه، لتركي وشأني، إذا تعاونت معه:

- أنا فيني طالعك يا شبال، تروح لبيتك فورًا وتاخد الحليب لبنتك اللي عم تستناه.

تجمد الهواء في رئتي، عندما أشار الضابط إلى ابنتي، بطريقة لا تخفي ابتزازًا، بعد أن ذكّرني بما قلته عبر الميكرفون الثلاثاء الماضي (في مظاهرة الوفاء لحسين عيسو)، من أن كل الفضائيات حاضرة معنا، بينما لاحظ عدم حضور أيًا منها، الأمر الذي جعله يستنتج، وجود هاتف ثريا بحوزتي، للتواصل معها. تخوفت من مداهمة منزلي للبحث عن الجهاز، وإرهاب زوجتي وأطفالي، وجعلهم يشهدون أمرًا لن ينسوه طوال حياتهم، فأجبت بشكل قاطع:

- أنا ما عندي هاتف ثريا يا سيادة العقيد، ما شفته بحياتي ولا أعرف حتى شكله.

انتظرت وقع كلامي عليه، فوجدته يرميني بنظرات تشكيك، لذلك تابعت، محاولًا صرف تفكيره عن موضوع ليس له أيّ أساس، وعملت على دعم كلامي بالحجة:

- أظنك عرفت أمانتي من قبل، وجربت قبل شوي صدقي بموضوع الصورة اللي عرضتها عليّ، والله لو كان عندي جهاز ثريا، لأخبرتك عنه.

توقف العقيد حسين عند هذا الحد. اختتم تحقيقه بنصيحة، قدمها

بخبرة العارف بما ينتظرني من أهوال، لدرجة شعرت معها بأنني مقبل على الإعدام:

- حاول تتذكر أطفالك وأهلك بساعاتك الأخيرة عندنا وتودعهم، لأنك مطلوب من المركز بالشام، وهناك مو بس راح تختلف المعاملة معك، ما راح يعطوك فرصة لتتنفس.

- أطفالي بخير وإن شاء الله راح يكونوا دائمًا بخير.

استدعى رئيس فرع الجويّة مدير مكتبه، وطلب منه أخذي إلى السجن. بدا جادًا وهو يوصيه بحسن التعامل معي، لكنه أنهى حديثه ساخرًا، أو هكذا فهمت من نبرة صوته:

- تعاملوا معه منيح وما تتولدنوا معاه، خلوه يدخن سيجارة، لا تنسوا قائد الثورة عندنا هون، الزلمة سياسي وبدنا ندللو شوي.

أخرجوني من مكتب العقيد، ثم فتحوا بابًا كبيرًا على بعد أمتار قليلة، يبدأ منه ممرٌ ينتهي بغرفة الحجز. سألني عنصرٌ يرافقني، عما إذا كنت أريد الذهاب إلى التواليت، فرددت بالإيجاب، وفي نيتي البحث عن منفذ للهرب، لكنني غادرت التواليت سريعًا، عندما وجدت الهروب مستحيلًا.

كان أول ما لفت انتباهي في غرفة الحجز، نافذة كبيرة مغطاة بقضبان حديدية متشابكة، توجهت إليها لاستطلاع المكان، فمنعني الشبك البارز عن الحائط، من رؤية أكثر من مساحة صغيرة أسفلها، يذرعها جيئة وذهابًا، عسكري يحمل بندقية.

أحضروا لي صندويشة، فرفضتها، إذ كيف لرجل مسلوب الحرية، التفكير في الطعام أو قبوله من سجّان، احتجزه مع الذباب والبعوض في غرفة صغيرة، مغلقة عليه بإحكام مثل فرن مشتعل، بحجمها الذي لا يتجاوز مترين مربعين،

وكل ما فيها هو بطانيتان عسكريتان قذرتان، رائحتهما كريهة، لا منفذ له منها سوى باتجاه العاصمة، حيث الموت بانتظاره؟

قبل نهاية النهار، بدأت رائحة الشواء تقتحم الزنزانة. يبدو بأن المتنزهين وصلوا إلى منطقة المطار المشجرة، جريًا على عادة أهل قامشلي، في الخروج إلى هذا المكان المرتفع من المدينة، في مثل هذا الوقت من كل خميس، للاستمتاع بالهواء المعتدل، مقارنةً بجوها الخانق، وعندما حلّ المساء، وصلت أصوات مطربي حفلات الأعراس من الصالات القريبة، متداخلة مع بعضها البعض، ليزيد ذلك من الضغوط عليّ.

لم أستطع النوم في تلك الليلة الطويلة، حتى بعد توقف الغناء وانتهاء الضوضاء، غفوت عدة مرات، لكنني صحوت في كل مرة فزعًا، على طنين البعوض ولدغاته، إذ لم يتوقف عن مناوراته واستهدافي بسهامه، بينما لازمني شعور بأنني نمت طويلًا، من دون أن ألحظ نهاية لليل.

أخذ المقدم أبو سليمان حيزًا كبيرًا من تفكيري، وحضرت تعابير وجهه الأخيرة كابوسًا خلال الغَفَوات القليلة. اختفى تمامًا بعد اختطافي إلى فرع الجويّة، ولم أره بعد ذلك.

لكي أكون دقيقًا، سألمح المقدم أبو سليمان بعد سنوات، عند إحدى بوابات مطار أربيل، يتحقق من أوراق مسافرين واقفين في طابور، وذلك أثناء توجهي إلى بوابة الطائرة التي ستقلني إلى تركيا، في الساعة الثالثة صباحًا، حيث سترسلني حكومة إقليم كُردستان للعلاج.

سأتصل بأعلى السلطات في الإقليم، وأبلغها عن وجوده في المطار، سيحاولون تهدئتي ويرسلون مسؤولًا كبيرًا، يسألني عن الشخص الذي أقصده، فأدله عليه، ثم يطلب مني اللحاق بالطائرة قبل أن تقلع، قائلًا بأنهم

سيجرون تحقيقاتهم.

سيتم إبلاغي عند وصولي إلى تركيا بنتائج التحقيقات، سيقال لي، بأن الرجل الذي رأيته في المطار، هو حسب بياناته سوري بالفعل، لكنه رجل أعمال ولم يدخل سلك الأمن من قبل، كانت لديه كازينوهات في دمشق، إلا أنه مستثمر في شركة طيران الآن، والمدير لرحلة الطائرة التي كان ينظم الصعود إليها..

سأرجوهم أن يتأكدوا من هوية الشخص، الذي فتح بوابة الجحيم أمامي وألقاني في أتونه، فجعل مني وقودًا لناره وأوصلني إلى حافة الموت، لا بل جعلني أراه بعينيّ المطمّشتين وألمسه بيديّ المقيدتين، لكنهم سيحّسمون أمرهم، بالقول بأنه ليس الشخص الذي قصدته.

تشكّل لدي انطباع في هذه الليلة العصيبة، التي شهدت احتجازي لأول مرة في مكان مغلق، باستحالة تحمل ظروف السجن لوقت طويل. تراجعت الطاقة الإيجابية واحتلت السلبية مكانها، دعوت الله أن ينزل على رأسي مصيبة تنهيني، كيلا أضطر للعيش في مثل هذه الظروف، التي أفقدتني ثقتي بنفسي خلال ساعات.

جاءني عسكري صباحًا، وسألني عما إذا كنت طلبت دواءً. علموا بموضوع الدواء على الأرجح، من خلال اتصال همبر بهاتفي الذي وضعوا أيديهم عليه، فهو لا يعلم - بالتأكيد - بأنني معتقل، وأراد إبلاغي عن دوائي الذي سيرسله من دمشق، مع باص تابع لشركة نقليات، حسبما اتفقنا في مكالمة سابقة.

أنا آخذ دواء الكبد (زيفيكس) منذ مدة طويلة، لأن (الخمائر مرتفعة في كبدي والعامل الاسترالي إيجابي) حسب الأطباء، أذهب بسبب غلائه إلى العاصمة، حيث يجري لي الدكتور محمد سامي البارودي الفحوصات ويوفره

مجانًا من المشفى، يعطيني علب من العينات التجريبية المتوفرة للأمراض المزمنة.

في آخر مرة ذهبت فيها إلى دمشق، وكان ذلك بعد أسبوعين من بدء المظاهرات في منطقتنا، التقيت شبابًا من نشطاء داريا، قبل أن ألتقي لآخر مرة الدكتور البارودي، وهو بالأصل من مدينة حماة، أعلمته بأنني أنشط في المظاهرات، واستخدمت على سبيل الاحتياط هوية شقيقي للمجيء، وقد لا أستطيع ذلك مرة أُخرى. بادلني الطبيب الثقة وتمنى لي التوفيق، طلب مني ألا أقلق بشأن الدواء، قال بأنه سيوفره لي في ميعاده، ويرسله مع أيّ شخص أحدده له.

سأرى صورة طبيبي محمد سامي البارودي بعد ثماني سنوات، على رصيف شارع مقابل محكمة فرانكفورت الإقليمية الألمانية، معروضة إلى جانب صور أطباء وممرضين، قُتلوا تحت التعذيب في معتقلات السلطة، وقد تم عرضها بمناسبة محاكمة طبيب سوري قَدِم إلى ألمانيا، تقدم بطلب لجوء، فحصل على حماية الدولة وأصبح يعمل طبيبًا في أحد مشافيها.

تعرف لاجئون سوريون، كانوا معتقلين قبل قدومهم إلى ألمانيا، في سجن سري تابع للاستخبارات العسكرية بمدينة حمص، على الطبيب الذي كان ضابطًا في السجن أبّان وجوده في الخدمة العسكرية، وقدموا شهادات على ممارسته التعذيب على المعتقلين، بدلًا من معالجتهم والتخفيف من آلامهم، كما يُفترض به، من قبيل حقن أحدهم بمواد سامة وإشعال الأعضاء التناسلية لآخر، ما أدى إلى مقتل بعضهم والتسبب بعاهات دائمة لآخرين، ليجري اتهامه من قبل الحكومة الألمانية، بارتكاب جرائم ضد الإنسانية.

فتحوا باب غرفة الحجز ثانيةً قبيل الظهر، وقف عسكري بالباب وسألني

عمّا إذا كنت أريد شيئًا، الماء أو الذهاب إلى التواليت مثلًا، وبأنّ عليّ قول ذلك الآن، لأنهم ذاهبون إلى المظاهرة ولا يعلمون متى سيعودون، ولن يُفتح الباب خلال غيابهم، لأن الحرس ليست لديه مفاتيح أو صلاحية لإعطائي شيء. رفضت عرضه، وأضفت بأن الغرفة التي يحتجزوني فيها، هي تواليت أصلًا، بل أقذر منه.

أداروا محركات السيارات وذهبوا، غادرت ستٌّ منها المكان، على الأرجح. ربما لم يبق سوى عنصر واحد في الفرع، هو ذاك المتواجد أسفل النافذة، التي بدأت الحجارة تتساقط عليها، وترافق ذلك مع أصوات أطفال.

نظرت عبر الشق الموجود أسفل النافذة، فرأيت طفلين تتراوح أعمارهما بين السابعة والعاشرة، توقعت بأن يكونا أولاد العقيد أو ضباط آخرين. ربما يحضرون عوائلهم إلى الفرع أيام المظاهرات، تحسبًا من خروج الأمور عن السيطرة.

لم تتوقف الحجارة عن التساقط على النافذة، ووصل بعضها إلى داخل الزنزانة، ناديت على الحارس وسألته عمن يرمي الحجارة، اتخذت من الأمر ذريعةً لرفع صوتي، على أمل أن يتصادف ذلك مع مرور أحد من الشارع القريب، فيسمعني ويعرف بوجودي هناك، لأنني وجدت من غير المناسب المناداة على الناس، لطلب النجدة بشكل مباشر. توقف رمي الحجارة، فساد الصمت ثانيةً.

تأخرت جماعة المخابرات الجويّة في العودة، تثاقل الزمن، فحملت كل لحظة معها، خوفًا كبيرًا على الأهل والمتظاهرين والمدينة.

أخيرًا، عندما حلّ العصر، سمعت أصوات محركات سياراتهم. فتح أحدهم كوّة الباب، بعد قدومهم بنصف ساعة، لم يكن ذاك سوى عنصر

المخابرات أبو جاسم، وهو أحد زبائن متجري، جاءني أول مرة عبر جارنا أبو جانو الخياط، واشترى مني فيما بعد بضاعة بالدين، قبل حوالي أربع سنوات، طالبته بتسديده من دون جدوى، إلى أن أصبحت مطالبتي تحمل نوعًا من المزاح، أكثر منها إصرارًا على التحصيل:

- والله عيب عليك يا أبو جاسم، ليش ما تدفع اللي عليك؟

- خلاص خالي شبال، المرة القادمة أدفع.

كان يأخذ الموضوع على محمل الجد، يتذلل كثيرًا، فأشعر بحراجة موقفه وأغيّر الحديث. عندما رأيته واقفًا بباب الزنزانة، بادرته مازحًا:

- هات الألف وستمائة ليرة يا أبو جاسم.

- إذًا، هذا أنت يا شبال اللي كركب الدنيا، ما توقعت أشوفك بهالموقف بيوم من الأيام.

دخل أبو جاسم إلى غرفة الحجز، وكأنه يزورني في متجري، باستثناء القلم والدفتر بين يديه، بدلًا من حقيبة اليد الصغيرة التي يحملها دومًا، لم ألحظ تغييرًا عليه، فقد جعلني أشعر مثل عادته، بأنني أُقابل صديقًا وليس رجل أمن. قدّم لي صندويشًا ورجاني أن آكله، قائلًا بأنه لا يريد لصحتي أن تتأذى، رفضت وطلبت منه الدخان:

- أعطني سيجارة قبل أيّ شيء من فضلك، أنا ما دخنت من البارحة.

دخنت ثلاث أو أربع سجائر دفعة واحدة، فاستعدت قدرتي على التركيز، غيّرت عندها مجرى الحديث، وسألت أبو جاسم عما حدث في المظاهرة، فنهض وذهب إلى الباب، للتحقق من عدم وجود أحد، ثم عاد وقال بصوت منخفض:

- خربت الدنيا اليوم، صارت اعتقالات بالجملة وإطلاق غاز مسيل للدموع،

بس الحمدلله، مضت الأمور على خير.

كثيرًا ما شرب أبو جاسم القهوة معنا في المتجر، مثل أيّ زبون آخر، وعندما كان مروره يصادف تناولنا الفطور أو طلبنا الطعام، كنا ندعوه لتناوله أو نلح عليه بالبقاء حتى يصل، يبدو بأنه لم ينس ذلك ولم يتنكّر له:

- أنا جئت للتحقيق معك، بس بشرفي ما أعرف من وين أبدأ، خالو شبال بدي أكون صريح معك، وضعك صعب، نحن بيتنا خبز وملح، وأنت ما قصرت معي من اليوم اللي جيت فيه لمتجرك قبل عشر سنوات، لكن بشرفي ظروفي كانت صعبة في الفترة الأخيرة، ما كنت أروح حتى إلى جارك أبو جانو، بسبب دينك عليّ.

- خليك هون وإنسى المصاري، فداك، قال لي الرجل بأنني مطلوب للشام، حاول تسأل وتتأكد من صحة كلامه.

- أي نعم هو صادق، أنت مطلوب للشام.

أبو جاسم مكلفٌ بإجراء التحقيق معي داخل غرفة الحجز، سيطرح الأسئلة، على أن أكتب أقوالي بنفسي في الدفتر الذي يحمله، لكنه غيّر رأيه، وأراد القيام بذلك في المكتب. همس في أذني قبل أن يخرج:

- راح أترك القلم والدفتر عندك، بس لا تكتب شيء، إلا إذا بدك، بعد ساعتين راح ناخذك للمكتب للتحقيق، قول بأنك رايد تشرب شيء، وأنا أتكفل بالباقي.

- فكرة جيدة، ولكن خذ دفترك وقلمك معك، وإعطني بدالهم سيجارة كمان.

- أنت دخنت اليوم على معدة فارغة، بس راح أترك لك سيجارة مع ولّاعة، وإذا شعلتها بعدين، أرمي الولّاعة من تحت الباب.

أشعلت السيجارة فور مغادرته، وفتحت الدفتر، أريد اشغال نفسي ريثما يعود. دوّنت في أعلى الصفحة الأولى، المكان والتاريخ: مطار قامشلي، فرع

المخابرات الجويّة، الجمعة، ٢٣ سبتمبر ٢٠١١. شعرت بنفسي خاويًا، لم أجد ما يمكن إضافته، فملأت الصفحة خطوطًا عشوائية ودوائر متداخلة، ثم أغلقت الدفتر، تاركًا صفحاته التالية، بيضاء، كما هي.

عاد أبو جاسم مع الحرس بعد حوالي ساعة، وكان المساء قد حل، أخذوني إلى مكتبٍ فيه عنصران، يجلس أحدهما إلى اللابتوب ويضع سماعات على أذنيه، لم يكن وجه الآخر، الجالس إلى جانبه، غريبًا عني. سألوني عما إذا كنت راغبًا بشرب شيء، لاحظت كاسات الشاي أمامهم، فطلبت شايًا. سألني الشخص الذي شعرت للوهلة الأولى بأنني رأيته من قبل:

- تذكرتني؟

- أظنني تذكرتك.

التبس عليّ أمره في البداية، بسبب لباسه المختلف عن ذلك الذي كان يرتديه، عندما رأيته أول مرة ليلًا، ولكنني تذكرته بعدما أمعنت النظر في وجهه. سأل:

- إذًا، مين أنا؟

- أنت الشخص اللي كان يصور المظاهرة الليلية باللباس العربي وقتها، حميتك ومنعت الشبان من ضربك، على الرغم من تأكدي من حقيقتك.

- تمامًا، أنت ذكي والله وتعجبني، وأعرف كيف راح أتصرف معك.

كان ذلك قبل أسبوعين، على هامش المظاهرة الليلية عند دوار الهلالية، على شارع الحزام غربي المدينة. غادرت وسط المظاهرة حيث تلقى الكلمات، واتجهت إلى طرفها جهة الدوار، فشاهدت ضوءًا يشع في وسطه المعتم، تقدمت منه فوجدت رجلًا جالسًا هناك، يرتدي ثوبًا أبيض وشماخًا وعقال. كان الضوء يصدر من جهاز موبايل في جيبه، لكنه أغلقه عندما رآني،

فاشتبهت في أمره وأمسكت به، حضر آخرون، فخاف وبدأ يرتجف، بعد أن هاجمه أحد الشبان وحاول صفعه، حِلْتُ دون ذلك وسألته عمّن يكون، فرد عليّ:

- أقسم بالله أنا متظاهر معكم وأنت تمثلنا أخي شبال، أنا كنت متضايق وجئت للتبول هنا، فوضعت التلفون في جيبي.

كان يعرف اسمي وتصرف بحرفية، فقد دخلت إلى هاتفه، لكنني لم أعثر على أيّ شيء ملفت، يدل على أنه كان في حالة اتصال أو سجّل شيئًا. سألناه عن بيته، فأشار إلى أحد الاتجاهات، قلت له، وكانت المظاهرة على وشك الانتهاء:

- اذهب على الرغم من عدم تصديقي لكلامك، أنت جاسوس ولكن لا يهمني الجواسيس ولا أخافهم، انقل الواقع الذي رأيته، ليعرفه من يريد أن يعرف.

طرح أبو جاسم الأسئلة التي اعتدت سماعها مؤخرًا، فأنكرت مجددًا أيّ دور لي في التنسيقيات، أو معرفة بأسماء النشطاء. كانت المسألة التي غيّرت رأيي بشأنها، هي التعهد بالتوقف عن التظاهر، فبعد أن كنت مستعدًا للقبول بالتوقيع عليه، أصبحت أرفض ذلك، ما داموا سينقلونني إلى العاصمة في جميع الأحوال. لن أوقع على تعهد مجاني، بل سأواجه مصيري من دون تنازل، حتى إذا كان شكليًا.

علاوة على ذلك، صعّدت بشكل غير مسبوق، أخبرتهم بأنني دخلت إضرابًا عن الطعام، ويمكنهم اعتبار ذلك أحد أشكال التظاهر، أنزل العنصر الموجود أمام اللابتوب السماعة عن أذنيه عندها، وطلب وقف التحقيق وأخذي إلى السجن. رجّحتُ تلقيه أمرًا بذلك من رؤسائه، الذين يتابعون ما يجري، من دون شك.

عشت في الزنزانة ليلة ثانية أسوء من سابقتها، فإذا كنت غفوت في الأولى، ففي هذه لم يغمض لي جفن. ازددت انشغالًا بمصير عائلتي، وبالتفكير بالأبواب التي فتحها سؤال المحقق لي، عما إذا كنت أعرف ما يجري في المخابرات الجويّة بدمشق، والمصير الذي ينتظرني هناك، كان مثل هذا السؤال لوحده كافيًا، لتستعيد ذاكرتي كل ما سمعته من قصص مرعبة عن الأفرع الأمنية، خاصة تلك التي رواها معتقلون سابقون في مطار المزة وسجن صيدنايا وفرع فلسطين، التي تسبقها سمعتها الرهيبة إلى كل مكان.

بقيت يقظًا طوال الليل، وشهدت تبديل الحرس في الثامنة من صباح اليوم التالي، يبدو بأنني غفوت بعدها، لكنني سرعان ما صحوت على صوت فتح باب الزنزانة. دخل أبو جاسم مع عسكريان، فتمنيت عليه بتذمر، تركي نائمًا، ذكرت بأنني لم أنم منذ يومين، فردّ:

- قوم خيو، قوم بدنا نودعك.

- إلى الشام؟

- أي والله.

نهضت ومشيت معهم بتثاقل، سألني أحدهم عما إذا كنت أريد الذهاب إلى التواليت، ثم أخرجوني من البناء، وأوقفوني إلى جانب بيكآب أمامه.

كان العقيد حسين واقفًا على مقربة، يتحدث مع ثلاثة عساكر يرتدون زيًّا مموهًا، يحملون رشاشات كلاشنيكوف وعلى صدورهم جِعاب رصاص، يتمنطق أقربهم إليه مسدسًا على خاصرته، وهو الذي توجه إليّ بالكلام، وكأنه يريد إعلان ما اتفقوا عليه:

- حط أيديك وراء ظهرك، مشان نحطهم بالقيد.

أعلمت العسكري بأنني أعاني من خلع في الكتف اليمنى، تسبب به حادث

مروري قبل أكثر من عشرة أعوام، لكنه لم يأبه بذلك وجرَّ يدي متأففًا، فأكدت له بأنها ستنخلع من مكانها إذا قيدوها خلف ظهري، مثلما يجري من وقت إلى آخر، الأمر الذي يسبب لي ألمًا شديدًا، فرد بحزم، بلهجة أهل الساحل السوري التي أعرفها جيدًا، بحكم دراستي في مدينة اللاذقية:

- يخلع رقيتك، كتير بيهمنا يعني.

بعد أن انتهوا من قيد يديّ، توجه العقيد حسين إلى قائد المجموعة بتوصية:

- عاملوه معاملة سياسي، ولا تقسوا عليه!

دفعوني بعنف إلى المقعد الخلفي للبيكآب، وأجلسوني بطريقة أكدت لي، دخولي في مرحلة مختلفة. صعد قائد المجموعة إلى جانب السائق، بينما جلس العنصران إلى جانبيّ، وعمدا إلى تطميش عينيّ برباط أحمر، ثم طلبا مني إنزال رأسي إلى مستوى قدمي، لأصبح خلال ذلك الحر الشديد والمسافة الطويلة التي تنتظرنا، في موقف لا يحسد عليه.

بعد رحلة سيئة، عانيت خلالها من صعوبة في التنفس ووجع في منطقة الكتفين بشكل خاص، وصلنا إلى مدينة الحسكة جنوبًا. تلقى قائد المجموعة اتصالًا من فرع الجويّة بقامشلي، أبلغه العقيد حسين خلاله، بأنهم نسوا وضع هويتي في الملف الذي سلموه له.

تكدّر الجميع، ربما كنت أكثرهم، وأنا أُفكر بمسافة المئة كيلومتر التي قطعناها، في وضعٍ بالغ السوء، وخشيت من عودتنا لجلب الهوية، وأنا على تلك الحال. كان آخر سؤال طرحه قائد المجموعة على العقيد، قبل انهاء المكالمة معه:

- عن جد سيدي، نشتري له الدواء كمان؟

أبلغ قائد المجموعة رفاقه، بأن العقيد سيرسل الهوية مع أول باص عابر من حاجز المطار، وطلب منهم الانتظار في فرع الجويّة بالحسكة ريثما تصل، مع رفع الطمّاشة عن عينيّ وقيد يديّ من الأمام، وشراء الدواء والطعام لي، فأوقفوا السيارة، وطلبوا مني الاعتدال في جلستي. ذهب عسكري إلى صيدلية قريبة، لكنه عاد سريعًا وتوجه إلى قائده:

- يا معلم الدواء غالي كتير، حقه أكثر من ألفين ليرة.

اتصل المعلم بالعقيد وأبلغه بذلك، فردّ عليه الأخير، من دون أن يعرف بأنني أسمعه:

- معليش اشتروه، أحسن من موته بين أيديكم قبل ما يوصل للشام.

اشتروا لي الدواء وصندويش شاورما للجميع، قالوا بأننا سنأكل في فرع جويّة الحسكة، حيث سننتظر وصول الهوية. أدخلونا إلى مكتبٍ في الفرع، وبدؤوا بتناول الوجبة، باستثنائي، بقيت على موقفي بالامتناع عنها.

كانت قناة الدنيا الحكومية تعرض مسلسلًا، تشارك فيه الممثلة المعارضة يارا صبري، شتمها قائد المجموعة بألفاظ نابية ونعتها بالإرهابية، استغرب ظهورها على القناة وطالب بتغييرها، تشجّع عند ذلك مستضيفهم، ولفت انتباهه إليّ:

- وليش تبعّد وعندنا إرهابي هون، خرّب البلد مثلها ويمكن أكثر.

طلب منه قائد المجموعة التوقف، وتركني وشأني:

- لا تغلط معه، العقيد وصّى عليه، الزلمة سياسي.

وصلت هويتي فغادرنا الحسكة، خففت المجموعة من إجراءاتها الصارمة بحقي خلال الطريق. وصلنا إلى مدينة دير الزور، بعد حوالي ثلاث ساعات، كان الشيء الوحيد الذي رأيته من المدينة، دبابة جاثمة عند مدخلها الشرقي،

قال قائد المجموعة قبل أن نصلها:

- راح تطمّش عينيك، لأننا راح نصل بعد شوي وتخلص مهمتنا.

- إذا ما عاد نشوف بعضنا، يا ريت تخبرني لوين راح تاخذوني.

- راح ناخذك إلى فرع الجويّة بدير الزور، ما بعرف شو وضعك هناك، بس فهمنا بأنك مطلوب للشام.

الفصل الرابع: مخابرات دير الزور

مع حسين عيسو على أعتاب الجحيم

توقفت السيارة في دير الزور، أنزلوني ثم أدخلوني إلى بناء، رفعوا الطمّاشة عن عينيّ داخله، فوجدت نفسي وسط عدد كبير من الشبان، الجالسين على الأرض والمنشغلين بالكتابة.

أعطوني استمارة لتعبئتها، فيها أسئلة عن بياناتي الشخصية، وأسماء الزوجة والأولاد والوالدين والأخوة والأخوات والأعمام والعمات والأخوال والخالات وأولادهم، ومكان وجود كل واحد منهم، سلمتها بعد الانتهاء منها لضابط، يمر مع عنصر بيننا، مثل مراقب في قاعة امتحان.

أبلغني العنصر المرافق للضابط، عن أماناتي الواصلة معي، وطلب مني تأكيد صحتها والتوقيع عليها: هويتي الشخصية، جهازَي موبايل، خمسمائة ليرة، مفاتيح البيت، زاد عليها حبوب زيفيكس التي اشتروها لي في الحسكة، والحزام الذي طلبوا مني تسليمه لهم مع رباطَي الحذاء.

أنزلوني إلى قبو وفتحوا باب زنزانة هناك، أدخلوني إليها وأغلقوا بابها عليّ.

جلستُ في الزنزانة الفارغة شبه المعتمة، ثم فكّرت باستكشافها، استلقيت واضعًا رأسي لصق الباب، فكادت قدماي أن تصلا إلى الحائط المقابل، مددتهما فلامسته أصابعي، قدرت بذلك طولها بمترين، بينما لم يتجاوز عرضها التسعين سنتيمترًا، أما سقفها، فكان شبكًا حديديًا مرتفعًا، أكاد أجزم بأن جرذان العالم كله اجتمعت فوقه، وتكاد تمنع ضياء النهار في

الأعلى من الوصول، لولا ما يتسرب منه من بينها، خلال حركتها الدائمة. تذكرت زنزانة الجويّة في قامشلي، التي لم تكن تعجبني على وسعها، كانت ملعبًا مقارنةً بهذه.

يبدو بأن وصولي بعد الظهر بقليل، تزامن مع موعد الغداء. فتحوا باب الزنزانة ووضعوا صحنًا على الأرض، فشاهدت على ضوء الممر، قليلًا من البرغل وحبة بطاطا وبيضة بداخله. شعرت بالغثيان، أزحته جانبًا، مصممًا على تنفيذ قراري بالإضراب عن الطعام.

كنت أتحرك من دون هدف في المنفردة، مثل الجرذان في الأعلى، عندما فتح عسكريٌّ الباب مجددًا، طلب مني حمل الصحن واللحاق به.

تبعته، فتوقف بعد خطوات أمام بابٍ وفتحه، أنار ضوء الممر زنزانة، لا يختلف حجمها عن تلك التي تركتها، غير أن فيها رجلٌ نحيل، طويل الشعر والذقن، يرتدي قميصًا خاكيًا وبنطالًا أسود، جالسٌ يسند ظهره إلى الحائط المواجه وإلى جانبه حذاؤه. دفعني العسكري إلى الزنزانة، وأغلق الباب علينا. بادرت الرجل بالتحية:

- السلام عليكم.

لا أعلم لماذا حييته بتلك الطريقة، على الرغم من وجوده لوحده في ذلك المكان، أما هو فردَّ عليّ:

- أهلًا وسهلًا.

سألني، وأنا لما أزل واقفًا:

- من وين؟

- من قامشلي.

- كورمانجو (كُردي)؟

- نعم.

ربت بيده على الأرض عدة مرات، ثم قال بالكُرديّة، بنبرة من انتظر طويلًا غائبًا:

- تعال يا ابن أبي، تعال أُقعد.

جلست إلى جانبه وبدأت أدقق في ملامح وجهه المألوف، الذي يعكس ألمًا يعيشه. شعرتُ بالحزن لوجود شخص بسنه في السجن، معزولًا منذ مدة طويلة، حسبما هو واضح من مظهره.

سأل الرجل عن اسمي فذكرته له، قال بأنه سمع عني من قبل، وأسِف أن يكون لقاؤنا الأول في السجن. سألتهُ بدوري عن اسمه:

- مين أنت يا عم؟

- أنا حسين عيسو، ويمكنك مناداتي أبو فراس.

لم ألتقِ حسين عيسو من قبل، شاهدت صورة له منشورة على مواقع الانترنت، إلى جانب مقالات كتبها أو مواضيع متعلقة به، وهي الصورة نفسها التي رفعناها في المظاهرات، للمطالبة بالكشف عن مصيره، ويظهر فيها حليق الذقن، مختلفًا تمامًا عن شكله الحالي، حيث لا يبقي شعره الطويل ولحيته، سوى القليل من وجهه.

على الرغم من طلبه بمناداته بأبو فراس، سأعلم فيما بعد، بأنه لم يتزوج الفتاة التي أحبها، التي كانت معه في رابطة العمل الشيوعي، ولم يصبح بالتالي أبًا.

كادت مفاجأة وجوده أمامي، بعد قلق طويل عليه، أن تدفعني إلى الصياح، لولا أنه قاطع سبابته مع فمه، في إشارة إلى طلب السكوت، وقوله همسًا، من أنه تأكد الآن من صحة ما أُبلغ به، حول مدة بقائه في هذا السجن.

كان حسين سأل سجّانًا عن ذلك، فأخبره بأنهم يعملون على اعتقال أحد الأشخاص، سيضمونه إليه حال تمكنهم منه، لنقلهما معًا إلى مكان آخر.

إذًا، كان مقررًا منذ البداية اعتقالي، اعتقلوا حسين عيسو في الثاني من سبتمبر، وأبقوه يومًا واحدًا في شعبة المخابرات الجوية بالحسكة، ثم نقلوه في اليوم التالي إلى هذا المكان، حتى اعتقالي الذي تأخر اثنين وعشرين يومًا. حاول حسين التخفيف من وقع ما جرى لي، فأضاف مازحًا:

- منيح أنهم اعتقلوك، لأني راح أرتاح من الانتظار. هل تعلم، أنني على الرغم من كوني ملحدًا، دعوت الولي الصالح الشيخ عبدالقادر، رفعت يدي إلى السماء وناجيته: يا شيخ عبدالقادر، ساعدهم على اعتقال ذلك الشخص الذي لا أعرفه، لكي أتخلص من هذا المكان. لكنني رددت على نفسي أيضًا: لماذا كل هذا الشر يا رجل، ما لكَ وله؟

ضحكت، رديت عليه واحدة بواحدة:

- الحق عليّ أنا، الذي نظم قبل اعتقاله بيومين، مظاهرة باسمك، وفاءً لك!

سارع حسين لإبلاغي بامتنانه على تذكرنا له، قال بأن للتضامن مع المعتقلين في السجون، أبلغ الأثر في نفوسهم، ثم سألني عما يجري في الخارج، فقدمت له نشرة مفصلة بالأوضاع، منذ اعتقاله.

تحدثنا همسًا طوال الوقت، بحيث يضع كل واحد فمه على أذن الآخر، عندما يحين دوره في الكلام، لأن عسكريًا في الخارج يهدد باستمرار، بمعاقبة كل من يسمع صوته.

كان حديثنا مليئًا بالعواطف، مزيجًا من الفكاهة والجد، والفائدة أيضًا، فحسين شخص مثقف ويمتلك تجربة كبيرة في الحياة، أنهى دراسة الحقوق ولكنه لم يعمل بالمحاماة، عندما لاحظ الطعام في صحني، سأل مستغربًا:

- ليش ما أكلت وجبتك؟
- لأني مضرب عن الطعام.

قلت ذلك وأنا أنظر إلى صحنه الفارغ، الذي دفعني للظن بأن وجوده وحيدًا في المنفردة منذ مدة، والضغوط التي تعرض لها والفراغ الذي عاشه وربما الحرمان من الطعام، أرغمه على الرضا بما يقدم له، لكنه فاجأني بكلام، غيّر من ذلك الانطباع.

رأى حسين عيسو، بأن علينا أن نكون على مستوى التحدي، نقاوم عبر البقاء واقفين على أقدامنا، ولن يتم ذلك، إلا بالمحافظة على قوانا، بتناول ما يقدمونه لنا وأخذ أدويتنا، وإلا كنا عونًا لهم علينا، ثم أن رسالتنا لن تصل إن أضربنا عن الطعام، سننهار من دون أن يعلم أحد بذلك، وإذا خرجنا من هذا المكان بتلك الحالة، لن يهتم أحد بالسبب أو بما جرى لنا.

كان هذا أول درس، إن لم يكن أكبر الدروس التي تلقيتها حول السجون، في رحلة طويلة قادمة، سأتمنى خلالها الفُتات ولا أنالها، عملت على تطبيقه على الفور، فتناولت بعض ما في صحني، وإن كان ذلك على مضض، ثم شاركت حسين وجبة العشاء، عندما رأيته يتناول حصته من دون تذمر، وختمناها بأخذ دوائنا.

يبلغ حسين عيسو اثنين وستين عامًا من العمر، يعاني من عدة أمراض، فاقمها احتجازه في المنفردة، يتناول أدوية القلب والضغط وأمراض أُخرى لثلاث مرات في اليوم، بمعدل خمس حبوب في كل مرة، إلا أن ذلك لم يمنعه من كتابة مقالات رأي والظهور على الفضائيات والمشاركة في المظاهرات بعد بداية الثورة، ودعم الشبان والانتظام في التنسيقيات الشبابية وكتابة بياناتها، على الرغم من امتناعه عن إعلان ذلك بسبب سنه، كما لم يمنعه

ذلك قبل عامين، من حمل عريضة موقعة من خمسين ألف مواطن في محافظة الحسكة إلى العاصمة، لمطالبة السلطات بإلغاء مرسوم جمهوري، منع إجراء أي تصرف على العقارات، فأصاب الحياة الاقتصادية بالشلل.

لاحظ حسين عيسو بأنني أحكُّ جلدي باستمرار، لم أكن أعرف سبب الحكة التي أصابتني فجأةً، فظننتها حساسية من قذارة المكان، لكنه أعلمني بوجود قمل في المنفردة، ينتقل من البطانيات العسكرية القذرة إلى الثياب، ويستوطن في منطقة الخياطة بشكل خاص. نصحني بالانضمام إليه في حصص التخلص من القمل، كيلا يتأذى جلدي من الحك، فأصبحنا نقوم بذلك معًا، نخلع ملابسنا أحيانًا ونقلبها، للبحث عن القمل في ثناياها، وعند العثور عليه، نضعه بين أظفري الإبهامين ونمعسه، فنسمع صوت انفجاره ونشاهد دماءنا التي امتصها.

ستتفاقم مشكلة القمل خلال العتمة، بسبب لونه الداكن، حيث يتمكن منا خلال النوم بشكل خاص، فنستيقظ من وخزاته المؤلمة.

الخروج إلى التواليت جماعي، له مواعيده، ويمكن للفرد طلب ذلك بشكل استثنائي، خارج المواعيد الرسمية. عانى حسين بسبب أمراضه الكثيرة وخاصةً السكري من المسألة، فوضعوا حلًا لها، بدلًا من السماح له بالذهاب إلى التواليت عند الحاجة، زودوه بقنينة للتبول فيها داخل الزنزانة، سمحوا له بتفريغها فيما بعد، كلما امتلأت.

أمرونا بالخروج من الزنزانة ليلًا، للذهاب إلى التواليت. سرنا مع آخرين في الممر حفاة، خافضي الرؤوس، بينما وقف عساكر على طرفيه، يطالبون بالالتزام بأمر خفض الرؤوس، ويشتمون كل من يمر بهم ويبصقون عليه ويصفعونه. شعرت بحزن شديد على حسين عيسو، من الصعب تصور وجود

رجل مسن، علاوة على مقامه الرفيع بالنسبة لي، يُشتم ويُضرب من دون سبب، عاجزٌ عن الدفاع عن نفسه، ولا أستطيع عمل شيء لمنع الأذى عنه.

لم يبخل حسين عيسو بعلمه وتجربته في الحياة عليّ، حاول استغلال كل دقيقة نكون فيها معًا، لتقديم النصح لي، خاصةً بعدما لاحظ وقوفي على ما اعتبرها صغائر الأمور. ضحك عندما أبلغته انزعاجي من الشتائم والصفعات التي تلقيناها، اعتبرها أمرًا تافهًا طلب مني تجاهله، كيلا يترك أثرًا سلبيًا ويضعفني، ونحن لما نزل في بداية الطريق، قال بأن هؤلاء الذين يستخدمون مثل هذه الأساليب مع أسرى لديهم، جبناء، خائفون في دواخلهم، يحاولون عبثًا إثبات رجولتهم:

- الصفعات والشتائم أوسمة رجولة لمن يتلقاها، يمنحها لهم المهزومون رغمًا عنهم.

عندما صدر الأمر بالنوم، قال حسين بأننا سنلتزم به، لكي نرتاح ولا نتعرض للعقوبة، ذلك أن الحراس يفتحون كوّة الباب من وقتٍ لآخر، ويعاقبون من يضبطونه جالسًا يتحدث، أضاف بأن علينا أن نضع خطةً، نتغلب بها على صغر حجم المنفردة. بدأ بشرح خطته التي ليس لها بديل، وتقضي بنومنا بشكل متعاكس، بحيث يكون رأس أحدنا عند الباب ورأس الآخر عند الحائط المقابل له. عندما قلت له بأنني لن أجعل قدميّ عند رأسه، قال بأنني بمثابة ولده. استلقينا للنوم، لكنني لم أمد رجليّ على طولهما، بل طويتهما على بطني.

سيأتي عليّ وقتٌ، لن أجد شيئًا أتدفأ به من برد الشتاء، عندما أكون عاريًا تمامًا، مرميًا على البلاط، سوى رجليّ، أردهما على بطني، بحيث أتكور على نفسي، لتصغير حجمي وبالتالي تقليل مساحة الاحتكاك مع البرد القارس، في

محاولة غير مجدية للحصول على بعض الدفء، في زنزانة أجهل مكانها.

حدثني حسين عيسو عن اعتقاله، قال بأنه لاحظ عند عودته إلى البيت، بعد مشاركته في مظاهرة أمام نقابة المحامين بالحسكة، وجود مراقبة عليه، فتراجع وذهب إلى بيت شقيقته في القرية، وتخفى عندها عدة أيام، لكنه قرر في منتصف ليلة الثاني من سبمتبر ٢٠١١، الذهاب إلى بيته خلافًا لنصيحتها، لأنه احتاج غرضًا وفكّر بنقل بعض الكتب، كيلا يتم ضبطها إذا ما تمت مداهمته يومًا، مستبعدًا تواجد الأمن في مثل ذلك الوقت المتأخر.

دخل حسين إلى البناء بحذر شديد، في اللحظة التي وطأت فيها قدماه شقته، داهمها الأمن وقبض عليه. يبدو بأنهم كانوا في حالة كمين، داخل البناء. وضع عناصر الأمن أيديهم على عدد من الكتب وأشياء أُخرى، منها جهاز خليوي حديث، ومبلغ خمسة عشرة ألف ليرة كانت في جيبه. اتهم حسين عيسو قياديًا في أحد الأحزاب الكُردية، بالمساهمة في اعتقاله، قال بأن القيادي أحمد عميل للمخابرات، لعب دورًا رئيسيًا في وجوده في المعتقل، بحكم معرفته به عن قرب، وبيتهما المتجاورين.

فكّرت بالاختراقات التي تحصل أحيانًا، وعادت بي الذاكرة إلى يوم تأسيس المجلس العام للحركات الشبابية في قامشلي. حضرت والدتي في السابعة صباحًا إلى منزلي، بعد ست ساعات من انتهاء الاجتماع التأسيسي منتصف الليل، وأبلغتني عن اتصال عنصر من الأمن العسكري بالعائلة، قال بأنه يريد الحضور إلينا، (لشرب فنجان قهوة معي). رددت على اتصاله فيما بعد، وسألته عما يريده مني، فكان أول ما قاله لي، أنه على علم بأنني أصبحت مسؤول تنسيقيات التظاهر. الأكيد أن محاولاتي نفي ذلك، لم تكن مجدية.

يتأرجح حسين عيسو بين أمل الخروج من المعتقل، ويأس البقاء فيه. أثار

موضوع مظاهرتنا من أجله، وتحدث عن عوامل أُخرى يمكن المراهنة عليها:
- إذا كان هناك من أحد، يمكن أن يثير مسألة اعتقالنا ويقف معنا، فسيكون من دون شك مشعل التمو، على الرغم من أنني وإياه، قد لا نحتمل بعضنا البعض ليوم واحد، لكن الحقيقة يجب أن تقال، فالرجل ثوري بكل معنى الكلمة ولن يتخلى عنا، سيقوم خالك كذلك بتحريك الموضوع، لوجوده خارج البلاد، سبق لنا وأن تواصلنا عدة مرات، كان يوصينا دائمًا بالحذر لتجنب الاعتقال، بينما تصرفنا وكأننا في سويسرا، فدفعنا الثمن.

لكنه قال بيقين، بعد أن نظر إلى رجليه المزرقتين:
- العمر مضى بالنسبة لي يا شبال، وطالما تم اعتقالي وبعدين اعتقالك، فراح يعتقلوا كثيرين بعدنا بالتأكيد، بينما أحزابنا الكُرديّة لا تفعل شيئًا، ولا وزن لها على كثرتها.

أصبحت أمنية حسين عيسو في نهاية المطاف، نقله من معتقلات المخابرات إلى سجن مدني، لينعم ببعض الراحة، فيما تبقى له من عمر. عندما حدثني عن تصوره للحياة في السجن المدني، مقارنة مع سوء ما نحن فيه وما ينتظرنا من مصير أسوأ، جعل ذلك أمنيتي أيضًا، وهو ما سأتجرأ يومًا على طلبه من مسؤول في المعتقلات، بعد رحلة عذاب طويلة:
- أهم شيء أخذنا إلى سجن مدني، تتوفر فيه الفرصة للقراءة ومشاهدة التلفزيون وشراء الطعام بأنفسنا، ولن أهتم بمدة الحكم عليّ، ما دمت بين الناس. لدينا مال وفير، سيكفينا لنعيش كالملوك إلى حين معرفة أهلنا بمكاننا، والموسم الزراعي كان جيدًا هذا العام.

أصبح لي الآن ثلاثة أيام مع حسين عيسو في زنزانة واحدة، مضى الوقت سريعًا، على الرغم من ظروف الاعتقال السيئة والقلق بشأن ما ينتظرنا، كيف

لا وأنا بصحبة شخص قريب دمث، يشاركني أسمى القضايا. كان صراخ المعتقلين الذين يتعرضون للضرب في الممر، في يوم الثلاثاء، أعلى بكثير مما كان عليه من الأيام الماضية، فقال حسين:

- إذا نجونا من الفلقة اليوم، فما راح نأكلها بعدين.

إلا أن الذي حدث عصر ذلك اليوم، كان أسوأ من الفلقة. فتحوا كوة الباب وشتمونا، ثم أغلقوها وفتحوا الباب، توجه عنصرٌ إليّ قائلًا:

- تعال لهون يا عرصا وهات قندرتك معك، أنت ما بتتوقف عن الحكي.

حملت حذائي ونهضت، التفت إلى حسين عيسو قبل أن أخرج، توقفت عند عينيه اللتين لن أنساهما أبدًا، متجمدتين في محجريهما وهما تحدقان في عيني، كانتا مليئتين بانكسار أبٍ عاجز، على وشك فقدان ابنه. أطبقت عينيّ وفتحتهما سريعًا، كنايةً عن الوداع، وخرجت.

شعرت بألمٍ لا يطاق في صدري، وبأن هناك من انتزعني من أهلي، عشت مشهد الوداع الذي لم أمر به في قامشلي، لحسن الحظ، أو ربما لسوئه.

نقلوني إلى زنزانة في الجهة المقابلة، بعد زنزانتين باتجاه اليسار. كانت نسخة مطابقة للمنفردتين اللتين أقمت فيهما حتى الآن، باستثناء حجمها الكبير مقارنة بهما، والذي يتجاوز الضعف بقليل، لكنها بدت أضيق منهما، لوجود سبعة شبان صامتين داخلها، أصبحوا ثمانية مع وصولي غير المرحب به، ربما لضيق المكان، إذ بالكاد تبادلت الحديث معهم.

صدر أمر النوم، فاختلفت طقوسه بسبب عددنا الكبير. انقسمنا إلى مجموعتين، ولجأنا إلى أسلوب النوم بالتناوب، بحيث يبقى أفراد المجموعة الأولى واقفين وظهورهم إلى الحائط، لتوفير مكان لنوم الأربعة الآخرين، الذين سينهضون بعد نوم ساعتين، ويتبادلون مكانهم مع المجموعة الواقفة.

بعد أن فرض الليل إيقاعه على المكان وأزاح قسمًا كبيرًا من ضجيجه، ناداني حسين عيسو، وصلني صوته القلق عبر الأبواب والجدران، يسألني عما إذا كنت موجودًا، ويتمنى ألا أكون تعرضت لأذى. طمأنته بأنني بخير، وأعلمته عن وجودي في الزنزانة الثالثة، ثم رجوته التوقف عن الكلام والاهتمام بنفسه، كيلا يتعرض للعقاب.

لم أبت في الزنزانة الثالثة سوى ليلة واحدة، أعادوني مساء اليوم التالي إلى منفردة حسين، فاستقبلني بالأحضان:

- أنا كنت متأقلم مع وحدتي خلال الإثنين والعشرين يومًا الماضية، لكنك جلبت معك الحياة للمكان، وكأنك هدمت حيطانه، فجعلتني أشعر بأنني موجود وسط الناس، لذلك صار وضعي أسوأ بكثير، عندما أخذوك.

بعد وقت قصير من إعادتي، فتحوا باب المنفردة وطلبوا منا الخروج للاستحمام. استغرب حسين عيسو الأمر، قال بأنهم لم يأخذوه للحمام من قبل، فربط ذلك بانعدام الحركة في الزنزانة، لذلك يجده أمرًا غريبًا الآن، لعدم تغير الوضع عما كان عليه، باستثناء وصولي.

الحمام عبارة عن دوش معلق بسقف التواليت، أدرت الحنفية قبل خلع ملابسي، ووضعت يدي تحت المياه النازلة، لم أستطع تحمل برودتها الشديدة، فأغلقتها وقررت انتظار ما سيفعله حسين.

سمعت طرقه على الباب يريد الخروج، في الوقت الذي فعلت ذلك أيضًا، تقابلنا خارجًا، فوجدته فكّر بالطريقة نفسها، كان سيستحم على الرغم من أوجاعه، لو لاحظ قيامي بذلك، لأنه كان سيفهم عندها بأنني أقول له بشكل غير مباشر، بأن (رائحة هذا العجوز غير مقبولة وعليه تنظيف نفسه).

تبين بأن إعادتي إلى منفردة حسين عيسو، وأخذنا إلى الحمام معًا، لا

علاقة له بإنهاء العقوبة بحقي أو الحرص على تنظيف أنفسنا، فقد أبلغنا العسكري الذي أعادنا من الحمام، قبل إغلاق باب المنفردة علينا:

- جهزوا حالكم، راح تطلعوا بكرة للشام.

كان حسين عيسو متوجسًا من موضوع إحالتنا إلى المخابرات بالعاصمة، لكنه يتجنب الخوض في تفاصيله، ربما كان يمنّي النفس، بأن لا يتجاوز الأمر التهويل، أما وقد أصبحنا بمواجهة الواقع، فقد أخرج كل ما لديه دفعة واحدة، قال وهو شبه منهار:

- أقول لك بصراحة يا شبال، ما راح نطلع عايشين من الشام. الموضوع مو مجرد تحقيق عادي، وأنا رجل كبير السن، أعاني من عدة أمراض منها الديسك، ومريت بعمليات جراحية خطيرة منها القلب المفتوح، والوحوش هناك لا يفهمون ديسك ولا قلب مفتوح.

بعد حديثه عما ينتظرنا من أهوال، من واقع تجربته في رابطة العمل الشيوعي، ومعرفته تفاصيلًا عن أساليب نظام الحكم في التعذيب، من خلال رفاقه الذين أُعتقل معظمهم، حاول حسين عيسو تجاوز الصدمة، فراهن على قدرتنا على التماسك، وحاول تطييب خاطري، بالقول بأنني شاب وسأتحمل، ثم ذهب بعيدًا وهو يتحدث عن احتمال سقوط رئيس الدولة، وبأن ذلك قد يحدث ونحن لما نزل على الطريق، بحيث ننتهي من الموضوع بسهولة. لا أدري، فيما إذا كان يقظًا أم يحلم، أم أنني أنا الذي رأيته في الحلم يقول لي:

- راح يتركنا العناصر بحالنا، ويهربوا قائلين: سقط الرئيس!

في الصباح الباكر، أخرجونا من المنفردة إلى الممر. ربطنا عسكري بسلسلة حديدية، لفّها حولنا عدة مرات، مثلما يجري في الأفلام الأمريكية، في مشاهد

نقل السادة للعبيد الذين اشتروهم، وقيّد آخرٌ اليد اليسرى لكلينا إلى السلسلة، ثم وضعوا طمّاشات سوداء على عيوننا، شعرت برأسي يكاد ينفجر جراء شدها، وطلبوا وضع اليد اليمنى على الطمّاشة.

سحب العسكري سلسلة الحديد، فجرّنا وراءه، فقدنا توازننا على الدرج وتعثرنا به، فسقطنا. تمكنّا بعد عدة محاولات من تجاوز الدرج، ومغادرة مبنى فرع الجويّة بدير الزور، سرنا مسافة خارجه، إلى أن أوقفونا وأصعدونا إلى سيارة ميكروباص، تمكنت على الرغم من الطمّاشة، من مشاهدة صفائح وأكياس مليئة داخلها. أجلسوني مع حسين على مقعد واحد، هو إلى النافذة، ثم أنا في الوسط وإلى يميننا عسكري، كما جلس عسكريان على المقعد خلفنا وآخران أمامنا، وآخر في المقدمة إلى جانب السائق، وبذلك تشكلت الكتيبة التي ستنقلنا، من سبعة مقاتلين.

قبل أن تنطلق الحافلة، طُلب منا خفض رأسينا وجعلهما بين أرجلنا. بدأ العسكريان الجالسان في الخلف، منذ تلك اللحظة، بصفعنا ولكمنا والسخرية منا، وسط ضحكات الآخرين وسخريتهم.

حرّكت الطمّاشة في محاولة لفهم ما يجري حولي، فتوفر لي مجال رؤية ضيق على الجانبين، شاهدت الجرائد تغطي نوافذ الحافلة على اليسار، ومسدس العسكري الجالس إلى يميني، في حزامه. فكرت كثيرًا بأخذ المسدس وإنهاء الأمر عند ذلك الحد، لكنني تراجعت، ليس بسبب تجربتي الفاشلة في مقاومة المقدم أبو سليمان، أثناء اختطافي إلى جويّة القامشلي، بل حرصًا على عدم إصابة حسين عيسو بأذى، ورغبةً بترك الأمر للأقدار، لتجري كما تشاء.

تحدث عسكري، قال في إشارةٍ إلينا وإلى المواد داخل الحافلة:

- بس نرمي هالحقراء بالمزة، راح نتغدى ونروح لصافيتا، لناخذ أمانات المعلم

لبيته، ونروح بعد كل هالجولة نرتاح يومين ببيوتنا.

رد عليه آخر، وهو يقصد مثل زميله، الضابط الكبير الذي يرأسهم:

- يلعن عرضه ما بيشبع، خمس تنكات زيتون يا زلمة!

توقفت الحافلة عند أحد الحواجز، على الأرجح حاجز تدمر، المدينة الأثريَّة التي يرتبط اسمها بسجن تدمر الصحراوي الرهيب، المكان الذي يثير مجرد ذكره الرعب في قلوب السوريين، بسبب أساليب التعذيب الوحشية المستخدمة فيه، التي تجعل المعتقل يتمنى الموت ولا يناله، إلا بعد رحلة عذاب طويلة، ويشكل رمزًا لحقبة والد رئيس الدولة، كما ارتكب فيه عمه مجزرة دموية، عندما أرسل وحدات سرايا الدفاع التي يقودها بالطائرات ليلًا، فدخل عناصرها إلى الزنزانات وأيقظوا المعتقلين، ثم أوقفوهم إلى الحيطان وأطلقوا الرصاص عليهم، فقتلوا المئات خلال دقائق، جرى دفنهم في مقبرة جماعية مجهولة بالصحراء.

جاء عناصر الحاجز وفتشوا الحافلة، طلبوا من قائد المجموعة هوياتنا، ومنا الوقوف للتحقق من وضعنا. سأل أحدهم:

- ليش ما ربطتوا أيدين كل واحد مع بعضها؟

ردّ عليه قائد المجموعة التي تنقلنا:

- أظن هاد مو شغلك.

حصلت ملاسنة بين الطرفين، صمَم كل طرف في النهاية على رأيه، غادرنا بعدها. بعد قليلٍ من ابتعاد الحافلة عن الحاجز، طلب القائد من السائق التوقف، ثم قال:

- عن جد هيك ممنوع يا شباب، لازم تكلبجوهم من ورا كمان.

فكوا السلسلة الحديدية عنّا، ووضعوا أيدينا في القيود خلف ظهرينا، فزاد

الوضع سوءًا. قال حسين عيسو في تلك الأثناء:

- سيدي، أنا مريض سكري، لو سمحت أريد أن أبول.

شتمه العسكري، لكنه وعده:

- لما نوقف على الحاجز الجاي، راح نسمح لك تبول.

أوقفوا الحافلة بعد مسافة وأنزلوا حسين عيسو، لقضاء حاجته حسبما وعدوه قبل قليل، كنت أنوي طلب ذلك أيضًا، عندما ينتهي.

بدلًا من السماح له بالتبول، أخذوا يشتمون حسين ويضربونه بوحشية، سمعت أصوات الصفعات تنهال عليه وارتطام جسمه بالأرض، وصراخه من الوجع. يبدو بأن عناصر حاجز قريب قدِموا في تلك الأثناء، وانضموا إلى الآخرين في الاعتداء عليه، سمعت أحدهم يصيح به، وآخر يرد عليه:

- يا كلب يا إرهابي يا ختيار الجن، قديش عمرك ولاك؟

- يكفي شباب، في توصية بضرورة وصولهم سالمين لمطار المزة، وعندنا أوامر بعدم التعرض لهم، لأنهم أصلًا مضروبين وخالصين.

توقفوا عن ضرب حسين، أعادوه إلى الحافلة وأجلسوه في مكانه، فسارع إلى الهمس في أذني، وهو يلهث:

- شبال، لا تطلبِ منهم التبول.

لا أعلم، فيما إذا سمحوا لحسين بقضاء حاجته، أم أعادوه من دون ذلك.

لمَ يتوقف جرس موبايل عن الرنين، كانت نغمته أغنية (يا حبيب الملايين)، للمطرب علي الريش عن رئيس الدولة. يتغزل المطرب بجبين الرئيس العالي الذي لا يشبهه أحد، وحب الملايين التي ستبقى جنوده، ولا تلين مهما حدث، بينما أنا في وادٍ آخر، محطمٌ مما تعرض له حسين، فقط لأنه طالب بحق طبيعي تمارسه حتى الحيوانات، مشغولٌ بما ينتظرنا في مطار المزة، الذي ذكره

أحدهم صراحةً وجهةً لنا، أُفكر بما نتعرض له على الرغم من وجود توصية بعدم التعرض لنا، حسب زعمهم، وأتساءل عن كيفية تصرفهم معنا، لو لم تكن هناك مثل تلك التوصية المزعومة.

بعد رحلة من عشر ساعات في حافلة متهالكة، من دون ماء أو غذاء في جو شديد الحرارة، مطمّشي العيون ورأسانا مخفضان بين أرجلنا وأيدينا مقيدة خلف ظهرينا، نتعرض للشتائم والإهانات والضرب، من دون أن يتوقف ذلك على خمسة حواجز مررنا بها، وصلنا مرهقين إلى مطار المزة، حسبما فهمت من حديث العناصر الذين ينقلوننا.

توقفت الحافلة عند حاجزٍ، لم يكن يشبه الحواجز التي مرّرنا عليها من قبل. بدأت أسمع صرخات متداخلة، كأنها صادرة من الجحيم، تشبه اصطفاق أجنحة طيور مذعورة، انطلقت نحو السماء، حتى كادت تحجبها بالسواد، عندما شاهدت صيادًا أو سمعت إطلاقة من بندقيته. كانت الصرخات لأُناس يبكون بطريقة وحشية ويتوسلون، مع ضربات لا تتوقف عن النزول عليهم، مترافقة بشتائم، يزلزل صداها المكان، فيرتجف كياني مثل ورقة في مهب عاصفة، بدأت تضرب بعنف.

الفصل الخامس: مطار المزة

الجحيم المستعر

أنزلونا بعنف من الحافلة، بل ألقونا خارجها مثل كيسي مهملات، ووجهوا شتائم قذرة لنا، اصطدمنا أنا وحسين عيسو ببعضنا فسقطنا على الأرض. انزاحت الطمّاشة عن عينيّ قليلًا، فتمكنت ضمن مجال رؤية ضيق، من مشاهدة عدد كبير من الأبواط العسكرية، تتحرك بعشوائية قرب رأسي الملتصق بالأرض الأسفلتية شديدة الحرارة. كنت عاجزًا تمامًا، فقد تخدّر جسمي، من انعدام الحركة طوال الرحلة الشاقة.

أوقفوني، لكنني لم أستطع البقاء واقفًا على رجليّ العاجزتين عن حملي، واللتين سرعان ما تقصفتا كعودي ثقاب، فانهرت وتكومت في مكاني. أمسكت يدٌ بشعري بقوة وجرتني وراءها، مثلما يجر اللحّام ذبيحةً موثوقة الأرجل إلى المسلخ، شعرت بالنار في فروة رأسي وبرأسي يكاد ينفصل عن جسمي. في محاولة لتخفيف آلامي، عملت على مساعدة اليد القابضة بإصرار على شعري، فأخذت أُحرك قدميّ وأدفع الأرض بهما، مثل سمكة استسلمت لخطاف صنارة انغرس عميقًا في فمها، وراحت تسبح رغمًا عنها وراء خيط حاد يجره الصياد بإصرار، على الرغم من مسافة الحياة التي تضيق أمامها، شيئًا فشيئًا.

توقفت اليد عن جرّي وتركت شعري، بعد حوالي عشرين مترًا. كانت تلك المسافة، بما فيها من أوجاع وحركات قسريّة قمت بها، كافيةً لجعل الدماء

تسري في عروقي ثانيةً.

أصدر صوتٌ أمرًا باتخاذ وضعية السجود، شرح لنا ذلك قائلًا، بأن علينا الجلوس على الركبتين وجعل جبهتينا على الأرض. سجدت، فطلب صاحب الصوت من العساكر فكّ القيد عن أيدينا خلف ظهرينا، تحررت يدايَ أخيرًا فوضعتهما إلى جانبي رأسي، مثلما يفعل المصلون عادةً عند سجودهم، لكن الصوت طلب منا وضع اليدين على الطمّاشة الموجودة على عيوننا، بحيث تكون الكفّان عليها وسطحهما إلى الخارج، فأصبحتا بذلك محتجزتين بين الرأس والأرض.

أشعر بتوتر شديد وأنا في حالة التحفُّز لمجهول، بوضعية السجود إلى جانب حسين عيسو، ملتصقٌ به تمامًا، لا يفصل بيننا أيَّ شيء، أُحاول أن استمد منه بعض القوة، مثلما كنا نفعل أيام الجيش، عند تعرضنا لعقوبات جماعية خلال الليالي الباردة، بتوقيفنا في صفوف متباعدة وتوجيه خُرطوم مياه إلى الأعلى فوق رؤوسنا، تتحول إلى قطرات جليدية تتساقط علينا، فيجهد كل واحد منا للمس رؤوس أصابع زميليه الواقفين إلى جانبيه، بيديه الممدوتين على طولهما، علّه يحصل على بعض القوة والدفء.

أوقفوا حسين عيسو بعد دقائق، أخذوه من دون أن يقولوا شيئًا. توقعت وجودي أمام باب غرفة، عندما سمعت صوت أحدهم، يبدو قادمًا من مكان مغلق:

- هاد هو رئيسك الجديد ولاك؟ خليه يطالعك من هون إذا كان زلمة.

يتحدث صاحب الصوت، عن رئيس المجلس الوطني المعارض برهان غليون، ويشير على الأرجح إلى كتابه (المسألة الطائفية ومشكلة الأقليات)، الذي كان واحدًا من تسع كتب، وضعوا أيديهم عليها في بيت حسين عيسو عند

اعتقاله، وسبق وأن أبلغوه في جويّة دير الزور، بأنها موجودة لديهم مع أشيائه الأُخرى كأمانات، سترافقه حيثما يذهب.

لم أفهم ما قاله حسين عن الكتاب، ربما أراد تبرير وجوده لديه، لكن الرد عليه شتمًا وضربًا، ثم صراخه، كان مسموعًا. أعادوه إلى مكانه، إلى وضعيته السابقة، ساجدًا إلى جانبي، فسألته همسًا:

- ماموستا، هل أوجعوك؟

- لا شبال، ما صار شيء.

أوقفوني وأخذوني بدوري إلى الغرفة، سألوني عن بياناتي الشخصية. قال أحدهم حانقًا، باللهجة نفسها التي كان تحدث بها مع حسين:

- جمعة آزادي ولاك، مو هيك؟

تدخل آخر متوجهًا للمتكلم، يريد إيقافه عن الاسترسال:

- وقف، وقف.

ساد صمتٌ في المكان، أدركت بحاسة الأعمى، بأن صاحب الكلمات الأخيرة صعد على شيء مرتفع، كُرسي قريب على الأرجح، تأكد لي ذلك عندما جاء صوته بعد لحظات من الأعلى، طالبًا مني رفع رأسي، فحاولت تعديل ظهري الذي لما يزل مقوسًا، من آثار الجلوس محنيًا طوال الوقت في الحافلة، وعندما نجحت في ذلك، تلقيت لطمةً على كامل وجهي، دفعتني مثل سيل جارف باغت سدًا، وطرحتني أرضًا.

سوف أتلقى عددًا يستحيل إحصاؤه من الصفعات بعد ذلك، إلا أن ما سببته لي هذه الصفعة من أوجاع، والتي سيستمر طنينها في أذني لشهور قادمة، سيفوقها جميعها مجتمعةً.

شدّ أحدهم شعري حتى أوقفني، ثم طلب مني اتخاذ وضعية الاستعداد،

نفذت، فأخذ يضربني بالاشتراك مع آخرين، تابعوا ضربي بالأيدي والأقدام بوحشية، حتى بعد سقوطي على الأرض. أوقفوني كلما سقطت، وتابعوا الضرب بسرعة وكثافة، لم تسمح لي بتوقع الجهة التي ستأتي منها الضربة التالية والموضع الذي ستصيبه، من أجل الاستعداد لها.

بعد وقت طويل يصعب حسابه، خلته كابوسًا لا نهاية له، وعندما أصبحت أعاني من صعوبة في التنفس، من الدماء التي ملأت أنفي وفمي، سمعت صوتًا، سيكون لمسؤول الأمانات، يطلب منهم التوقف:

- وقفوا!

تجاهلوه وتابعوا ضربي، فكرر وكأنه ضاق بهم ذرعًا، حريصًا على أن تكون مخارج كلماته باللهجة الساحلية، التي تتحدث بها طائفة رئيس الدولة:

- خلاص، وقفوا بقى!

تراجعت كثافة الضربات إلى أن توقفت تمامًا، عندها وجّه المتحدث سيلًا من الشتائم لي ولوالديّ، وختمها بالقول:

- تعال ولك خرا، ارفع الطمّاشة شوي، لحتى نشوف الورقة وتبصم على أماناتك.

رفعت الطمّاشة قليلًا، فرأيتُ في مجال الرؤية جزءًا من سطح طاولة، عليها أوراق ومحبرة، وإلى جانبها أشيائي التي عرضوها عليّ في جويّة دير الزور، بالإضافة إلى قصاصة ورقية عليها دعوة لتظاهرة مليونية في جمعة آزادي (الحريّة بالكُرديّة). طلب مني المسؤول وضع إبهامي الأيسر على المحبرة والبصم على الورقة، ففعلت، ثم أمرهم:

- خذوه.

تلقيت مع هذه الكلمة، ركلةً مفاجئة على بطني هذه المرة، ألقتني بعيدًا إلى

الخلف، من دون أن أعلم حتى الآن من أين جاءتني، فقد كنت لصق الطاولة ومحميًا بها من الأمام، في مواجهة الشخص الجالس في الجهة الأُخرى منها، ولم أرَ أحدًا في مجال الرؤية الذي أُتيح لي لثوانٍ، لذلك لم يتبقَ لي سوى الظن بالعنصر الذي صفعني من فوق الكُرسي في البداية، على الرغم من أنني لم أره، لا هو ولا كُرسيّه.

أوقفني أحدهم بطريقة شد الشعر، جرّه، فتبعته رغمًا عني إلى خارج الغرفة، أجلسني إلى جانب حسين عيسو على ركبتيّ، وضغط على رأسي لآخذ وضعيتي السابقة.

سجدت، مررت يديّ على وجهي، في الطريق إلى وضعهما على الطلقاشة، فامتلأتا بالدماء الطازجة. شعرت بالغثيان، لحسن الحظ معدتي فارغة، لم يقدموا لنا شيئًا خلال الفترة الماضية، وإلا كنت تقيأت.

حاولت إبعاد الدماء من أنفي وفمي، عبر نفخات سريعة قصيرة عليها، بطريقة لا تلفت الانتباه، لكن حسينًا لاحظ ذلك، على الرغم من الصراخ المرعب الذي يملأ المكان، فهمس لي بكلمات، يصعب وصف الشحنات العاطفية التي حملتها:

- شبال، هاد اللي بتطالعه من تمك دم؟

أجبته محاولًا إلغاء المسافة بين فمي وأذنه، كيلا يلاحظ أحد حديثنا:

- لا ماموستا، عرق من حرارة الجو المرتفعة.

سأل ثانيةً، بصيغة يريد بها أن أطمأنه وأجعله يشك بما هو متيقن منه، بعدما تعرض لمثله، مثلما فعلت مع سؤاله السابق، فأجبت بحرص شديد، كيلا يصاب بأذى وينهار:

- ضربوك كثير، ما هيك؟

- ما في شيء مهم ماموستا، لا تزعل، أنا شاب وبتحمل.

أحضروا طبيبًا، ربما، نادى حسين من مسافة، وسأله بينما نحنُ بوضعية السجود:

- حسين علي العيسى، شو عندك أمراض؟

- عملت ثلاث عمليات قسطرة وعملية في الظهر، عندي ديسك ودوالي.

أخذ الطبيب علمًا بأمراض حسين، فنادى على اسمي:

- شبال إبراهيم.

- حاضر دكتور.

تدخل صوتٌ محتدًا، شاتمًا:

- قُلْ حاضر سيدي يا...

صححت ردي على الطبيب:

- حاضر سيدي.

باستثناء فترة الخدمة العسكريّة، كانت هذه هي المرة الأولى التي أخاطب فيها أحدهم سيدي، لم أقلها حتى بعد اختطافي. استفسر الطبيب:

- كورمانجو؟

- نعم سيدي.

- من وين؟

- من قامشلي.

قال بلهجة العارف، الذي يريد أن يؤكد لمحدثه بأنه يعرف:

- قامشلو، ما هيك؟

- نعم سيدي.

على الرغم من أن كثيرًا من السوريين، ومنهم أهل الساحل، يلفظون كلمة

كُردي كورمانجو وقامشلو أحيانًا، تحببًا أو لإلغاء الحواجز مع الكُرد، أو للدلالة على وجود نوع من المعرفة بهم، إلا أن طريقة لفظ الطبيب لاسمي واسم مدينتي، جعلتني أشكُّ بأنهُ كُردي، على الرغم من عدم اعطائه إشارة تدل عليه. يبدو بأن عدم اللجوء لذلك مع حسين عيسو، يعود على الأرجح إلى أن اسمه الرسمي في السجلات، لا يدل على أن صاحبه كُردي، مثل اسمي.

اكتفى الطبيب بطرح الأسئلة عن بعد، من دون أن يجري معاينة طبية أو يقترب مني، أبلغته عن المرض الذي أُعاني منه، لكنه لم يسأل عن الدماء التي تغطي وجهي، ربما كانت أمرًا عاديًا في هذا المكان، أو لم يرها إذا أخذت الأمر بحسن نية، فقد كان صوته يأتي من مسافة من الأعلى، بينما بقيت ساجدًا، لم يطلب مني الوقوف أو رفع رأسي.

سمعت صوت ارتطام سلسلة حديدية بالأسفلت، أوقفونا وقيدوا يدي اليسرى إليها، وطلبوا مني وضع الأُخرى على الطمّاشة التي تغطي عينيّ، وهو ما جرى مع الآخرين أيضًا. فكّرت بالحكمة من وراء وضع اليد على الطمّاشة، التي تغطي العينين وبالتالي تمنع الرؤية، فكان ثمن التفكير باهظًا، فقدت حدسي فأضعت حسين عيسو، ولم أعد أعرف أين أصبح مكانه في السلسلة، أمامي أم خلفي.

طلبوا منا السير فتقدمنا بصعوبة، تعثرنا ببعضنا وسقط معظمنا مراتٍ عدة. فكّرت هذه المرة بسبب نقلنا على هذه الحال، مطمّشي العيون في مكان يبدو حصينًا، ولا يدعوننا نمشي ببساطة، طالما أن الغاية هي في نهاية المطاف وصولنا إلى السجن، ونحن على كل حال بين أيديهم، سنسير رغمًا عنّا إلى أي مكان يوجهوننا إليه؟

لن أعود إلى التفكير بمثل هذه الأمور واخضاعها لمحاكمات عقلية، ليس

ليقيني بضرورة تعويل المرء على جسمه أكثر من عقله في هذا المكان، حيث تهدف كل كلمة أو فعل إلى الإهانة والتعذيب والترويض، وجعل الحياة جحيمًا لا يطاق، بل لأن التفكير يصبح وبالًا على المرء غالبًا، إذ قد يقف عائقًا أمام تأقلمه مع الوضع الكارثي، وربما يصرف الوقت الذي يقضيه فيه انتباهه عما يجري، فيضيّع عليه فرصة التصرف وفق متطلبات غريزة البقاء، وهي هنا أكثر جدوى لتجنب الأسوأ. كما أن مثل هذه السلوكيات التي تمارس علينا، ومهما كانت غرابتها، ستصبح مع مرور الوقت عادية، تافهة لا تستحق الوقوف عندها، مقارنةً بأمور مهولة، سيفقد تكرار حدوثها هي الأُخرى، القدرة على الدهشة.

أوقفونا في نهاية مسافة لا تقل عن مئتي متر، في مكانٍ يبدو ساحة محاطة بحيطان أو ربما أبنية، فأصبحنا محاصرين من جميع الجهات، بصراخ وبكاء ضاغط، على وقع ضربٍ لا يتوقف. فكّوا أيدينا عن السلسلة الحديدية، ثم صاح بنا أحدهم:

- الكل يشلح ثيابه بالزلط.

قررت أن لا أتعرى، مهما كانت العواقب. بدأت اعتراضي على الأمر بطريقة طفولية، ارتميت على الأرض متصنعًا تعرضي لإغماء. صفعوني ورشّوني بالمياه، فبقيت ممددًا لا أستجيب، مصممًا على عدم خلع ثيابي مهما حصل.

تعرى الآخرون، فأمرهم أحدهم بالقيام بـ(حركتي أمان)، هي وضع اليدين على مؤخرة العنق، ثم الجلوس القرفصاء والوقوف سريعًا لمرتين متتاليتين، للتأكد من عدم إخفائهم شيئًا ما، مثل أدوات حادة في ثنايا أجسادهم وخاصة بين الإليتين. أمرهم بعد تنفيذ الحركتين بارتداء ملابسهم، ثم أخذوهم فبقيت لوحدي، ممددًا في الساحة.

أحضروا الطبيب، سكب بعض الكحول في أنفي، تحركت فسألني:

- من ايمتى ما أكلت؟

- من البارحة.

- يعني ما أكلت شيء اليوم؟

أعدت التأكيد على ردي، فأعلن الطبيب نتيجة المعاينة ووصفة العلاج:

- الإغماء سببه الجوع، جيبوا له سندويشة.

جاؤوا بسندويشة فرفضتها، فالطعام هو آخر ما يمكن أن أُفكر به. غيّر الطبيب الوصفة:

- معناها، جيبوا مي لأعطيه حبة.

فتحت فمي، فدسَّ فيه حبّةً وصبّ وراءها ماءً، كاد يخنقني. غاب أثر الطبيب، فطلب مني أحدهم الوقوف، قيّد يديّ خلف ظهري، ثم أمسك ياقة قميصي ودفعني أمامه.

لم يطلبوا مني خلع ثيابي أو تنفيذ (حركتي أمان)، ربما نسوا الأمر أو ذهب العناصر المسؤولين عن تنفيذه، شعرت على الرغم من ذلك، بأول انتصار عليهم.

لن يكون هذا الانتصار يتيمًا فحسب، بل مؤقتًا أيضًا، لن يعيش سوى ساعات قليلة.

أدخلني العنصر بعد عشرات الخطوات إلى بناء، ثم أنزلني درجًا، يعادل مسافة طابقين تحت الأرض، سار بي في نهايته على أرض مستوية، وطلب مني بعد بضع خطوات التوقف، ثم وضع يديه على كتفيّ وأدارني ربع دورة باتجاه اليسار. سمعت في تلك الأثناء أصواتًا، توقعتها لمزلاج الباب.

فكَّ أحدهم القيد عن يديّ وحلّ عقدة الطمّاشة خلف رأسي، فانفتحت

عينيّ بعد عشر ساعات على مشهد مَهُول، حيث عدد كبير من الأشخاص داخل زنزانة، واقفين لصق بعضهم في صفين وراء بعضهما وظهورهم للباب، كأنّهم أشجارًا يابسة مسندة إلى الجدار أو لوحة فحم مرسومة عليه.

تلقيت ركلةً على ظهري، قذفتني مثل كرة إلى داخل الزنزانة، اصطدمت ببعض المشاركين في المشهد، فسقطت وأسقطت معظمهم معي. أطبق الباب الحديدي الكبير علينا، لتُستكمل بذلك أضلاع المربع، فينتابني شعور بالاختناق، في مكان يسيطر عليه هواء ثقيل، يكاد لا يكفي الموجودين، وليس فيه بالتأكيد مكان لجلوسهم.

كان أول ما لفت انتباهي بعد وقوفي، الذقون الطويلة للموجودين والفضول الواضح في عيونهم، بالإضافة إلى شابٌ تغطيه الدماء، سارع إلى الاستلقاء قرب الباب الحديدي، بطريقة جعلت وجهه لصق فتحة صغيرة أسفله، وكأنّه يحاول اعتراض الهواء الداخل عبرها. سألت الشاب الجريح، عما إذا كان يسمح لي مشاركته الهواء، فرد:

- طبعًا يا أخي، تعال خذ مكاني!

أخذت حاجتي من الهواء، فاستعدتُ بعضًا من توازني، نهضت لإعادة فتحة الباب إلى صاحبها، والتفت إلى الجهة الداخلية للزنزانة، استعرض وجوه الموجودين وابحث لنفسي عن مكان، وعندما التقت عينانا، أنا والشاب الجالس إلى وسط الحائط المقابل، ناداني بصوتٍ منخفض، وطلب من أحد الجالسين إلى جواره، إخلاء مكانه:

- تعال لهون يا أخي.

توجهت إليه، وأنا ألقي التحية بمستوى الصوت المنخفض نفسه:

- مرحبا شباب.

ردوا عليّ:

- وعليكم السلام.

سألني الشاب الذي أجلسني إلى جانبه:

- منين الأخ؟

بدا عليه الاهتمام عندما أبلغته باسم مدينتي، وسارع إلى القول:

- الله محيي أصلك، الأخ كُردي؟

أومأت برأسي بالإيجاب وقدمت اسمي، فعرّفني بدوره بنفسه:

- أنا معن شربجي.

استفسرت للتأكد:

- أنت معن، شقيق يحيى شربجي؟

- نعم، صحيح.

شعرت بالارتياح لأول مرة، وبأنني موجودٌ في مكان آمن، على الرغم من وقوعه في جوف الجحيم. سألني معن شربجي عن الأخبار في الخارج، فمررت سريعًا على العناوين الهامة التي خطرت لي، وتوقفت عند حسين عيسو، رحلتنا معنا التي انتهت بتفريقنا، وجهلي بمكان وجوده، فربت على كتفي، مثلما يفعل شخصٌ عادةً، عندما يريد أن يضمن لآخر التزامه بتعهد قطعه له:

- كلنا أخوتك، كلنا حسين عيسو ويشرفنا هذا الاعتقال، راح نسقط النظام ونطلع قريبًا.

بدأتُ جولة تعارف مع المعتقلين، والتعرف على الزنزانة. أصبح عددنا بعد وصولي أربعة عشر فردًا، في زنزانة يصل حجمها إلى مترين مربعين، بطول مئتين وعشرين سنتمترًا وعرض مئة وثمانين، إذا أخذنا بعين الاعتبار أن عشرين بلاطة تغطي أرضيتها، وحجم البلاطة هو عشرين سنتمترًا مربعًا،

وبذلك تكون حصة كل واحد منا أقل من بلاطة ونصف، أي أقل من تسعة وعشرين سنتمترًا. أما مصدر التهوية الوحيد، فهو الفتحة الصغيرة أسفل الباب، بينما تُتاح إنارة خفيفة، عبر شبك حديدي على ارتفاع حوالي عشرة أمتار.

فتحوا الكوّة في النصف السفلي من الباب، وأدخلوا خبزًا مع قصعة طعام، عبارة عن خلطة من العدس والبيض والبطاطا، تم تقسيمها إلى حصص متساوية بعد ذهابهم، بوضعها على أرغفة الخبز وتوزيعها، فسارع الجميع إلى التهامها على آخرها. لاحظ معن شربجي امتناعي عن تناول حصتي، مثلما لفت ذلك انتباه حسين عيسو في جويّة دير الزور من قبل، فعلّق، وكأنه يريد دفع تهمة ما عن نفسه:

- أخي شبال، راح تاكل بالأيام الجاية، يمكن جسمك غير محتاج للغذاء حاليًا.

لم أتناول خلال أيام الاعتقال الثمانية الماضية، سوى كمية قليلة جدًا من الطعام، أرغمت نفسي عليها، التزامًا بنصائح حسين عيسو أو مجاملةً له. فقدتُ الشهية بسبب عدم تقبل ما يجري لي، وظروف الاعتقال السيئة، ونوعية الطعام الرديئة، وعلى الرغم من أن هناك سببًا إضافيًا الآن، هو الجروح التي خلّفها الضرب في فمي، إلا أنني حاولت تجاوز كل ذلك، لمجاراة رفاقي والتحضير المسبق لحاجة الجسم، التي لا بد وأن تظهر كما يقولون، لكنني سرعان ما توقفت، وأعطيتهم ما تبقى من حصتي.

سألت عن الماء، أريد أن أشرب وأغسل أنفي وفمي ووجهي من الدماء، فأعلمني معن شربجي، بأن شرب المياه متاحٌ فقط من حنفية التواليت، الموجود خارج الزنزانة، عندما يقرر السجّانون أخذهم إليه بشكل جماعي، ويجري ذلك بمعدل مرتين يوميًا، ولثلاث مرات في بعض الأيام، وقد أخرجوهم

اليوم مرتين، وسأكون محظوظًا إذا كانت هناك ثالثة.

قرروا إخراجنا إلى التواليت لمرة ثالثة بالفعل، إلا أنها لم تكن من حسن حظي تمامًا، بل كابوسًا، وضع نهايةً لطعم الانتصار الذي أشعر به، منذ نجاحي في عدم تنفيذ أمر التعري في الساحة. شرح معن طقوس التواليت، التي تبدأ بخلع الجميع ملابسهم كلها داخل الزنزانة، فور سماع الأمر به، ثم قدم نصائحه.

تستغرق عملية التواليت من بدايتها حتى نهايتها، حوالي دقيقة ونصف، عليّ استغلال كل ثانية للقيام بما هو ضروري بأقصى سرعة، وإذا نَفِدَ الوقت، عليّ التوقف والخروج مهما كان وضعي، لكي أعود مع مجموعتي، فإن لم أكن غسلت يديّ مثلًا، عليّ عدم غسلهما، لأن عدم الالتزام بالزمن المحدد، الذي ينتهي بالقرع على الباب المفتوح أصلًا، يكلف المخالف خمسًا وعشرين ضربة فلقة. سأشرب قليلًا من الماء، كيلا أشعر بالحاجة إلى التبول، لأنهم لا يفتحون باب الزنزانة سوى للذهاب جماعيًا إلى التواليت، لمرتين وأحيانًا لثلاث حسبما أُخبرت به، والتبول في الزنزانة سيتسبب بكارثة إضافية، خاصةً أن معنا مريض بالسكري، زودوه بقنينة للتبول فيها، سيقوم بإفراغها عندما يخرجوننا.

صدر الأمر بالذهاب إلى التواليت، طلب منا صوتٌ من أمام الباب تجهيز أنفسنا، فسارع الجميع إلى خلع ثيابهم من دون تردد، أصبحت مثلهم عاريًا تمامًا. انقسمنا إلى ثلاث مجموعات، انتظمت في ثلاثة صفوف، وجلسنا القرفصاء ننتظر. عندما فتحوا الباب، أمسك رفيقنا الأقرب إليه بعصا السجّان، ومد يده الأُخرى لمن يليه من مجموعته، فأمسكها ومد بدوره يده الأُخرى إلى آخر يليه، وهكذا بالنسبة للمجموعتين الأُخريين. خرجنا عراة في

سلاسل، نتقدم مقرفصين، منحنيْ الظهر ومطأطيء الرؤوس.

أصبحت حلقة في سلسلة عراة، لا يرون سوى أقدامهم، يقودنا سجّانٌ في ممرٍ يصل طوله إلى حوالي عشرين مترًا، وسط سجّانين واقفين على طرفيه، يضربوننا بهراواتهم بضراوة ويشتموننا، لحثنا على التقدم بسرعة. تزحلقنا عدة مرات، فسقطنا على الأرض المبللة، الأرجح من المياه التي عادت مع أجسام من سبقنا، لكننا عدنا إلى وضعيتنا في كل مرة وتابعنا التقدم، تحت وقع الضرب والشتائم والصراخ.

دخلت إلى كابينة مفتوحة، تم توجيهي إليها، صدمتني قذارة المكان فخرجت سريعًا، أشعر بالغثيان، ووقفت إلى مغسلة أمامها، مددت يدي إلى قطعة صابون فقدت لونها وشكلها، فوجدتها متحجرة، تركتها وسارعت إلى غسل يديّ ووجهي وأنفي، وقمت بالمضمضة فبصقت دماءً. استجبت لأمر العودة مع مجموعتي، بطريقة الذهاب نفسها.

على الرغم من مجال الرؤية الضيق، بسبب طريقة السير وعدم رفع رؤوسنا، خشية السجّانين على طرفي الممر، إلا أنني حاولت استكشاف المكان، بتحريك عينيّ يمينًا ويسارًا. لفت انتباهي، وجود أُناس ممددين بمحاذاة طرفي الممر، خلف أقدام السجّانين، تغطيهم بطانيات عسكرية، بحيث لا يظهر منهم أيّ شيء، ظننتهم لأول وهلة أمواتًا، لأن وضعيتهم لم تتغير عند عودتنا، عما كانت عليه عندما شاهدتهم أثناء ذهابنا.

استفسرت عن البطانيات التي شاهدتها على طرفي الممر، فأعلمني رفاقي بأن القابعين تحتها، معتقلون أُصيبوا بأمراض مزمنة، مثل الشلل أو أمراض نفسية، أو باتوا عاجزين عن القيام بوظائفهم الفيزيولوجية، صاروا يتبولون في ثيابهم، فتم اخراجهم من الزنازين وعزلهم هناك، وتغطيتهم بالبطانيات

طوال الوقت، كيلا يروا وجوه السجّانين.

بعد حوالي ساعتين من موعد العشاء، الذي يكون في الثامنة والنصف عادةً، سمعت جرس هاتف مرتفع قادم من جهة الممر، اخترق الباب الحديدي وملأ الزنزانة، فاعتدل الجميع وأصاخوا السمع. أخبرني معن، بأن الصوت صادر عن الهاتف الأرضي الموجود في مكتب السجّانين، وبأنه مضبوط على ذلك الارتفاع، ليصل إلى جميع الزنازين، لذلك على جميع المعتقلين الانتباه بشدة بعد سماعه، لأن السجّان الذي سيرد على الهاتف، سيُبلَّغ باسم معتقل مطلوب للتحقيق، فينادي عليه، لأخذه سريعًا إلى الطوابق العليا.

على الرغم من أن المكان يعج بالزنازين، بين عشرين أو خمس وعشرين زنزانة بالإضافة إلى خمسة مهاجع كبيرة، حسبما سأعلم فيما بعد من أصوات فتح وإغلاق الأبواب، إلا أن أول اسم تمت المناداة عليه، بعد أول جرس هاتف سمعته، كان لمعتقل من زنزانتنا، هو نفسه الشاب الذي كان مستلقيًا وراء الباب عند وصولي، بعد أن أعادوه من جلسة تعذيب، يحاول أن يحصل على بعض الهواء من الفتحة، وقد منحني مكانه لبعض الوقت.

نادوا على اسم نصيب من درعا، فوقفنا جميعنا وتوجهنا إلى الحائط، لأُصبح بذلك ولأول مرة جزءًا من طقس (الدخول في الحائط)، الذي كان ثاني نشاط جماعي أشهده في هذه الزنزانة، بعد الذهاب إلى التواليت. فتحوا كوة الباب بعد قليل، للتأكد من أن كل شيء على ما يرام، ثم أغلقوها وفتحوا الباب ودخلوا، طلبوا من نصيب التراجع إلى الوراء ففعل، ثم طمّشوا عينيه وقيدوا يديه، وأخذوه. نصيب رياضي، يعمل مدربًا لكمال الأجسام، لم تختفِ عضلاته على الرغم من مرور أكثر من شهرين على اعتقاله وتعذيبه.

على عكس ما يحدث في فرع المخابرات الجوية بدير الزور، لا يصدر

القائمون على هذا المعتقل أمرًا بالنوم، وبالتالي ليس هناك موعد محدد له. في الواقع، لن يكون مثل هذا الأمر مجديًا، لأنه ببساطة غير قابل للتنفيذ، فالزنازين ضيقة ومكدسة بالمعتقلين، بحيث يستحيل على الجميع الحصول على مكان للنوم أو الجلوس في وقتٍ واحد، كما أن المعتقلين معرضون للتحقيق في أية لحظة، وينبغي أن تكون هناك متابعة للمناداة على الأسماء بعد جرس الهاتف، الذي لا يتوقف عن الرنين ليلًا نهارًا، فيصرف الانتباه للحظات عن أصوات الضرب والتعذيب والصراخ المؤلمة الحادة، التي لا تتوقف بدورها عن الوصول من غرف التحقيق في الطوابق العليا، الأمر الذي يضيف رعبًا إضافيًا إلى المكان، ويجعل النوم صعب المنال، لا يدركه المرء إلا بعد أن يصاب بالإنهاك.

الحل القسري لمعضلة ضيق الزنزانة، هو تقسيم المعتقلين أنفسهم إلى ثلاث مجموعات، تتناوب كل ساعتين الوقوف والجلوس والنوم بطريقة التسييف، وهي التمدد على أحد الجانبين، لتوفير مساحة إضافية ممكنة للآخرين. أعفاني رفاقي من الوقوف في اليوم الأول، قالوا بأنني ضيف ويمكنني البقاء جالسًا أو متسيّفًا. وقف معن شربجي لنوبتين في تلك الليلة، واحدة عن نفسه وأُخرى عني، بقينا نتحدث إلى وقت متأخر من الليل، فقصَّ عليّ حادثة اعتقاله مع شقيقه يحيى وغياث مطر، التي علمت بها وقتها عبر الفضائيات، شاهدت على الشاشات خبرًا عاجلًا عنها، تابعته بتوجس مع جمشيد وسرباز.

اتصل صبي في الرابعة عشر من العمر، وهو شقيق أحد أعضاء التنسيقيات مع معن شربجي، ادعى بأنه تائه في أحد أحراش داريا، ولم يعد يعرف كيفية الخروج منه، طلب إنقاذه وأضاف بأنه يخشى على نفسه من الاعتقال.

سارع معن مع غياث مطر، الذي كان برفقته خلال الاتصال، إلى مساعدة الصبي، استقلا بيكآب وذهبا إلى المكان الذي حدده، لكنهما وجدا كمينًا بانتظارهما، أشهر مسلحون أسلحتهم في وجهيهما، وطلبوا منهما التوقف، فقفز غياث من البيكآب وحاول الهرب، فأطلقوا الرصاص عليه، أصابت واحدة رجله، سقط فقبضوا عليه، وأعادوه إلى البيكآب حيث يحتجزون معن، قريبًا من عربات الجيب التي يستقلونها، والتي كان الصبي - الطُعم - جالسًا في أحدها.

طلبِ المسلحون، وقد تبين بأنهم من المخابرات، من معن شربجي الاتصال بشقيقه يحيى، لاستدراجه إلى كمين جديد، يكون هو الطُعم هذه المرة. فنفذ من دون تردد، حدد مكانه لشقيقه وطلب منه الحضور: (تعال، ضروري جدًا).

فور إنهاء المكالمة، اتصل يحيى شربجي بوسائل الإعلام، وأبلغها بتعرض معن للاعتقال، ذلك أن عبارة (ضروري جدًا) التي ذكرها له في الاتصال، كانت كلمة سر متفق عليها بينهما، ورودها على لسان أحدهما معناه، أنه اعتقل ويتعرض لضغوط.

لم يكتفِ يحيى بذلك، لم يترك معن لوحده، بل سارع إلى الحضور برجليه إلى الكمين، على الرغم من علمه بأنه المطلوب الرئيسي للأمن، فقد كان شقيقه نقطة ضعفه، وخشي أن تصل الضغوط عليه، إلى حد قتله.

سألت معن عن الصبي الذي أوقع بهم، فيما إذا كان يحمل مشاعر سلبية تجاهه:

- وكيف بدي أكرهه؟ هو مجرد طفل ضغطوا عليه وأجبروه على الاتصال، وربما يكون المسكين معنا في المعتقل الآن، بعدين اللي صار كان قدرنا.

تمتُ جالسًا، لم يكن نومي سوى سلسلة كوابيس، أنقذني منها آذان الفجر، الصوت الوحيد الذي لا ينتمي إلى هذا المكان، الذي يحتضن ثنائية السجّان والسّجين، ويستطيع الوصول على الرغم من الحواجز والجدران. استيقظ الجميع، وضع كلُّ واحد كفتي يديه على الحائط الأقرب إليه، للتيمم بدلًا من الوضوء، الذي يستحيل القيام به، ثم بدؤوا من أمكنتهم صلاةً سريّة صامتة في خشوع، من دون أن يغيّروا من وضعياتهم، إذ لم يقف أحدٌ أو يركع أو يسجد.

فتحوا كوّة الباب، أدخلوا الفطور منها ثم ذهبوا. عادوا وفتحوا الكوّة عندما كنا نتناوله، فتوقفنا وتوجهنا نحو الحائط، سمعت صوت ارتطام شيء بالأرض بعد فتح الباب، التفتنا نحو الخلف بعد ذهابهم، فرأيت نصيب ملقىً من دون حراك وسط الزنزانة. يبدو بأنهم أعادوه على بطانية وألقوه هناك، بعد غياب لما يقارب الثماني ساعات في التحقيق.

اقترب معن من نصيب فتبعته، بينما بقي الآخرون في أمكنتهم، ينظرون في صمت، كانت الدماء تغطي وجهه وبالكاد يتنفس، وقد انفتحت جروح طولية في ظهره. عملنا على التخفيف من آلامه، مسحنا دماءه بثيابه وحاولنا إيقاف النزيف، من دون جدوى. توجه معن نحو الباب ونادى:

- سيدي، سيدي.

- شو في عندك ولاك؟

- سيدي الزنزانة ١٦ بدنا شاش ومعقم، في واحد عم ينزف كتير.

دخلنا في الحائط مجددًا قبل فتح الباب، دخل أحدهم إلى الزنزانة وعاين جروح نصيب ثم ذهب، ترك قليلًا من المعقم وراءه. أعلمني معن، بأنهم يأخذون المعتقل للتحقيق عادةً، بعد يومين على الأقل من وصوله، وبأن

معظم الموجودين معنا انتهوا منه:

- الموضوع اعتيادي، طالما صرت هون فراح يحققوا معك ويعذبوك أكثر من مرة، حتى تخلص منه. أتوقع يحققوا معك، خلال يومين أو ثلاثة.

دخلت في مرحلة ترقُّب التحقيق، متمنيًا سرعة بدئه لتجاوزه، على الرغم مما شهدته من آثار تعذيب على أحد الضحايا. كنت أؤمل النفس بعدم التعرض للتعذيب، للإدلاء باعترافات، فأنا لن أضطر لإنكار شيء، ذلك أن أنشطتي موثقة بالصوت والصورة وستستخدم ضدي، وبالتالي لن يكون الإنكار مجديًا. ربما تكون عضويتي في التنسيقيات، هي الأمر الوحيد الذي سأعمل على نفيه.

رسمتُ سيناريوهات للتحقيق الذي سيجري معي، وكأنني على وشك الدخول إلى قاعة امتحان، فكرتُ في الأسئلة التي قد تطرح عليّ، حضّرتُ أجوبة عليها، وتمرنت على نبرة الصوت المناسبة لكل جواب، في ظل قرار حاسم بعدم الاستسلام، مهما كانت الضغوط. ظلّ السؤال الكبير يحلّق فوق رأسي طوال الوقت، عما إذا كنت أستطيع تنفيذ ما أخطط له، والصمود، وبالتالي النجاح في العبور إلى ضفة النجاة؟

نادوا على اسم معتقل آخر من زنزانتنا، في الليلة الثانية من وصولي. المطلوب للتحقيق هذه المرة لبناني، شخص حذر إلى درجة الرعب، وأقل الموجودين كلامًا، وهذه هي جلسة التحقيق الثالثة معه. بعد قليلٍ من أخذه، سمعتُ صوتًا قادمًا من الممر، لشخص يشتم بالكُرديّة:

- سأفعل كذا بأمهاتكم، سأفعل بأخواتكم، سأفعل بكم وألعن شرفكم!

نهضت لا إراديًا، أسرعت إلى الباب، لسماع ما يجري بشكل أفضل. تابع الكُردي الشتم والتفوه بكلمات غير مفهومة، وإطلاق خليط من الضحك

والبكاء، بطريقة تدل على أنه في وضع نفسي سيء. تداخلت أصوات أُخرى مع صوته، شتمته وتوعدته ثم غطّت عليه، كان أوضح ما سمعته منها، قبل أن تتلاشى الأصوات جميعها:

- ولك يا مجنون!

خلال الدقائق القليلة التي ظهر فيها صوت الكُرديّ واختفى، كان معن شريجي نائمًا، فتوجهت إلى عدنان، لسؤاله عما سمعته، على الرغم من علمي بانشغاله الدائم بالتفكير بابنه، الشاب البالغ السادسة عشرة من العمر، والذي تشكل عدم معرفة مكان اعتقاله وبالتالي مصيره، مشكلة والده الكُبرى، التي يتصاعد تفكيره بها، إلى أن يصل إلى ذروة اليأس، فنسمعه بعد زفرة طويلة، يعود بها مستسلمًا إلى الواقع:

- احتسبه شهيد الثورة.

تبيّن بأن جميع من في الزنزانة على معرفة بكُردي الممر، فقد كان معهم خلال الفترة الماضية، أخرجوه في اليوم السابق لوصولي.

عندما أحضروه قبل أسابيع، كان شخصًا عاديًا لا يلفت الانتباه، باستثناء الخوف الذي لم يستطع إخفاءه، ونوبات الرجفان التي يتعرض لها من وقتٍ لآخر، لكن وضعه ساء مع مرور الأيام، لم يعد يشعر بما يجري حوله في نهاية المطاف، أخذ يكلم نفسه، ويدخل في نوبات هستيرية من الضحك والبكاء، مثلما حدث قبل قليل، والأسوأ من ذلك أنه صار يقضي حاجته في ثيابه، فامتلأت الزنزانة برائحة كريهة، لذلك أخرجوه وضموه إلى معتقلي الممر، مددوه على أحد طرفيه، وغطوه ببطانية عسكرية.

طلبت من عدنان مزيدًا من المعلومات عن كُردي الممر، إذا كان يعرفها، فقال بأن اسمه ديار، حسبما أخبرهم بنفسه، وبأنه روى لهم حكايته، قبل

أن يسوء وضعه.

كان ديار عسكريًا يخدم على طريق دمشق بيروت، تحدث أحد رفاقه مرةً بسوء عن نظام الحكم، وعن استخدامه الجيش لقتل المواطنين، فأبدى تأييده لما سمعه، وحدث بدوره رفيقه عن ظلم النظام للكُرد، ثم سأله عن طريقة للانشقاق عن الجيش، ليتم اعتقاله بعد ذلك بوقت قصير، الأمر الذي دفعه إلى الاعتقاد، بأن رفيقه ذاك ورطه ثم وشى به لدى رؤسائه، لأنه لم يتحدث أمام غيره، بما قاله له. ختم عدنان حديثه قائلًا:

- لا أعلم في الحقيقة، فيما إذا كان مريضًا بالفعل، أم أنه يتصنّع ذلك.

ثم سارع إلى الرد على نفسه:

- لكنه لو كان مدعيًا، لما قضى حاجته في ثيابه على الأقل.

أحزنني ما انتهى إليه مصير هؤلاء الذين تم دفنهم أحياء، تحت البطانيات العسكريّة في الممر، وأصبح الكُردي ممثلهم بحكم الواقع، عبر صرخاته التي تذكّر من وقتٍ لآخر، بالموت البطيء الذي يتعرضون له، بحيث لم يعد لديهم في نهاية المطاف سوى صراخه العبثي، الذي يجري كتمه كل مرة، بحقنه بمواد مهدئة على الأرجح، لتستمر عملية تناسيهم من قبل الجميع، سجناء وسجّانون، حتى الموت.

شكّل ما حدث لديار الكُردي جرس إنذار لي، وعبئًا إضافيًا ضاعف من مسؤوليتي، خاصةً أنني قادمٌ مثله من المنطقة نفسها، وأتواجد في هذا المكان لسبب مشابه. شعرت بأن عليّ مضاعفة جهودي، كيلا أنتهي إلى ما انتهى إليه، بعدما استنتجت من نظرات المعتقلين أثناء الحديث عنه، نوعًا من الاتهام بالضعف وعدم القدرة على التحمل، في الوقت الذي تجاوزوا فيه معظمهم التحقيقات، متماسكين يقفون على أرجلهم. لا أعلم لماذا تذكرت كلام حسين

عيسو، عندما حاولت مرةً إظهار روح التحدي، بعدما سألني:

- قل لي يا شبال، شو راح تعمل إذا طلعت من هالمكان؟

- راح أسوي كل شيء سويته حتى اللحظة ويمكن أكثر، ما دام الهدف اللي عملت مشانه ما تحقق، حتى إذا كلفني الأمر الرجوع إلى هالمكان.

قال حسين عندها ضاحكًا:

- أنت وطني أحمق يا شبال، أقول لك هالحكي بعدما اكتشفت خلال أيام قليلة، حقيقة الكثيرين من عديمي الناموس، اللي تجاهلوا كل شيء يصير بالبلاد، وما حكوا حتى كلمة حق، وفوقها ما سألوا عني، رغم أن سؤالهم ما راح يكلفهم شيء.

جدران الزنزانة كِتاب تاريخها، وذاكرة من مرّ بها. ثمة أثرٌ كُرديٌ في زنزانتنا، تعامل رفاقي معه، وكأنّه إرثٌ من حقي وحدي. أراني شبان داريا جملةً باللغة الكُرديّة على جدار، وطلبوا مني ترجمتها. اسم الكاتب غير واضح، لكنني تمكنت من قراءة بعض ما كتبه، (سجين الانتفاضة الكُردية، نوروز ٢٠٠٤). يبدو بأن الكاتب معتقل على خلفية الاحتجاجات التي شهدتها المناطق الكُرديّة قبل سبع سنوات، والتي قمعها نظام الحكم بالرصاص الحي، إذ قتل وجرح العشرات واعتقل المئات، ونهب أتباعه ممتلكات المواطنين الكُرد.

أعادوا اللبناني من التحقيق، بعد حوالي أربع ساعات. على الرغم من ظهور كدمات جديدة على وجهه، من دون آثار دماء حديثة على جسمه، إلا أنه جاء على قدميه هذه المرة. أصبحت على علمٍ الآن، بأن جلسة التحقيق التي لا يتعرض فيها المعتقل لتعذيب شديد، بل قليل من الضرب وربما بعض الصعق بالكهرباء، تكون الأخيرة على الأرجح، وينتهي الأمر بتبصيمه على الأقوال المنسوبة إليه.

اقتربت من اللبناني، الذي كان قليل الكلام ويبدو طوال الوقت خائفًا، شجّعني على ذلك نوع من الارتياح تجاهي، لمسته منه، أرجعته إلى وجود مشترك بيننا من دون الجميع، هو أننا الوحيدين اللذين لا نصلي. هنأته بالسلامة وسألته عما جرى معه، أردتُ الوقوف على أحدث ما يجري في التحقيق، قبل أن يأخذوني إليه، لكنه تمنى عليّ تركه وشأنه، فتراجعت وجلست إلى جانب أحمد، الرقاوي الذي لقّبني منذ أول حديث لي معه (بلد)، جريًا على عادات أبناء المنطقة الواحدة من سوريا، عندما يجمعهم مكان بعيد عن منطقة سكنهم، مثل الجيش أو الجامعة، فيتقربون من بعضهم البعض من خلال تلك الكلمة، على أساس أنهم معرفة قديمة.

يعاني أحمد من الوزن الزائد، الذي يسبب له أوجاعًا دائمة، لا يرتاح إلا إذا مدد رجليه، الأمر الذي لا يتيحه ضيق المكان، وهو تاجر سجائر على مستوى سوريا، يقوم بتهريبها من العراق ونقلها بشاحنة إلى زبائنه، كان في يوم اعتقاله في حمص، يمهد الطريق لإدخال حمولة سجائر إلى المدينة، استدعاه فرع المخابرات الجوية، فتصرف مثلما يفعل عادةً في مثل هذه الحالات:

- بعتت بسرعة خمسة خرفان إلى بيت رئيس الفرع، ورحت إلى الفرع بعد التأكد من وصولها، فعملوا معي تحقيق شكلي وتركوني، لكن أحد حواجزهم أوقفني بعد مغادرتي بشوي، وجابوني لهالمكان.

فسّر أحمد ما جرى له، بتقديم شريكه في التهريب تقريرًا كيديًا به للمخابرات، اتهمه فيه بتزويد شبان المظاهرات بالتموين، فقط لينفرد بتهريب الدخان ويستفيد منه لوحده.

بينما كنت أتبادل أطراف الحديث مع أحمد، قبل ظهر اليوم الثالث من وصولي إلى هذا المكان، رنَّ جرس الهاتف ونادى أحدهم بعد ذلك بقليل،

بصوت مرتفع:

- شيال إبراهيم!

- حاضر سيدي.

سارع رفاقي إلى الوقوف، ثم توجهوا إلى الحائط والتصقوا به كالمعتاد، فبقيت وحدي وسط الزنزانة. أدرت مثلهم ظهري للباب وأخفضت رأسي، مثل فريسة تترقب لحظة الانقضاض عليها، من دون أن تملك من أمرها شيئًا، بعد أن انغرست أقدامها في الأرض، وحرمتها جغرافيا المكان من المناورة.

فتحوا الكوّة للتأكد من وضعنا ثم أعادوا إغلاقها، وعندما فتحوا الباب، تمكنت من رؤية النصف السفلي من عنصرين يرتديان الزي العسكري، وضع أحدهما الطمّاشة على عينيّ، وأحكم الآخر ربط يديّ بقيد بلاستيكي إلى الخلف.

تذكرت كلام معن شربجي، بينما أتحرك بخفة بين العسكريين، عن أن التحقيق في النهار، أفضل بكثير منه في الليل، لوجود حركة كبيرة في المعتقل، سببها تواجد الضباط والعناصر في الدوام، بينما لا يبقى سوى ضابط مناوب خلال الليل، يملك تقرير مصير مركز الاعتقال بأكمله، فيتصرف مثل دكتاتور مطلق الصلاحيات، ويكون الجميع ضحايا لتقلبات مزاجه، خاصة هؤلاء الذين يوقعهم حظهم العاثر بين يديه، حيث يشغل نفسه بتعذيبهم بسادية، لمجرد التسلية وتمضية الوقت، أما الطامة الكُبرى، فهي أن يكون الضابط المناوب، هو العقيد سهيل الحسن.

وصلنا إلى الدرج، رفع أحد العنصرين الطمّاشة عن عينيّ قليلًا، كي أتمكن من رؤية الدرجات ولا أتعثر بها حسب قوله، ثم صعدنا، يتقدمني أحدهما ويتبعني الآخر، بينما يعج رأسي بالأفكار حول ما ينتظرني في الأعلى.

أدخلوني بعد صعود مسافة طابقين من الأدراج إلى غرفة، نسوا إعادة الطمّاشة إلى مكانها، فتوفر لي مجال رؤية يصل إلى نصف دائرة قطرها حوالي متر، شاهدت فيه طرف طاولة وأرجل كُرسي خشبي أمامها. أنزلوني على ركبتَيّ، وطلبوا مني اتخاذ وضعية السجود، سمعت صوتًا خشنًا بعد أن إنتهيت:

- أهلًا أستاذ شبال.

فكرتُ بأن مناداتي بالأستاذ ليست من علائم خير، وتذكرتُ كلام معن شريجي عن صوت العقيد سهيل الحسن الأجش. لم أرد على المتحدث، فسأل مغتاظًا:

- ليش ما بترد ولاك، أنت أطرش شي؟

- لا سيدي، أنت رحبت بي ولقبتني بالأستاذ، أما أنا فما بعرف كيف أخاطبك، خاصةً أنني ما بعرف اسمك ولا رتبتك العسكرية.

- تخاطبني بتاج رأسك.

صمتُ على الرغم من ارتفاع منسوب الغضب في صوته، فألح في السؤال عن مصير طلبه:

- ما سمعتك؟

تابعت صمتي، فتوعدني:

- يبدو بأنك مثلما مكتوب عنك بالتقرير، واحد شايف حاله كتير، بس راح نعرفك على حقيقتك هون..

بينما لا يزال الصوت الأجش مسترسلًا في الكلام، يهدد ويتوعد، فاجأتني ضربة عصا على ظهري، اخترقت مثل صاعقة أعماقي، وأخرجت منها صرخةً لا أستطيع وصفها، لكنني أستطيع القول بأنني أنا نفسي استغربتها، إذ لم أسمع بمثلها من قبل، وأتوقع بأن أهالي المنطقة المحيطة بنا جميعهم، بمن

فيهم المؤذن الذي يصل صوته صباحًا إلى الزنزانة، من مسافة بعيدة، سمعوها واستغربوها مثلي.

أسقطتني الضربة على جانبي الأيسر من دون حراك، وسببت لي آلامًا يصعب وصفها هي الأُخرى، أفرغتني من الطاقة وحرقت قاموس كلماتي، حطمت مقاومتي وبخّرت خطط المواجهة والسيناريوهات التي عملت طوال الوقت على إعدادها، وستمنعني من التمدد على ظهري في الأيام المقبلة، لتكمل بذلك عمل الركلة التي تلقيتها على كليتي اليسرى في الاستقبال، ولا زلت أجد صعوبة في الجلوس بسببها.

سكبوا عليّ الماء، لكنني بقيت عاجزًا عن الحركة، الشيء الوحيد الذي ساعدني الماء عليه، هو استعادة قدرتي على التفكير، استنتجت بأنني لستُ في مكتب العقيد سهيل الحسن، فمكتب ضابط كبير مثله، لا بُد وأن يكون مؤثثًا بشكل جيد، لا يرشون المياه فيه، بينما الأرضية هنا عارية، تكاد تتحول إلى بركة مياه. قطع الصوت سلسلة أفكاري:

- راح تبقى على هالحال لحتى تموت، لأننا ما جبناك لتموت بسهولة وترتاح، وإذا كنت تحلم بهيك شيء، فأنصحك تصحى وتنسى الموضوع.

تلقيت مع نهاية الجملة ضربة عصا ثانية، بمقاس الضربة الأولى، وكأنها من اليد نفسها، على جانبي الأيمن هذه المرة. انتفض جسمي وارتفع، مثل طائر فصلت سكين حادة رأسه عن جسمه، فعجزت أجنحته عن مساعدته على التحليق بعيدًا. سقطت على ظهري، ورحت أنزف روحي. رأيت من تحت الطمّاشة الرأس الكبير للجلاد، لا أعلم فيما إذا كان رأسه كبيرًا حقًا، أم تهيأ لي ذلك، منعتني غمامةً من رؤية تفاصيل وجهه، أو ربما لم تكن له ملامح أصلًا.

قال المحقق:

- جيبوا له كهربا.

ما الذي يجري يا إلهي، كهرباء وأنا وسط بركة المياه هذه؟ إذًا، لم يكونوا يريدون من سكب الماء عليّ، إعادتي إلى الوعي فحسب، بل استخدامها في صعقي بالكهرباء. وضعوا شفتي العليا بين كماشتي ملقط وأذني بين كماشتي آخر. سأل أحدهم بحماس:

- أحط الملقط الثالث على قضيبه، سيدي؟

- لا، خليه للوجبة القادمة.

لم يكد صاحب الصوت ينتهي، حتى سمعت صوت انفجار داخلي، لم يفتتني لكنه قذفني بعيدًا، فارتطمت بحائط وسقطت شبه فاقدٍ للوعي. أعتقد بأنني اصطدمت بشيء ما، معلق على الحائط، وأسقطته معي، دعوت الله في ذلك الوقت العصيب، أن يكون صورة رئيس الدولة، التي يعلقونها عادةً في كل مكان.

قطع عليّ أحدهم الاستمتاع بالفكرة اللذيذة، عندما طلب رش مزيد من المياه عليّ، وتعرضي لمزيد من الصعقات الكهربائية القصيرة. أخذ تواصلي مع الواقع يتقطع، غبت عن الوعي عدة مرات، حاولت خلال فترات استعادته، استعادة زمام المبادرة والسيطرة على نفسي مجددًا. فكّرت وأنا مرمي وسط بركة الماء:

- أين أنا؟

تذكرت بأنني في فرع المخابرات الجويّة، لكنني سرعان ما نسيت ذلك واستغربت تبلل ثيابي، إلى أن أدركت في نهاية استجواب داخلي، تعرضي للتعذيب قبل توجيه أيّ سؤال لي. تذكرتُ كُردي الممر، في الواقع فرغت ذاكرتي ولم يبقَ فيها سواه، شكّل صوته جرس إنذار وجعلني استعيد نفسي،

فحسمت أمري بعدم الاستسلام، حتى إذا أغرقوني وأحرقوني بالكهرباء، فالموت أفضل بكثير، من الوصول إلى الحالة التي أوصلوه إليها.

اقترب مني أحدهم وتوقف عند رأسي، رأيت منه حذاءه الأسود، ربما لاحظ متابعتي لحركته على الرغم من تطميش عينيّ، فقد قال لي:

- احفظ شكل هالقندرة منيح، لأنك راح تعيش أيام حلوة معها.

تابع حديثه بعد صمت، ربما أراده للتأكد من أنني حفظت شكل حذائه:

- أكيد الشباب حكوا لك عن التعذيب، بس أنت لسّى ما جربته، اللي صار معك لحد اللحظة اسمه بمطار المزة مرحبا، فالتعامل معك راح يكون خاص كونك معارض سياسي وقائد الثورة، وبصراحة عندنا توصيات كثيرة بك، وكمان ما راح خبي عنك، كان عندي صديق كُردي اسمه جوان، خدم عندنا هون كطبيب، حبيته كتير وحبيت الأكراد بسببه.

أبلغني صاحب الحذاء الأسود، بعد تلك المقدمة، عما يريده مني:

- راح تحكي لنا عن كل شيء رفضت تحكي عنه بجويّة القامشلي، لما عملت حالك عنترة بن شداد، راح نعطيك ورقة وقلم لتعترف بكل شيء، وتكتب عن أسباب رفضك لقاء السيد الرئيس ومشاركتك بالمظاهرات، ومصدر تمويل التنسيقيات اللي تقودها.

ابتعد الحذاء الأسود، فأخرجوني من الغرفة وأجلسوني على الأرض أمامها، ثم وضعوا قلمًا وأوراقًا بين يديّ ورفعوا الطمّاشة قليلًا عن عينيّ، فوجدت نفسي جالسًا في ممر وظهري إلى حائط، بينما يقف عسكريٌ إلى جانبي، أعتقد أنه هو نفسه الذي ضربني قبل قليل، حذرني من رفع رأسي:

- خلي عينيك بالورقة واكتب، راح أنهيك على الخالص، باللحظة اللي بترفع فيها رأسك.

ألمح أقدامًا تمر من أمامي مسرعةً، جيئةً وذهابًا، يرتدي بعضها أحذية عسكرية وبعضها الآخر حافٍ، مدماة وثقيلة، يتم جرها، من دون أن أجرؤ على النظر إلى مستوى أعلى منها، ليس بسبب التهديد الواضح الذي تلقيته، بل لوجودي وسط دوامة ضاغطة من الشتائم والضرب والصراخ والبكاء والتوسلات، هي على أشدها هنا وتكاد تبتلعني، بينما أريد أن أحفر نفقًا بالقلم في الورقة البيضاء، للهروب من هذا الزمان والمكان.

قررت التعامل بحكمة مع الامتحان المصيري، الذي أدخله هذه المرة في الجحيم، سأكتفي بوصول لهجة التحدي التي استخدمتها في قامشلي إلى هذا المكان، أما الاستمرار بالتصعيد، فسيكون تهورًا أكثر منه رجولةً، إلا أنني أريدُ على الرغم من ذلك أن أوصل لهم رسالة مفادها، أنهم لم ينجحوا في إلحاق الهزيمة بي، على الرغم مما لحق بي حتى الآن، وظروف الاعتقال غير الإنسانية.

وضعت لنفسي خطوطًا حمراء، قررت عدم تجاوزها، خاصةً أنني مؤمن بسقوط نظام الحكم في أيّ لحظة، وبالتالي بخروج ما سأكتبه إلى العلن يومًا، وإذا حدث ذلك بعد موتي، فليكن الأثر الذي سأتركه إيجابيًا، لا يلحق العار بي وبعائلتي وأصدقائي. لن أضع بين أيديهم شيئًا ملموسًا، قد يستخدمونه ضدي أو ضد غيري، لن أعترف بأنني مسؤول التنسيقيات، لأنني سأفتح بذلك بابًا لن أستطيع إغلاقه، عليّ وعلى كل الذين وثقوا بي وشاركوني النشاطات، فالنتائج ستكون كارثية، لن أستطيع معالجتها.

بدأت بالكتابة عن الأسباب التي دفعتني للتظاهر، وتصدري لمظاهرة في الفترة الأخيرة، فبررت ذلك بالظلم الذي وقع عليّ، مثلما سبق لي وأن ذكرت في قامشلي، ثم انتقلت إلى التنسيقيات، فكتبت مجددًا بأنني لا أعرف أحدًا من أعضائها أو شيئًا عن أوضاعها، ولا أعلم بالتالي فيما إذا كانت تتلقى دعمًا،

زعمتُ بأنني لم أكن سوى مشارك في المظاهرات، التي كانت لوقت قصير جدًا، يتفرق المتظاهرون بعد نهايتها سريعًا، لذلك لم أعرف أحدًا منهم، خاصةً أن لا أحد من المشاركين يسكن منطقتي.

وقفت مطولًا عند سؤالهم حول رفض لقاء رئيس الدولة، الأكيد أنهم يعيرونه اهتمامًا أكبر من غيره، ويعتبرون الموقف من اللقاء مفصليًا.

بدؤوا بالمطالبة بتشكيل وفد لزيارة رئيس الدولة، في التحقيق الثاني الذي أجراه معي الأمن العسكري، في العاشر من سبتمبر ٢٠١١. كنت مترددًا في تلبية استدعائهم الهاتفي للتحقيق يومها، لكنني حسمت أمري وقررت الذهاب، بعد التهديدات الصريحة التي وجهوها:

- لدينا الوسائل للوصول إليك ونستطيع إحضار زوجتك وأطفالك متى ما أردنا ذلك، لكننا لا نريد اعتقالك، بل مناقشة بعض الأمور معك.

أخذوني إلى مكتب رئيس الفرع العسكري فور وصولي، فوجدت ما تسمى (اللجنة الأمنية) مجتمعة، بما فيها محافظ الحسكة ومدير منطقة قامشلي. تعامل العميد رئيس الفرع معي، وكأنني شخصٌ ضال، تأثّر بدعايات مغرضة وتعرض لغسيل دماغ، قال لي ناصحًا، بلهجة احترام تختلف عما هو معروف عنه:

- يا ابن أخي، أريد أن أحدثك عن أمر وأتمنى ألا تفهمني خطأً، وهو أن معظم القيادات الكُرديّة تأتي إلينا قبل إصدار بياناتها، وهذا ليس معناه التقليل من قدرهم أو القول بأنهم عملاء، معاذ الله، ولكن أمن البلد مسؤوليتنا جميعنا، لذلك لا تتأثر كثيرًا إذا قرأت بيانًا حزبيًا، مهما كان سقفه مرتفعًا.

- هل تقصد بأن عليّ أنا أيضًا، أن آتي إليكم قبل أن أقول شيئًا؟

- لا، الموضوع ليس كذلك، لكن الوضع اليوم أكبر منكم في التنسيقيات،

ومنك أنت مسؤولها الأول.

- صحيح أنني أحضر جميع المظاهرات، لكنني لست في التنسيقيات ولست مسؤولها.

تجاهل العميد كلامي وتابع، يلعب دور كبير الأسرة، الحريص على لم شملها:

- بدلًا من جعجعتكم الفارغة في الشوارع، من دون أن تجدوا من يستمع إليكم، ستذهبون أنت وتسعة أشخاص في وفد برئاستك إلى رأس الهرم، ستأخذكم طائرة خاصة من هنا وتستقبلكم سيارات القصر الجمهوري في الشام، فتبقون ليومين في الأوتيل معززين مكرمين، ثم يأخذونكم إلى اللقاء مع الرئيس بوجود وسائل الإعلام، فتعرضون عليه كل مشاكلكم، واحد، إثنين، ثلاثة، عشرة...، سيقال عندها بأن الشبان الكُرد وتنسيقياتهم، جاؤوا للبحث عن حل للوضع في سوريا، وإذا لم يسمعوكم، أعدك بأن أكون أول المنشقين.

حاولت أن أتنصل من المسؤولية، التي يصر العميد على إلصاقها بي:

- لا أعلم لماذا تتحدث معي في مثل هذا الموضوع، الذي لا أستطيع اتخاذ قرار بشأنه، لأنني بكل بساطة لست في التنسيقيات، وحسب علمي غادر جميع مسؤوليها إلى تركيا، وأعتقد بأنهم يديرونها من هناك، لذلك لا أعرف مع من سأتحدث ومن يمكن أن يستمع إلي، وماذا يمكنني أن أقول للسيد الرئيس إذا ذهبت إليه.

- نحنُ نراقب المظاهرات، وأنت الذي تسيّر الشارع الكُردي كله.

وجدت بأن متابعة الإنكار لم تعد مجدية، لذلك طرحت فكرةً للخروج من النفق، ومغادرة المكان بسلام:

- حسنًا، سأخبر كل من أعرفه بهذه الرسالة بشكل شخصي، وقد يوصلها أحدهم إلى أحد معارفه من أعضاء التنسيقيات.

غادرت الفرع العسكري على هذا الأساس، وتابع الفرع الجوي موضوع زيارة رئيس الدولة في الاستدعاء التالي، فطلبت من رئيسه العقيد حسين، مهلة ثلاثة أسابيع لإبلاغ الشبان به، وبأنني قد أستطيع ذلك، نظرًا لشبكة العلاقات التي امتلكها، لامتلاكي محل تجاري، فوافق، بينما كنت أخطط لاستغلال المهلة، لمغادرة قامشلي خفيةً إلى عفرين، لكن الضابط لم يلتزم بمهلته، اعتقلني بعد مرور أسبوع، قبل ساعات من مغادرتي للمدينة.

على الرغم من إبلاغي بضرورة تسليم الاعترافات، فور الانتهاء من كتابتها، إلا أنني تريثت، فعدا عن تعمدي الكتابة ببطء، أردتُ أن أمنح نفسي هدنة بعدما انتهيت، لتحضير نفسي لما سيأتي، والذي أتوقعه أشد وطأةً، نظرًا لانحدار الأوضاع ساعة بعد أُخرى، بحيث بتُّ شبه متيقن، بأنني لن أخرج حيًّا من هذا المكان. سألني العسكري، بعدما لاحظ توقفي:

- خلّصت؟

- نعم سيدي.

سارع إلى أخذ القلم والأوراق، وطلب مني الاستمرار في إبقاء رأسي منخفضًا، توجه إلى مكتب المحقق وعاد سريعًا، طمّش عينيّ وقيّد يديّ، وأعادني إلى الزنزانة. كان السؤال الأول الذي وجهه معن شربجي بعد إعادتي، يدور حول الصوت الذي صدر عني:

- بدي أسألك عن الصرخة الغريبة اللي سمعناها، بعدما أخذوك بحوالي عشر دقائق؟

- أنا اللي صرخت.

- كان صوتك قوي جدًا، شو اللي صار معك؟

- ما بعرف، ضربوني على ظهري بعصا على الأرجح، ولكن طريقة الجلوس كانت هي المشكلة، يبدو بأنهم جهزوني لهيك ضربة، بحيث يكون إلها هيك أثر.

أخبرتهم عن الأوراق التي أعطوها لي، والصفحة والنصف التي كتبتها، وذكرت لهم بعض ما كتبته، فسألني أحمد مستغربًا:

- كتبت مثل هالكلام، ورجعوك عايش؟

بدؤوا بتوزيع وجبة الطعام على الزنازين، بعد وقت قصير من إعادتي من التحقيق. فتحوا باب الزنزانة، فتوقفت عن الحديث مع أحمد، ظننتهم يريدون إدخال الوجبة بأنفسهم، لكننا تفاجأنا بوجهين متجهمين مِن دون غطاء، فأسرعنا إلى خفض رؤوسنا، خشية العقاب، لم أتمكن لذلك من حفظ ملامحهما، ومسح الخوف سريعًا، ما علق بذاكرتي منها.

نادى أحدهما على اسمي، فتقدمت خافض الرأس، لم يكن انتهى من وضع الطمّاشة على عينيّ بعد، عندما أمسك الآخر برأسي وضربه بقوة بباب الزنزانة، وكأنَّ له ثأرًا شخصيًا معي، فصدر صوت مرتفع جدًا، غير ذلك الناجم عن ارتطام رأسي بالباب، كان لكسر أحد أسنان فكّي العلوي.

بعد قيد يديّ بالحديد خلف ظهري، جرّني أحد العنصرين من شعري وتبعنا الآخر، أخذ يضربني بعصا رفيعة أسماها (الأخضر الإبراهيمي)، قال بأنه يريدني أن أتعرف عليها. يبدو بأنهم منحوها ذلك الاسم، تيمنًا باسم مبعوث الأمم المتحدة إلى سوريا في ذلك الوقت، الأخضر الإبراهيمي. كنت أشعر بألم لا يطاق من لسعات العصا، التي استمرت بالنيل مني على الدرج، وزادت من مخاوف السقوط، إلى أن وصلنا إلى الغرفة التي جرى تعذيبي فيها قبل قليل. شعرت بحاسة الضحية، بوجود قطيع مفترس بانتظاري.

كان أخذي إلى التحقيق بعد دقائق قليلة من إعادتي منه، وعدم اتباع الإجراءات المعتادة، التي تبدأ بجرس الهاتف والمنادة على الاسم، بل فتح الباب فجأةً من دون مقدمات، وقيد يديّ بالحديد هذه المرة بدلًا من البلاستيك مثل المرة الماضية، بالإضافة إلى البدء بضربي داخل الزنزانة، إشارةً إلى أنّ شيئًا خطيرًا بانتظاري، لا يريدون للإجراءات تأخيره.

في اللحظة التي انتهيت فيها من اتخاذ وضعية السجود، بدأت بتلقي الضربات من جميع الجهات، بالأيدي والأرجل وأدوات أُخرى، راحت تنهشني مثل أنياب ذئاب. لم يتوقف الضرب إلا بعد وقت طويل جدًّا، وكان ذلك عندما استقر ظهري على الأرض، وضعوا حينها رجليّ بين عصاتين، يربط كل طرفين منهما حبل. قاموا بتدوير أعلاهما على شكل مروحة، حتى ضاق الحبلان وثبّتا قدميّ، ثم رفعوهما بحيث أصبح اتجاههما نحو الأعلى. تكلم صاحب الصوت الأجش عندها:

- اعملوا له مئة سيليكون.

تعتبر عصا الأخضر الإبراهيمي مقارنةً مع السيليكون، وعلى الرغم من تسببها بألم لا يطاق، رحمةً من مخترعها واستخدام الجلّاد لها، كرمًا كبيرًا منه. رأيت السيليكون من تحت الطمّاشة، بطولها الذي يزيد عن المتر وشكلها الرفيع ولونها الرصاصي، يبدو بأنها مصنوعة من مادة بلاستيكية ثقيلة ولكن مرنة، كانت ترتفع فتتقوس من سرعة رفعها، وتتقوس مجددًا عندما تنزل وتصطدم بالقدمين، ثم تعود إلى وضعها السابق مستقيمةً، وكأنها لم تفعل شيئًا. عندما تلقيت أول ضربة سيليكون، شعرت بأنها اخترقت جلد القدمين بسهولة، وانغرست فيهما عميقًا مثل سيف ثلم، ثم أخذت معها لحمًا ودمًا عندما ارتفعت، لا بل أخرجت قدميّ من جسمي.

عصا السيليكون تنزل بإصرار على قدميّ، فترسل موجات ألم مرتفعة إلى قلبي، تعبر منه إلى رأسي، فتكاد أن تفتت دماغي. لا زلت متماسكًا، مصممًا على عدم إعلان الهزيمة، لكنني حريصٌ أيضًا على عدم إظهار التحدي. تذكرت كلام معن شريجي، فتركت العنان للألم، يعبر عن نفسه رغمًا عني:

- حاول ما تستفز سهيل الحسن! عندك إرادة قوية وأنا متأكد بأنك ما راح تعترف باللي بده ياه منك، لكن لا تتحداه أو تستهزئ بوسائل التعذيب، لأنه راح يصعّد ضدك، وإذا ما تمكّن منك، فراح يدخلك إلى تابوت القبو.

ضربات السيليكون تتوالى على قدميّ، اللتين تخدرتا تمامًا، بحيث لم أعد أشعر بهما. أستطيع القول، بأنه لم يعد هناك ألم، مقارنة بذلك المرعب الذي سببته الضربات الأولى، لكن ذلك ليس كل شيء، فثمة من يقوم بأدوار أُخرى في عملية افتراسي، من ركل رأسي أو هرس يديّ بالبوط أو الدوس عليّ، من دون أن يتوقف شتمي والبصق عليّ، ولعل أبسط ما أتعرض له، هو سكب المياه عليّ، وكأنهم يريدون من كل ذلك، طحني وعجني لإعادة تشكيلي.

أدت حركة ما من الجلّادَين الممسكَين بقدميّ، أو ربما ارتخاء الحبل المثبّت لهما، إلى خروجهما قليلًا عن مجرى السيليكون، فأصابت الضربة الكاحل الخارجي لقدمي اليسرى، وفتحت جلده عميقًا، إن لم أكن مخطئًا، فبدأت الدماء الساخنة تسيل، ليعيدني الألم بذلك إلى المربع الأول.

انتهوا من المئة سيليكون وسارعوا إلى خلع بنطالي، فبقيت بالقميص والسروال الداخلي، ممددًا على ظهري، مرعوبًا من فكرة ما قد يفعلونه بي. جرّني اثنان من يديّ إلى غرفةٍ أُخرى، فأصدر أحدهم أمرًا جديدًا هناك، زادني رعبًا وأنا أُفكّر باحتمال صلته بخلع البنطال:

- حطوه على البلانكو!

- تعرفتُ على الأخضر الإبراهيمي والسيليكون اليوم، ولكن ما هو البلانكو، الذي لم يحدثني عنه أحد من قبل؟

غيّرت الإجابة التي لم تتأخر كثيرًا، من مجرى تفكيري، وجعلتني أتنفس الصعداء، فقد حشروا يديّ حتى المعصمين، في طوق حديدي مزدوج خلف ظهري، موصولين بسلسلة حديدية تمر عبر بكرة كما يبدو، وبدؤوا برفعي عن الأرض، أتوقع باستخدام رافعة أو شيء مشابه، جرّت السلسلة عبر البكرة، فانقلبت يداي وأصبحتا باتجاه الخارج، ثم في الأعلى. لم يتوقفوا عن رفعي، إلا عندما أصبحت رؤوس أصابع قدمّي بملامسة الأرض، يبدو بأنني أصبحت حينها في وضعية بلانكو، فقد جاء صوت من أصدر الأمر به:

- راح تبقونه على هالحالة عشرة أيام، ما بتقدموله خلالها لا مي ولا أكل ولا شيء، بس بتعطوه مئة فلقة في مواعيد وجبات الأكل الثلاث.

فكّرت وأنا أسمع ذلك، وأشعر بوجود آخرين معلقين بالوضعية نفسها:

- اللعنة! أنا لن أتحمل هذه الوضعية لحظةً واحدة، فكيف بعشرة أيام؟

بعد قليلٍ من مغادرة مجموعة الجلّادين، وعندما بدأ البلانكو بالنيل مني، والتسبب بألم لا يطاق، خاصةً في المنطقة الواقعة بين الكتفين، مترافق مع شعور بأن رجليّ ستنفصلان عن حوضي، جاء أحدهم وطلب مني فتح فمي على وسعه، وعندما فعلت، دفع إليه بكميةً من الحصى الخشنة، بحجم قبضة اليد، شعرت بملوحتها لحظة ملامسة لساني لها، ثم أطبق فمي ووجه إليه لطمةً قبل أن يغادر، فبلعت الحصى، التي لم تكن سوى ملح خشن.

تحوّل جوفي إلى منجم ملح وفمي إلى بحر هائج، يبحث لنفسه عن شاطئ، لإلقاء زَبَده عليه. أشعر بالعطش الشديد، لم يعُد الأمر يُحتمل مع مرور الوقت، بحيث لم أعد أُفكر بشيء سوى الماء، لذلك قررت المناداة لطلبه،

مهما كان الثمن، إلا أنّ حضور أحدهم، قطع عليّ ذلك، فقد همس في أذني، بصوت لا يخلو من التعاطف:

- راح أسقيك مي، بس المهم ما حدا يشوف أو يسمع شيء.

شعرت بالامتنان تجاه انسان، ظهر أخيرًا في هذه الغابة المليئة بالوحوش، وتعاطف معي إلى حد المغامرة بكسر الأوامر، من أجل مساعدتي.

رفع الرجل وعاءً بلاستيكيًا إلى فمي، فشربت الماء مثل جملٍ ظمآن، قطع للتو صحراء شاسعة. امتلأ بطني، لكنني لم أرتوِ ورجوت المزيد، إلا أنه أبعد الوعاء وفاجأني بإنزال سروالي الداخلي، ثم ربط مقدمة قضيبي بشيءٍ قاسي على شكل حلقة، ضاقت فضغطت عليه بشدة، ثم سمعت صوت إغلاق قفل. رفع الرجل عندها السروال وأعاده إلى وضعه السابق، ثم ذهب.

تراجع ما تبقى من شعور بالعطش، وبدأت الحاجة إلى التبول بالتقدم عليه، إلى أن حلّت مكانه. صبرت، ضغطت على نفسي كثيرًا، لكنني فقدت السيطرة على الوضع بعد حوالي ساعة، فأخذت أنادي للسماح لي بالتبول. توسلت، دخلت في نوبة بكاء مثل طفل، صرخت لا إراديًا مثل كُردي الممر، وقذفتُ الكلمات حممًا، من دون مجيب.

هل أراد كُردي الممر التبول، عندما كان يصرخ، وهل كان سكوته فيما بعد معناه، أنهم مكّنوه من ذلك؟ لكن ماذا عن حسين عيسو في ذلك اليوم المشؤوم، عندما أنزلوه من الحافلة للتبول، لكنهم أشبعوه ضربًا، فنصحني بعدم طلب ذلك منهم، كيلا ينالني ما ناله؟ كيف تغلب على كل هذا الألم الرهيب، بحيث لم أسمع له شكوى طوال الطريق؟

يا له من عقلٍ جهنمي، ذلك الذي تفتق عن اختراع سلاح البول، الرخيص جدًا، ولكن المدمر مثل تسونامي. تحوّل القسم السفلي من جسمي إلى خزان

ممتلئ بالسوائل، لا يزال يتلقى المزيد، حتى أصبح على وشك الانفجار. نسيت كل الآلام ولم أعد أشعر بها، طويت صفحات التعذيب الوحشي والشتائم، أصبحت مع البلانكو والسيليكون والأخضر الإبراهيمي لا شيء، مقارنة بآلام المثانة، التي جعلتني أشعر بأن لا شيء في العالم، سواها.

تحولت إلى مخلوق مرعب أو حائط متشقق، بدأت السوائل تخرج من أنفي وفمي وعينيّ وأذنيّ، وتُخرج روحي معها. دخلت في مرحلة من الإغماءات المتقطعة، لعلها أفضل ما جرى لي في ذلك الوضع، فقد كانت بمثابة تخدير كامل، لم أشعر خلاله بشيء، ما جعلني أتمنى استمرارها إلى الأبد.

على الرغم من أنني على حافة الموت، في وضعية بلانكو وأُعاني من احتباس السوائل، بعد أن أغلقوا مخرجها الوحيد، جاؤوا مساءً ورفعوا قدميّ من منطقة الركبة، ضربوني مئة فلقة وجبة عشاء، حسب الخطة العشرية الموضوعة، ثم مضوا من دون أن يسمحوا لي بالتبول.

سأفتح حسابي على الفيسبوك بعد سبع سنوات، وأستعرض رسائل البريد العشوائي، التي ترد عادةً من أشخاص ليسوا على لائحة أصدقاء صاحب الحساب، أو ليس لهم تواصل سابق معه، وتصل إلى ذلك القسم، لأنها قد تكون غير مرغوب فيها.

سألاحظ بأن شخصًا حاول الاتصال معي عدة مرات، ثم أرسل رسالة صوتية، سأستمع إليها، فأجده يطلب التحدث معي للضرورة. سأتصل به على الماسنجر بعد كل ذلك الوقت، وأسأله عمّن يكون وسبب اتصاله معي قبل سبع سنوات، فيعلمني بأنه كان عسكريًا في ذلك الوقت، خدم في الجيش بصفة ممرض في مشفى ٦٠١ العسكري، وكان قريبًا جدًا مني في نهاية سبتمبر أو بداية أكتوبر ٢٠١١، بل كاد يلتقي بي في تلك الظروف الصعبة.

طلبت قيادة محدثي منه في إحدى ليالي تلك الفترة، التوجه مع عدد من زملائه الممرضين بسيارة إسعاف، إلى فرع المخابرات الجوية بمطار المزة، بسبب تدهور وضع سبعة معتقلين، واحتمال نقلهم إلى المشفى.

انتظر الممرض مع زملائه في عربة الإسعاف خارج السجن، الأمر بالدخول لنقل المساجين الذين زودوهم بأسمائهم، فلفت اسمي انتباهه وعرف من خلاله بأنني كُردي، فتساءل عما قد يكونوا فعلوه بي في ذلك المكان المرعب، الذي لا تذهب إليه سيارة الإسعاف عادةً، إلا بعد فوات الأوان، وبلغ به التأثر حد البكاء، لكنه بذل جهدًا كيلا يلاحظ أحد عليه ذلك، وقد انشغل كل واحد من زملائه بشأنه، ربما مثله، باسم معتقل يعرفونه أو قريب منهم.

سيبلغني محدثي في الختام، بأن قيادته طلبت بعد ساعات من الانتظار، العودة إلى المشفى، من دون نقل أحد من السجن.

سمعت صوت ارتطام أحذية بالأرض، تقترب مني في الصباح الباكر من اليوم التالي، توقفت أمامي، ثم سألني أحدهم عن اسمي. لم أستطع الرد، لم تعد لدي قدرة على الكلام، جفَّ فمي وأصبح لساني خرقة بالية. أعادوا سؤالهم فبقيت صامتًا، تحدث آخر، على الأرجح الطبيب الذي كان ناداني كورمانجو، قال لهم:

- فكّوه فورًا، وضعه الصحي خطير جدًا، ومن المحتمل أنه ما يبقى عايش لساعة.

ردّ عليه أحدهم، يبدو بأنه الضابط:

- هيك رأيك؟

رد الطبيب من دون تردد:

- نعم، ولا تتعاملوا معه بمثل هذه الأساليب، وضعه ما يسمح.

دمدم الضابط مغتاظًا:

- ابن الحرام، بده يعمل حاله بديل عن الأحزاب الكُرديّة.

ثم رفع صوته، متوجهًا إلى آخرين:

- فكّوه، وفكّوا له قفل العضو الذكري.

فكّوا يديّ عن البلانكو، فسقطتُ على الأرض مثل جثة هامدة، انكسر القفل الموضوع على القضيب، ربما بسبب الارتطام بالأرض أو تعرضه لضغط كبير، فانفتحت قناة البول أخيرًا. سمعت الطبيب، شعرت به الأقرب إلي، تخيلته ملاكًا فَرَدَ جناحيه إلى جانبيه، في محاولة لمنعهم من التقدم نحوي:

- أتركوه، خلوه يريّح.

كنت أبكي بصمت، بينما تمتص الطمّاشة دموعي الحارة، التي لا يعلم عنها أحد، وأفكر بالجريمة التي يرتكبها بحقي نظام حكم، يستحيل على عقلٍ الإحاطة بطبيعته الساديّة.

بقيتُ ملقىً على الأرض من دون حراك، صبوا عليّ الماء، ثم جروني إلى غرفة التحقيق، التي لا تزال المياه تغطي أرضيتها. قال أحدهم:

- هذه كانت بروفة وما راح نكمل معك اليوم، هلّا ريّح حالك والمسا عندنا كلام ثاني.

أمسك عنصران بيديّ ورجليّ لحملي بينهما، لكن المتحدث نفسه أوقفهما:

- رجعوه مثلما جئتم به على رجليه، ولا تخلوه يموت.

طلبوا مني رفع رجليّ، وعندما وجدوني عاجزًا عن ذلك، انقض عليهما أحدهم، ولفّ ذراعيه حولهما ثم رفعهما، فبدأ آخر بضرب أسفل القدمين بالأخضر الإبراهيمي. ساعدني الخدر في كامل جسمي، على عدم الشعور بأيّ ألم، من حوالي عشرين ضربة سريعة متلاحقة تلقيتها، وساعدني الأخضر

الإبراهيمي على استعادة كامل وعيي وقدرتي على الوقوف. قال المسؤول للعناصر عندها:

- إذا ما قدر يمشي، خذوه على بطانية.

لم أرد أخذي محمولًا على بطانية، كيلا يراني رفاقي بذلك المنظر، لأن من في الزنزانة، وبغض النظر عن درجة قربهم منك، وفيما إذا كنت على وفاق معهم من عدمه، يتحولون مع مرور الوقت إلى أُسرة لك، بحيث أن السوء الذي يصيبك، وبالتالي شكلك الذي تظهر عليه، يسبب لهم الألم ويؤثر على معنوياتهم.

بقيتُ واقفًا وأظهرتُ نفسي متماسكًا، فأخرجوني على قدميّ. أخذوا يضربونني، صفعًا ولكمًا وركلًا، خلال نزولنا على الدرج، فسقطت بعد أن قطعنا نصفه، على مسافة طابقٍ واحد تحت الأرض. يبدو بأن هذه هي وسيلتهم، لإظهار المرء ضعيفًا وتحطيم رفاقه، فقد أحضروا بطانية ووضعوني عليها، ثم حملوني إلى الزنزانة وألقوني داخلها، مثلما فعلوا مع نصيب من قبل.

بقيت ملقىً على الأرض، أغلقت عينيّ وغطيتهما بيديّ، مثل طفلٍ ارتكب حماقةً، يخجل منها، ولا يريد رؤية مظاهر التقريع على وجوه الكبار. حرّك رفاقي رجليّ ومسدوا على جسمي، ففتحت عينيّ أخيرًا، لأجدهم يحيطون بي كالسوار وينظرون إليّ، وكأنهم يرونني لأول مرة. شاركتهم النظر إلى جسمي، فوجدت نفسي شخصًا آخر، متورمًا، مزرقًا ومُدمى، تضخمت قدمايّ، ولا زال كاحلي الأيسر ينزف. صاح معن شريجي يطلب المساعدة:

- سيدي، سيدي، عندنا واحد ينزف من رجله.

ألقوا شاشًا مع دواءٍ غامق من كوّة الباب، فسارع معن إلى إحضاره بعد إغلاق الكوّة، وبدأ بمداواة جراحي، قال من دون أن يتوقف عن ذلك، عندما

أخبرت رفاقي عن بعض ما جرى لي:

- أتوقع أن التحقيق معك انتهى يا شبال، فأساليب التعذيب اللي تعرضت لها وخاصةً البلانكو، ما جربوها كلها علينا، ويمكن تكون ردهم على الأقوال اللي كتبتها.

- إذا انتهى التحقيق معي فعلًا، فأنا طلعت منتصر.

وفّر رفاقي مكانًا كافيًا لي، فنمت على الرغم من الآلام المبرحة المتنقلة مثل نيران، تنفخ فيها رياح عاتية، لا تتوقف عن تغيير اتجاهها. استيقظت بعد حوالي أربع ساعات، وكان موعد الغداء، أشعرُ بجوع شديد وشهية مفتوحة، طلب مني معن شريجي أن آكل كثيرًا، فأكلت وكنت أنوي ذلكَ على العشاء أيضًا، إلا أن ما منعني، هو ما حصل خلال توزيعه علينا، فقد رنّ جرس الهاتف ونادوا على اسمي مجددًا، الأمر الذي لم أكن أتوقعه، إذ لم يمضِ وقتٌ طويل، على عودتي من جلسة تعذيب رهيبة.

دخل عنصران إلى الزنزانة، لم يتعاملا معي بعنف هذه المرة، بل سألاني عما إذا كنت أستطيع المشي، رددت بالإيجاب، فقاما بتطميش عينيّ وربط يديّ بقيد بلاستيكي. أصبحت لدي خبرة في القيود، فالبلاستيكي معناه أن التعذيب سيكون شديدًا، ولكنه ليس مثل القيد الحديدي، الذي يشكل مقدمة لتعذيب وحشي.

أدخلوني إلى غرفة التحقيق وضغطوا عليّ نحو الأسفل، يريدونني بوضعية السجود، نفذت ثم وضعت يديّ بين الطمّاشة والأرض. سمعت صوتًا جديدًا، مختلفًا عن الأصوات التي سمعتها من قبل:

- راح نتناقش مع بعض بكل هدوء واحترام، بدون ما أزعجك أو تزعجني، أسألك، بتجاوب على قد السؤال، غير هيك راح تجبرني استعين بالبلانكو،

وإذا استعملته هالمرة معك، فراح تبقى معلق عليه أسبوع كامل.

يشبه وجود المعتَقل في هذا المكان، وما يحدث له على أيدي جلّادين محترفين، يتناوبون على التحقيق معه وتعذيبه، بحيث يطّلع كل واحد منهم على وضعه وما وصل إليه من سبقه، قبل أن يبدأ بدوره جلسةً معه، وجود المرضى في المشفى، حيث لكل مريض ملف، يدوّن عليه كل طبيب مرّ به تشخيصه لحالته، ما فعله له واحتياجاته، فيقرأ الطبيب الذي يأتي بعده التقرير، ويتمكن من معرفة الحالة بسهولة، ومتابعة العلاج من حيث انتهى زميله.

أكمل الصوت الجديد، وقد شعرت من الصمت المحيط بي، بأننا لوحدنا:

- أي شبال، قل لي مين هو مارسيل التمو؟

- ما بعرفه والله، سيدي.

- كيف ما تعرفه، وهو باعثلك لك رسائل بالموبايل؟

- قصدي حاليًا، ما عدت أعرف مين هو، ولكن الاسم مو غريب عني.

- يبدو بأنك خرفت بكير عندنا، أنا راح أساعدك وأنشط ذاكرتك، هو ابن مشعل التمو.

- نعم سيدي، يجوز يكون هو.

- ليش بعث لك رسالتين، يطلب منك مشاهدة قناة الحرة وقناة بي بي سي؟

- تذكرت، وقتها كان موعد مقابلات للأستاذ مشعل...

قاطعني غاضبًا:

- أستاذ مشعل؟

لم يكد ينهي استفساره، حتى شعرت بكوع أحدهم ينغرس في ظهري، مثلما يفعل أبطال المصارعة الحرة ببعضهم، عندما يلقي أحدهم بنفسه من أعلى

حبال الحلبة، على خصمه الممدد على أرضها من شدة الإعياء، ثم شعرت بعدد لا يقل عن أربعة عناصر، يتهالون عليّ بالضرب بالأيدي والأقدام، وراحوا يركلونني مثل كرة ويدحرجونني ويتقاذفونني بينهم، يدوسون على رأسي ويصعدون فوق جسمي، مع التركيز على قيد يديّ. طلب منهم المحقق بعد وقت طويل، التوقف عن الضرب وإعادتي إلى وضعية السجود، ثم تابع أسئلته:

- وقفوا شباب. وشو بتعرف عن شفان يونس؟
- ما بعرفه سيدي، ولكنني أتوقعه اسم مستعار.
- لا، الاسم حقيقي.
- بشرفي ما بعرف شفان.
- ولاك، أنت عندك شرف ولاك؟

دخل الجلّادين في جولة ضرب ثانية، ولكن لمدة أقصر هذه المرة. أصبح من الواضح الآن، بأن المحقق هو من يعطيهم الإشارة ببدء بالضرب ووقفه، فقررت المغامرة بالتدخل، في محاولة لتغيير مسار ما يجري:

- سيدي، تسمح لي أسأل سؤال؟
- أنت هون لتجاوب مو لتسأل، وهذا الكلام لوحده راح يكلفك كثير، ولكن باعتبار إلك وضع خاص، كونك سياسي ومو مثل المسلحين الكلاب، فاسأل.
- بما أنكم ما بتثقوا بكلامي وما بتصدقوا أي جواب على أسئلتكم، فليش تحققون معي؟
- أنت سألت سؤال هام، وجوابه ببساطة هو أني عم أحاول أساعدك وأخليك ترجع لبيتك وأولادك، ولكنك ما بتساعدنا ولا تساعد حالك، فأجوبتك بعيدة دائمًا عن الأسئلة.
- بشرفي ما أعرف شفان يونس.

- عدت وحلفت بشرفك!

لم يضربوني هذه المرة، وانتقل المحقق إلى موضوع آخر:

- مين أنت، لتصدر تنويه برشيد الملا وديار ديراني الموجودين بتركيا، وتقول بأنهم ما بيمثلوا التنسيقيات؟

صدمني سؤاله وأحزنني بشدة، فالتنويه ذي الثلاثة أسطر، صدر عن دائرة ضيقة من الأشخاص، لا يزيدون عن الثلاثة، أنا أحدهم، وأثق بأحدهما ثقتي بنفسي. جرحتني بعمق طعنة من شخص، ظننته موضع ثقة، فجعلته شريكًا في السر ومؤتمنًا عليه. شعرت في تلك اللحظة، بأنهم لو ألقوني من قمة جبل شاهق، لما شعرت بألم، مثل هذا الذي أشعر به الآن.

بينما لا زلت تحت وقع صدمة ما سمعته، فكّرت بأن تكون إجابتي على سؤال المحقق، بعيدةً عن تخوين من أصدر التنويه معي. استفسرت، في محاولة للحصول على بعض الوقت، لاستعادة توازني وبناء ردي عليه:

- ما فهمت سيدي، ممكن تعيد كلامك؟

أعاد سؤاله، فحاولت أن أظهر نفسي مستخفًا بالمعلومة، يبدو بأن مشاعري وجدت لها أثرًا على فمي، فسأل باستغراب:

- عم تضحك؟

- سيدي، أنا ما أعرف شيء عن التنويه وما لي أيّ علاقة به، ولكن لو افترضنا أني أنا اللي أصدرته، فهو موجه ضد أشخاص موجودين في تركيا حسب قولك، هالشيء مو لصالحكم؟ ما بيأكدلك بأني ضد التدخل الخارجي في البلاد؟

استغربت إجابتي المتقنة، على الرغم من وجودي في وضع مزرٍ للغاية، إلا أن ذلك لم يعد صحيحًا بعد ذلك، بالنسبة للسؤال عن التسجيل الذي

هددت فيه نظام الحكم بمفاجأة، فقد عوقبت عليه بالضرب المبرح حوالي نصف ساعة، مع إبهامي بقطع أصابعي وخلع سني بالكمّاشة. قال المحقق بعد أن توقفوا، أو بعد أن أمرهم بالتوقف:

- راح أسألك آخر سؤال، إجابتك عليه راح تحسم مصيرك ووضعك في الأيام القادمة، فإما راح ترجع معزز مكرم إلى زنزانتك أو تودع من هون أطفالك للأبد.

- تفضل سيدي.

- أوعدني أنك تكون صادق معي.

حلفت له بأنني سأجيبه بصدق، فقال:

- اعطني أسماء اللي كانوا معك في المظاهرات.

لم يفاجئني السؤال، فهو مثل أسئلة امتحانات السنوات الدراسية السابقة، التي تتكرر كل عام، على الطلاب الجدد.

أبلغني رفاقي، بأن المحقق طلب منهم أسماء عشرة متظاهرين يعرفونهم، وأعلمني معن شريجي، بأن ما فعله عند طرح هذا السؤال عليه، ونصح الجميع به، هو إعطاء أسماء عشرة من عملاء نظام الحكم، بدلًا من أسماء المتظاهرين، حيث سيتخلص المرء بذلك من سؤالهم بطريقة عادلة، ويكون بمثل هذه الإجابة مرتاح الضمير، فبدأت بتحضير إجابتي، لكن المشكلة التي واجهتني كانت، عدم معرفتي بكل ذلك العدد من العملاء، فكلّ الذين أعرفهم، اثنان فقط.

جهزت عشرة أسماء وحفظتها، انتقيتها مراعيًا التنوع، بطريقة تجعل اجابتي قابلة للتصديق، وخططت لتقديمها إذا ما سألت عن أسماء المتظاهرين. جعلت على رأس القائمة، اسمي عميليهم حمو وآران، يليهما اسما

ناشطين من المتظاهرين، من الذين لا يُخفى على أحد مشاهدتهم في المظاهرات، لكنهما غادرا البلاد إلى تركيا قبل اعتقالي، وأصبحا في أمان هناك، أضفت إليها أسماء وهمية، لكنها مفضلة عندي ولا أنساها، وقررت في حال وجدت نفسي متعثرًا، لا أستطيع إكمال قائمتي، إضافة اسمي مقترنًا باسمي ولديَ الإثنين. استمريت في التدرب على الأسماء، خلال صعود الدرج، باتجاه هذا المكان.

لم يحدد المحقق، عدد المتظاهرين المطلوب مني تقديم أسمائهم له، لحسن الحظ، خفف ذلك العبء عني، فذكرت له من دون تردد، إسمي العميلَين بالإضافة إلى الناشطَين اللذين هاجرا إلى تركيا، واخترعت أسماءً أخرى وأضفتها:

- أبو ولات، أبو ألند، أبو لوند...

- شو هاد أبو فلان وأبو علان ولاك، أنت جاي تضحك علينا؟

- هيك كانت أساميهم والله، هدول اللي كانوا بارزين بالمظاهرة، أنا صادفتهم بالشارع وأكتر من هيك ما عرفت عنهم، قامشلي كبيرة وصعب معرفة كل الناس.

توقف التحقيق عند ذلك الحد، فأعادوني إلى الزنزانة.

أبلغتُ رفيقيَّ المغادرين إلى تركيا، بوشايتي بهما، في أول لقاء جمعني بهما بعد سنوات، قلتُ لهما بأنني كنت متعاونًا مع المحقق، وفعلت ذلك من دون ضغوط، فضحكا كثيرًا.

حصلت على استراحة من التعذيب في اليوم التالي، نادوا على اسمي في اليوم الذي يليه، بعد العشاء بحوالي ساعتين، عندما كنت نائمًا. فتحوا باب الزنزانة وأخرجوني بطريقة لم تكن سيئة، لكن تلقيَّ لكمةً على وجهي في الممر،

جعلني أتوقع جلسة تعذيب شديدة، إلا أن عدم تعرضي لغيرها خلال صعود الدرج، دفعني إلى مراجعة حساباتي، واعتبار اللكمة عرضيّة، تعود ربما إلى اجتهاد شخصي من الجلّاد.

أوقفوني هذه المرة ساعات طويلة أمام غرفة التحقيق، وبعدما أدخلوني، وفور انتهائي من اتخاذ وضعية السجود، سمعت صوت أحدهم:

- أنا العقيد سهيل الحسن، بتعرفني؟

- سمعان باسمك سيدي.

- وين؟

- في قامشلي.

لم أرد القول، بأنني عرفت بوجوده من رفاقي في هذا المكان، كيلا يدخلني في دوامة أسئلة أنا بغنى عنها، حول من أخبرني بذلك، وما دار بيننا من حديث عنه. سأل:

- وكيف عرفتني؟

- العقيد حسين عبدالله قال لي بأن العقيد سهيل الحسن طلبك، وإذا ما حكيت عندنا هون، فأكيد راح تحكي عنده.

سأل باهتمام، بطريقة شعرت معها بأنني في حضرة ديك، نفش ريشه للتو وانتفخ، حتى كاد ينفجر:

- هيك قال لك حسين!؟

- نعم، سيدي.

- حسين صديقي.

على الرغم من إرفاق ما قاله أخيرًا بضحكة مجلجلة، إلا أنني متأكد من أنه يكذب، فجميع ضباط وعناصر المخابرات يكرهون بعضهم ويخافون

بعض، يتجسس كل واحد منهم على الآخر لمصلحة الأعلى رتبةً، ويقوم بالوشاية به لتحطيمه وأخذ مكانه، أما الأفرع الأمنية فهي مافيات تتنافس إلى درجة التقاتل، لكن الجميع متفقون في نهاية المطاف على المعتقل وعدوانيون تجاهه، ساديون يتفننون في تعذيبه، يستخدمون أخس الوسائل للحصول على اعترافات، حتى إذا كانت صورية، لإثبات أنفسهم الأكثر ولاءً لقيادتهم.

غيّر الضابط من اتجاه الحديث:

- بدنا نحكي بصراحة، أنت عم تجيب سيرة الشرفاء وتسيء لهم.

أشار بالتأكيد إلى العميلين، اللذين قدمت اسميهما في الجلسة السابقة، بزعم أنهما متظاهرَين أعرفهما، وأكاد أجزم بأنه لم يهتم بالأسماء الأُخرى أو يقف عندها. رديت عليه:

- بصراحة سيدي، ما أعرف مين هم الشرفاء ومين هم العملاء من وجهة نظركم، لكنني بالفعل ما أعرف أكثر من هالأسماء.

- أنا راح أنهيك، إذا ما كان اليوم فالأكيد بكرة أو بعده، بس لحسن حظك ما عندي وقت اليوم، لأني عم استنى بعض الأشياء حاليًا، لكنني أوعدك أني خليك تحسد المجانين، وتتمنى ما تكون ولدت.

توجه بالحديث إلى آخرين:

- اعملوا له وجبة عشاء، ونزلوه لتحت.

حشروني في دولاب، شطرني إلى قسمين، أصبح ظهري على الأرض، بينما ظهر رأسي وقدماي من الجهة الأُخرى منه، في الأعلى، وبتُّ عاجزًا تمامًا عن الحركة. بدؤوا بضربي الفلقة، مستخدمين قطعة كاوتشوك عريضة وقاسية هذه المرة، الضرب بها مزعجٌ جدًا ويسبب ألمًا مضاعفًا، إذ تدفع كل ضربة قطعة من لحم القدمين تقابلها إلى الداخل، ثم تلتصق بها وتعيدها معها كلما

ارتفعت. خلال الفلقة، لم يتوقف أحدهم عن صب الماء عليّ، بينما داس آخر ببوطه على وجهي، واضعًا إياه على فمي مباشرةً، ليحبس بذلك الصراخ ويمنعني من التنفس، فيراكم الوجع في قلبي، حتى انتفخ صدري وكدت انفجر.

أعادوني فجرًا إلى الزنزانة، حلّ موعد الفطور بعد حوالي ساعة من ذلك. شعر معن شريجي بتأنيب الضمير، بسبب اقتراحه تقديم أسماء عملائهم، عند طلبهم أسماء متظاهرين، والذي نفذته فتعرضت للتعذيب. أخبرني رفاقي، بأن التحقيق من قبل سهيل الحسن، هو آخر مرحلة في التحقيق الذي يجري مع المعتقل عادةً.

قطعت إذًا شوطًا طويلًا في عملية أجهل مسارها، إلا أنّ توعد سهيل الحسن لي بالمزيد، جعلني أشك بوصولي إلى نهاية التحقيق. قررت على الرغم من ذلك، التوقف عن انتظار المناداة على اسمي، فشعرت ببعض الراحة، وبدأت أتناول كامل حصتي من الطعام، الذي لم أعد أقرف منه، بل أنتظر مثل الآخرين وصوله. يبدو بأن إقبال رفاقي على ما يُقدم لهم، مع عدم وجود خيارات بديلة، وحاجة جسمي إلى الطاقة، مع التخلص من التوتر على خلفية انتظار التحقيق، عوامل ساهمت في عودة الشهية.

طالتني العقوبات الجماعية التي تعرضت لها الزنزانة، ولم أسلم من الفردية منها، لمخالفة التعليمات أو عدم تنفيذها بدقة. بعد يومين من جلسة التحقيق الأخيرة، ضرب السجّان بعصاه على باب التواليت المفتوح، بداعي تأخري بضع ثوان، قلت له وأنا أخرج:

- لحظة سيدي.

- أنت خليك على طرف، عندك فلقة.

خرجت بهدوء من التواليت وغسلت يديّ، ثم وقفت بناءً على طلب الجلاّد

على طرف الممر أنتظر، حتى انتهى الجميع وأعادوهم إلى زنزاناتهم، باستثناء المعاقبين مثلي. أصدروا لنا أمرًا بالانبطاح، فارتميت على بطني ووضعت يديّ على طمّاشتي، ثم طلبوا منا رفع أرجلنا من منطقة أسفل الركبة، بحيث شكلنا مع الأرض زاوية حادة. نزلت الضربات عندها على قدميّ، من دون أن أجرؤ على تحريكهما، لأن الضربة في حال عدم وجود القدمين في مجال الاستهداف، ستصيب مكانًا آخر، وقد أصابت كاحل قدمي حسب تجربة سابقة، فكان الجرح عميقًا والألم لا يُطاق.

تعرضت لعقوبة فردية ثانية، بعد يومين من عقوبة التأخر في التواليت، سببها تزحلقي على أرض الممر المبتلة، أثناء عودتي من الحمام المقرّر مرة واحدة أسبوعيًا، وكانت هذه المرة فلقة في الدولاب. في الواقع كان الحمام لوحده عقوبة، لم تكد مياهه تلمس جسمي، حتى سارعت بالابتعاد عنها، بسبب برودتها التي تلسع الجلد وتفتح الجروح.

أصبحت أُعاني من حالة غريبة، سببها ذاكرتي. خطرت لي مناسبة، لكنني لم أستطع تذكر أسماء معظم المشاركين فيها، وكان من بينهم ابنُ عمٍ لي. لم أقلق كثيرًا في البداية، لكنني خشيت نسيان أسماء من أعرفهم، عندما تكرر الأمر مع أحداث شاركت بها أقرب المقربين لي، وأن يكون ذلك مقدمة لنسيان الأحداث نفسها، بحيث تؤدي الضغوط التي أتعرض لها إلى ضمور الذاكرة، وينتهي بي المطاف إلى فقدانها، فيصبح أمرًا بالغ السوء، إذا خرجت يومًا من هذا المكان وقابلت أحدًا أعرفه، ولم أتمكن من تذكر اسمه، سيحطمني ذلك بالتأكيد ولن يكون وقعه سهلًا عليه، إذا قلت له بأنني نسيت اسمه.

لم أخبر أحدًا عن وضع ذاكرتي، لم أسأل رفاقي للتأكد فيما إذا كانوا هم أيضًا يعانون من حالة النسيان، كيلا أتعرض للإحراج وتتغير نظرتهم إلي،

فيعتبرونني شخصًا يستحق الشفقة، سيصل به الحال إلى أن يصبح يومًا مثل كُردي الممر، فيعاملونني مثلما عاملوه في نهاية المطاف، كما أن ما منعني من سؤالهم، هو أنهم جميعهم يصلّون، وإن كان ذلك بصمت، مع ما يستوجبه ذلك من ترديد آيات قرآنية وأحاديث، قد تساعدهم في السيطرة على ذاكراتهم. طلبت من رفاقي تذكيري بالصلاة، التي كنت أؤديها عندما كنت طالبًا في المرحلة الإعدادية، فتطوع معن شربجي وعلمني التسابيح أيضًا، جلبت قراءتها بعض الراحة للنفس، وخففت الضغوط عني.

وضعت خطةً للتعامل مع الموقف وإبقاء ذاكرتي نشطة، تقوم على استعراض أسماء أقاربي جميعهم، التي دونتها في النموذج الذي طلبوا مني تعبئته في جويّة دير الزور، بالإضافة إلى أسماء أصدقائي ومعارفي وسكان الحارة والقرية وكل من مرّ في حياتي، وذلك بمعدل مرة واحدة على الأقل في اليوم، وقراءة كل تلك الأسماء وكأنها كتاب، لأُحافظ عليها وعلى ذكرياتي مع أصحابها حيةً، وقضاء وقتي في شيء مفيد، والابتعاد عن هذا المكان. إضافةً إلى ذلك، أصبحت أقوم برحلة افتراضية عبر شوارع مدينتي، أدقق في أبنيتها ومحلاتها، وجوه سكانها وباعتها، ولم أعد أكتفي بتذكير نفسي بأسماء الشخصيات والمناسبات الكُرديّة، بل أستعيد كل ما عرفته عنها وما عشته خلالها.

ثمة وسيلة للترويح عن النفس وتمضية الوقت، تساهم بالحفاظ على الذاكرة، هي رواية كل اثنين الأحداث التي عاشاها منذ طفولتهما لبعضهما، بتفاصيلها الصغيرة، ثم تغيير الشريك بعد ذلك، وهناك وسيلة أُخرى لتنشيط الذاكرة، عبر حفظ أرقام الهواتف. تبادلنا أرقام هواتفنا، وعمل كل واحد على حفظ أرقام الموجودين، للاتصال بذويهم إذا خرج قبلهم يومًا،

للإبلاغ عن مكان وجودهم. أعطيت في البداية رقم هاتف أهلي لرفاقي، لكنني توقعت نسيانه بسبب صعوبته، لذلك أعطيتهم أرقام هواتف أقاربي السهلة أيضًا. كنا نذاكر الأرقام يوميًا، وإذا نسي أحدنا رقمًا أو لم يعد متأكدًا منه، سارع إلى صاحبه وسأله عنه:

- شو كان رقمك؟

شهدنا قبل موعد إفطار الثامن من أكتوبر حدثًا استثنائيًا، من الصعب تخيّل وقوعه في ذلك المكان، وخلال تلك الظروف. دخل إلى الزنزانة رجلٌ أنيقٌ بكامل هندامه، يرتدي طقمًا أسود وربطة عنق مبهرة على قميص أسود، وفي قدميه حذاء أسود لمّيع، بحيث كان يلمع من حذائه إلى رأسه الممشط الشعر حليق الذقن، وكأنه خارجٌ للتو من صالون تجميل، وسطنا نحنُ الحفاة شبه العراة بملابسنا الممزقة، فاقدي الملامح المشوهين من التعذيب.

انجذبنا إلى الرجل الاستثنائي، مثل بُرادة حديد إلى مغناطيس يلمع، بادرنا بالسلام عليه وكأننا نراه في الحلم، لكنه ردّ متذمرًا من (رأس منخاره)، مشيحًا بوجهه عنا:

- رجاءً، ما بدي حدا يحكي معي.

عاملَنا الرجل بفوقية، فبدا التعامل معه صعبًا، حتى اللحظة التي مدد فيه رجليه، قائلًا بأنه يريد أن ينام ولا يريد لأحد أن يزعجه، فغيرنا لهجتنا معه، وقررنا استغلال الفرصة والتفاوض لإجراء مقايضة:

- انتظر، وضع الزنزانة ما بيتحمل نومك، بس راح نسمحلك تنام، إذا خبرتنا مين أنت وليش جابوك لهون وشو هي الأوضاع برات السجن.

استجاب الرجل الأنيق لطلبنا مكرهًا، وبدأ بالتعريف بنفسه:

- أنا الطبّال بفرقة المطرب نعيم الشيخ من الرستن، اعتقلونا على الحدود

اللبنانية السورية، على طريق رجعتنا من حفلة غنائية بلبنان، وأتوقع السبب تقرير كاذب للمخابرات، كتبه حدا عن اللي صار بالحفلة.
كان من بين الحضور بحفلتنا ضابط سوري، طلب من نعيم توجيه التحيات لرئيس الدولة، فنفذ له طلبه من دون اعتراض، تابع الضابط على المنوال نفسه من دون استراحة، فخاف نعيم وصار شغله توجيه التحيات للرئيس بدل الغناء، يعني متل الهتيف تبع المسيرات، بين الكلمة والكلمة تحية للرئيس، ولما تعب وشاف الحفلة راح تخرب، ما عاد عنده صبر وقال للضابط: بدي غني، وما عاد حي الرئيس. ختم الطبّال كلامه بالقول:
- أنا ماني إرهابي متلكم، مشان هيك ما راح طوّل معكم بالسجّن.

كما توقع، غادر الطبّال الأنيق الزنزانة في اليوم التالي، من دون أن يجيب على أسئلتنا كلها. أخبرني معن شربجي بعد ذهابه، بأن الحرس فتح كوة باب الزنزانة يومًا، بعد أن رنّ جرس هاتف الممر، ونادى على اسم الممثل المعروف خالد تاجا، فردوا على المنادي، وهم ينظرون إلى بعضهم البعض باستغراب، بأن صاحب الاسم غير موجود معهم، لكنهم تأكدوا فيما بعد، بأن خالد تاجا كان محتجزًا في الزنزانة المجاورة.

كنت نائمًا بعمق، في ليلة السادس عشر من أكتوبر، عندما وجدت نفسي جالسًا في البيت، مع جدتي وخالتي الصغرى وخالي الذي يعيش خارج البلاد. كانوا ثلاثتهم يقولون لي، بأنني سأتجه إلى الخارج. رويت الحلم لمعن شربجي، فقال بأنه يتوقع، حسب معرفته الجيدة بتفسير الأحلام، بأن يكون خروجي من هذا المكان، بات وشيكًا.

بعد مرور ساعات قليلة على تفسير الحلم، وكان الوقت بين فترتي الإفطار والغداء، سمعنا صوت ارتطام السلسلة الحديدية بأرضية الممر، ثم رأيناها

عبر الشبك أسفل الباب. إحضار السلسلة بداية طقس أصبح مؤخرًا يوميًا، خطوته التالية هي إخراج معتقلين من الزنزانات وربطهم بها، ونقلهم في نهاية المطاف. لم أشهد نقل أحد من الزنزانة منذ وصولي، باستثناء الطبّال الأنيق، فبقي عددنا على حاله.

قال معن، بينما ينظر الجميع إلى السلسلة في صمت، مثلما اعتدنا عليه:

- السلسلة طويلة اليوم، الظاهر راح يطالعوا كثيرين، ويمكن تكون إلنا حصة منهم.

فتحوا كوة الباب في الأعلى، فسارعنا إلى الوقوف وتوجهنا نحو الحائط. شعرت ببعض الراحة مع فتح الباب، بسبب توقع حصول تغيير في هذا المكان، بصرف النظر عما إذا كنت جزءًا منه. بدؤوا بالمناداة على الأسماء، وطلبوا ممن يسمع اسمه، الرجوع نحو الخلف:

- ارجع لورا، أيوه، أيوه، بيكفي!

كلما انتهوا من إخراج واحد من الزنزانة، نادوا على آخر. انشغلت بعدّ الأسماء، حتى وصلت إلى الثاني عشر، الذي كان المفاجأة: اسمي. رجعت خطوات نحو الخلف، وتوقفت عندما طلبوا مني ذلك، ربطوا يديّ بقيد بلاستيكي وطمّشوا عينيّ، ثم أخرجوني بسرعة وإتقان إلى الممر. توقفوا عن المنادة على الأسماء بعد ذلك، وأغلقوا الباب على نصيب واللبناني.

فكّوا القيد البلاستيكي عن يديّ في الممر، ثم ربطوا يسراهما بقيد حديدي إلى السلسلة الحديدية، وطلبوا مني الإمساك بالأُخرى بالمعتقل خلفي، بينما أمسك ذلك الذي يتقدمني، بقميصي من الأمام. كان ما يشغلني منذ المناداة على اسمي، وخلال التحقق من بياناتنا في الممر، بالإضافة إلى وجهتنا التالية، عدم استدعاء العقيد سهيل الحسن لي، لاستكمال التحقيق مثلما توعدني،

كنت أتساءل عما حدث عندما قال أحدهم، ربما الضابط المسؤول:

- راح تروحون هالمرة لبيوتكم، ولكن إذا أمسكناكم مرة ثانية، فلا تحلموا بالطلعة بعدها.

نزلت كلماته على قلبي، كحبات مطر على أرضٍ عطشى. يا إلهي! سأعود إلى البيت إذًا. قطعت أفكاري في تلك اللحظات، كل صلة لي بهذا المكان وجعلته من الماضي، كان أكثرها سذاجةً:

- كيف سأسافر من الكراج إلى قامشلي، وماذا يمكن أن آخذ معي للعائلة، وليس لدي في الأمانات سوى الخمسمائة ليرة، التي كنت سأشتري بها الحليب لابنتي؟

صعدنا الدرج، مربوطين إلى السلسلة الحديدية، بعددنا الذي يتجاوز الثلاثين، وخرجنا من المبنى إلى الساحة. شعرت بوهج الشمس يعانق روحي ويكوي جراحي، بينما لم يمنع هدير محركات الباصات العسكرية، سماع شتائمهم لنا. أصعدوا مجموعتنا إلى باصٍ، تلقى كل من سبقني ضربةً عند بابه، الأمر الذي جعلني أشك بمزاعم إرسالنا إلى البيت. تبخرت أحلام الخروج من السجن، مع صفعة قوية تلقيتها على رقبتي، جعلتني متيقنًا من أن الحديث عن ذهابنا إلى بيوتنا، ليس سوى كذبة، أكدها إخراجنا من البناء، من دون تسليمنا أماناتنا.

أجلسوا الأول في مجموعتنا، على المقعد الأخير من الباص، وجرى توزيع الباقين بالتسلسل على المقاعد التي تسبقه، حسبما استنتجت من توجيهاتهم لنا. جلستُ على مقعدٍ في الوسط، حسب تقديري للمسافة التي مشيتها داخل الباص، ثم جلس اثنان إلى جانبي، فأصبحنا ثلاثة على مقعد مخصص لراكبين عادةً، لذلك توقعت امتلاء الباص على آخره، لكنني لم أتمكن من

تخمين العدد، ربما أدخلوا أكثر من سلسلة حديدية بالمربوطين إليها.

أغلقوا باب الباص علينا، ثم طلبوا منا خفض رؤوسنا وجعلها بين الكراسي، وحذرونا من رفعها. استغليت عملية إنزال الرأس وحرّكت الطمّاشة، فلا شيء أكثر من السجن بانتظاري، إذا لاحظوا ما فعلت، وأنا سجينٌ على كل حال. رأيت بطرفي عينيّ، أوراق الجرائد تغطي النافذة، فتحجب رؤية الخارج.

على الرغم من عدم وضوح ما ينتظرني، فرحتُ بالخلاص من معتقل مطار المزة، بعد ستة عشر يومًا، عادلت دهرًا من الوجع، وأصبح سقف أحلامي الآن، احتجازي في مكانٍ أفضل. أخذتُ أمنّي النفس بالنقل إلى سجن عدرا، وأعتبر حصول ذلك أمرًا رائعًا، لن أبالي معه بمدة السجن، فليس هناك تعذيب في عدرا، ويمكن للمرء الحصول على سرير ومشاهدة التلفاز وقراءة الجرائد، وشراء الأكل بنفسه، أيّ أن يعيش ملكًا، كما قال حسين عيسو.

ترى أين هو حسين عيسو الآن؟ أخرجوا كثيرين من الزنزانات اليوم ويجري نقلهم من المعتقل، ربما كان من بينهم ويتواجد معي على الباص نفسه. أعدت التفكير بالموضوع، لم أسمعهم ينادون على اسمه، أو ربما نادوا عليه، لكنني شردت قليلًا ولم أنتبه، مثلما جرى لي عندما أضعته في الساحة، يوم وصولنا.

تعرض رفاقنا الجالسون على المقاعد الداخلية للباص، المشرفة على الممر، لضربٍ مستمر، نجونا منه نحن الجالسين إلى النوافذ. كان العساكر يطفؤون أعقاب السجائر في أجسادهم، ويقهقهون عاليًا، كلما صرخ أحدٌ من لذعة النار. سمعت عسكريًا يقول لأحدهم:

- عم تتوجع من نار السيكارة يا ابن الحرام؟ بعدك ما شفت شي، هلّا بتشوف نار جهنم الحقيقية!

الفصل السادس: باب توما

بوابة بين جحيمين

توقف الباص بعد رحلة استغرقت حوالي نصف ساعة، سمعت لحظتها أصواتًا مخيفةً، تشبه عواء ذئاب جائعة، في غابة خلت من الفرائس منذ الأزل، هزت الباص، فحرصت على إبقاء رأسي منخفضًا خلف مسند الكُرسي، محتميًا به، متمنيًا توقف الزمن إلى حين حدوث معجزة، تضع حدًا للكابوس الذي أعيشه.

طلبوا منا الوقوف لإنزالنا، فتمكنت على الرغم من الطمّاشة، من ملاحظة وجودنا في ساحة مبنى يبدو مهجورًا، ثم مشاهدة هراوات تنهال على كل من يخرج من باب الباص، على وقع شتائم وصراخ، فيختفي وكأنّها تسقطه في وادٍ سحيق، ليلحقه المقيدين معه بالسلسلة الحديدية.

سقطنا فوق بعضنا البعض أمام باب الباص، سقط الذين تم إنزالهم أولًا تحت غزارة الضربات، وفوقهم من يليهم في السلسلة، بعد أن نال منهم الضرب بدورهم، إلى أن شكّلت أجساد الذين نزلوا أخيرًا، شبه غطاء للجميع، حماهم من الضرب الذي يصيبه.

تحولنا إلى كتلة واحدة، تربطها سلسلة حديدية بإحكام، وتتلقى الضربات من جميع الجهات، تهرسها، فترد بصرخات وتوسلات، من دون جدوى. أصبحت بحكم موقعي في السلسلة الحديدية، وبالتالي ترتيب نزولي من الباص، ممددًا على بطني وسط كومة الأجساد، فتلقيت ضربات أكثر من الذين

في أسفل الكومة، ولكن أقل ممن هم على سطحها، أُصيب ظهري وأطرافي، رأسي ويداي وقدماي، ونجا وجهي.

استمر شتمنا وضربنا من أشخاصٍ لا نعرفهم، في مكان نجهله، مدة طويلة يصعب تقديرها، إلى أن طلب صوتٌ التوقف وإدخالنا إلى السجن، فعملوا على فرزنا عن بعضنا وإعادة ترتيبنا في صف، ثم أدخلونا إلى بناء وأنزلونا طابقًا واحدًا تحت الأرض، فكّوا أيدينا عن السلسلة الحديدية هناك، وبدؤوا بالمناداة على أسمائنا لتوزيعنا على الزنازين، وسط الشتائم والضرب. دخل من مجموعتنا القادمة من مهجع واحد في مطار المزة، نصفها إلى الزنزانة الجديدة، ولا أعلم أين ذهبوا بالستة الباقين.

فور إغلاق الباب، بدأ أحدهم بضربي بيديه، ثم أمر مجموعتنا بالانبطاح، فاستلقينا على بطوننا، طلب منا الصوت رفع أقدامنا، وعندما أصبح ما تحت الركبة متعامدًا مع الأرض، بدأت الفلقة. فكّرت بجرأة الجلّاد، الذي يضربنا على الرغم من إغلاق الباب، ووجود معتقلين آخرين معنا، كما هو واضح، استنتجتُ من ذلك، بأن الوضع في هذا المكان أصعب بكثير من مطار المزة، حيث يتخذون إجراءات أمنية صارمة قبل دخولهم إلى الزنزانة، ويحرصون على إبقاء بابها مفتوحًا خلال وجودهم فيها، مع ايقاف مسلحين أمامها.

بعد حوالي عشرين ضربة على قدمي، طلب صوتٌ التوقف:

- يكفي شباب، شيلو الطمّاشات عن عيونهم.

توقفوا عن الضرب وفكّوا الطمّاشات، نهضت ونظرت حولي، لأجد نفسي وسط مهجع كبير، ممتلئ بأشخاص جالسين، بادروا بالترحيب بنا، باستثناء ثلاثة واقفين قرب مجموعتنا:

- الحمدلله على السلامة يا شباب.

ازدادت حيرتي وكبُر السؤال، حول من ضربنا، فالموجودون هنا يرتدون لباسًا مدنيًا، أما باب الزنزانة فمغلق منذ دخولنا، لم أشعر بفتحه وخروج أحد، بعد توقف الضرب ورفع الطمّاشات عن عيوننا!

طلب منا صاحب الصوت الذي أمر بوقف الضرب، وكان مفتول العضلات يرتدي بيجاما رياضية، أن نذهب إلى منطقة التواليت، وراء حائط منخفض قبل نهاية الزنزانة، ونخلع ثيابنا هناك، للتخلص مما فيها من قمل. ذهبت بي الظنون عندها، إلى أن المهجع خليطٌ من السجّانين والمعتقلين.

طلب محدثنا بعد حوالي ساعة، ارتداء ثيابنا ثانيةً، وأشار لنا إلى مكان للجلوس، وحذرنا من التحدث مع أحد، ثم تمدد على سرير مرتفع قرب باب المهجع.

جلست إلى الحائط الواقع يسار الباب، على مقربة من الحمّام الثاني. كان محمود من داريا هو أول من تحدث معي، هنأني بالسلامة وسأل عن منطقتي، أعلمته فاستوضح عما إذا كنت كُرديًا، وبعد أن أبلغته بذلك، بالغ مع آخرين بالترحيب بي. سألت:

- وين نحن يا شباب؟

- سجن باب توما القصاع، تحديدًا فرع باب توما التابع للمخابرات الجوية.

طلبت تفسيرًا للضرب الذي تعرضنا له داخل الزنزانة. فكانت الإجابة صاعقة. تبين بأن رئيس المهجع أمجد شاهين هو الذي ضربنا، السجين الذي استعان بسجينين آخرين لمساعدته بعد ذلك، لفك قيودنا وطمّاشاتنا.

يبدو بأن جميع من دخل هذا المكان، تعرض للضرب على يديه، لأن ذلك قانون واجب التنفيذ حسبما أبلغهم، ولديه صلاحيات بذلك. شكلت صدمة كبيرة لي، فكرة تسليط نظام الحكم المعتقلين على بعضهم البعض، ونجاحه

في تجنيد سجناء كجلادين، لاستخدامهم في ضرب رفاقهم.

ستكون المفاجأة الثانية التي سأعرفها عن أمجد شاهين، هي في كونه حفيد مؤسس حركة المقاومة الفلسطينية، ومن سكان درعا، أُلقي القبض عليه قبل ثلاث سنوات، بعد اتهامه بالمسؤولية عن تفجير المزة الذي تبنته الحركة وقتها، ويبدو بأن المخابرات عقدت معه اتفاقًا بعد بداية الثورة، يقضي بتسليمه إدارة المهجع، مقابل منحه امتيازات وتخفيف القيود عنه، بحيث يخرج من المهجع ويخالط السجّانين ويتلقى زيارات من دون قيود، بالإضافة إلى منحه مساحةً خاصة قرب الباب، بعيدًا عن المعتقلين، مع سرير ملوكي، وحصة كبيرة من الطعام، تعادل ما يحصل عليه عشرة معتقلين، وأجهزة تدريب على اللياقة البدنية، والاستحمام متى يشاء، مع وعود بالإفراج عنه.

ناداني أمجد شاهين، أشار لي بالجلوس قرب فراشه الوثير، بينما بقي مستلقيًا مثل ملك. سألني عن اسمي والتهمة الموجهة لي وكيفية اعتقالي، ثم أعطاني تعليمات المهجع.

لدينا ساعة يومية للتخلص من القمل، ويمنع النوم أو الاستحمام دون أمر منه، عليّ إعلامه مسبقًا إذا أردت الصلاة، على الرغم من أنه تؤدى صمتًا، ختم تعليماته بإعطائي لمحة عن لائحة العقوبات الداخلية والخارجية المقررة للمخالفات، ثم طلب مني الذهاب، بإشارة من يده.

أمجد شاهين، السجين الجلّاد المكروه من الجميع، الإمبراطور المتوج على هذا المهجع، بسكانه البالغ عددهم مئة وعشرين معتقلًا، ومساحته البالغة اثني عشر مترًا طولًا وخمسة أمتار عرضًا، بما فيه من حمّامين وتواليت، والمُنار بعدد من لمبات النيون، يستطيع تقديم تقارير بالمعتقلين إلى إدارة السجن لمعاقبتهم خارج المهجع، أو غض الطرف عنهم، ولكن لديه صلاحيات

ضربهم بنفسه داخل المهجع، منح الطعام لمن يشاء أو الحرمان منه، يتمتع من يقربه إليه، أو من ينجح بالتقرب منه، ببعض العطايا، أما من يغضب عليه، فتُفتح عليه بوابة جحيم إضافية، وسط هذا الجحيم.

الحركة متاحة بعض الشيء في هذا المهجع، وكذلك أخذ غفوة نهارًا، عندما يكون أمجد شاهين نائمًا. استغليت نومه وتحركت طولًا وعرضًا، ذهبت إلى رفاقي القادمين معي من معتقل المزة، أُسرتي الأولى التي عشنا الظروف نفسها، اطمأننت عليهم واحدًا تلو الآخر، واكتشفنا بعضنا بطريقة مختلفة. تعرفت في وقتٍ لاحق إلى الآخرين، يتواجد الجميع في هذا السجن على سبيل الإيداع، بعضهم منذ أشهر، بينما وصلت آخر دفعة منذ عشرين يومًا، لا يعرف أحد عن مصيره شيئًا.

تمكنت من تشكيل صورة عن الزنزانة، ستّون بالمائة من نزلائها من داريا، والباقون من درعا، حمص، المعضمية، حران العواميد. لم يكن هناك كُردي واحد معنا، لأتحدث معه بلغتي.

أحضروا الغداء في طشت بلاستيكي، قاموا بإفراغه على الأرض وسط المهجع، فتشكلت مجموعات، من عشرة إلى أربعة عشر فردًا لكل واحدة، وضع مندوب كل مجموعة كيس خبز فارغ على الأرض، في محيط الطعام، فتم تقسيمه حصصًا ووضعه عليها، ثم قامت كل مجموعة بتقسيم ما حصلت عليه حصصًا متساوية حسب عدد أفرادها، وزعها أحدهم عشوائيًا عليهم، أغمض عينيه وأشار في كل مرة إلى حصة مرفقة بأحد الأسماء. كانت مجموعتي كلها من داريا، حصلتُ على ما يعادل خمسة ملاعق من الأرز وشوربة عدس سميكة، وضعتها على رغيف الخبز، لفيتها صندويشة وأكلتها، أما على العشاء، فملعقة من الحلاوة وقطعة بطاطا وكسرة خبز.

صدر أمر النوم في العاشرة ليلًا، علمت بأن الأمر يتأخر أحيانًا حتى الحادية عشرة، ويسمح بالنوم حتى الرابعة صباحًا. فرشنا البطانيات على الأرض، بعيدًا عن الباب بمسافة مترين، لوجود احتمال بدخول السجّانين في أية لحظة، لأخذ معتقلين للتحقيق أو نقلهم أو إحضار جدد.

تمدد كل عشرة على بطانية واحدة بطريقة التسييف، كل اثنين بمواجهة بعضهما، ولكن بطريقة متعاكسة، بحيث وضع كل واحد رأسه عند قدمي الآخر، وبما أن البطانيات قريبة من بعضها، فقد اتخذ الموجودون على كل واحدة منها، من أقدام الموجودين على البطانية التالية مخدةً لهم.

عندما أخذ الجميع أمكنتهم، قام مناوبان بتغطيتنا ببطانية أُخرى، يُمنع علينا إظهار رؤوسنا من تحتها.

تسيفتُ على جانبي الأيمن، ظهري إلى داخل المهجع حيث منطقة الحمامات، ووجهي مقابل معتقل لبناني، متسيفٌ على جانبه الأيسر وظهره للباب، وبذلك كان وجهانا متقابلين، يفصل بينهما قدما شخص آخر. كان اللبناني أثار انتباهي منذ وصولي، بسبب بكائه الشديد ودموعه التي لا تتوقف، وصمته، قال لي محمود عندما سألته عنه:

- ما حدا يعرف عنه شيء، لأنه ما حكى لحدا عن حاله.

رفعت البطانية قليلًا عن رأسي وهو ما فعله اللبناني أيضًا، تقابلت عيوننا فبادرني بالسؤال همسًا، فيما إذا كان بإمكانه التحدث إلي، فرحبت بذلك. ربما كان السبب في مبادرته والثقة السريعة التي منحني إياها، معرفته بأنني كُردي، من المنطقة الأبعد عن حدود بلده، وقد ذكر في بداية حديثه معي، بأن زوجته من أصول كُرديّة، وأضاف بأنه سمع باسم مدينتي ويتعاطف مع الكُرد، وهو ما صدقته بحدسي وجعلني أتحمس لسماعه، لعلّي أساهم في التخفيف من

حمله الثقيل.

تحدث جاري اللبناني عن نفسه، قال بأنه من منطقة الكولا ببيروت، تزوج قبل أقل من عام من امرأة سورية من محافظة حماة، أضاف بأن زوجته الحامل حضرت إلى أهلها في سوريا، وأرادت البقاء عندهم حتى ولادة طفلهما، فتبعها بعد وقت قصير للاطمئنان عليها، دخل من بوابة الدبوسية الحدودية مع لبنان، سُئل هناك عن سبب قدومه فذكره، وبعد أن عبر الحاجز السوري بخطوات، ناداه أحد عناصره:

- تعا لهون يا لبناني يا حقير.

عاد اللبناني أدراجه إلى العنصر الذي شتمه، فوجده سكرانًا، يتناول الكحول، تابع شتمه وضربه، متهمًا إياه بالانتماء إلى تيار المستقبل اللبناني، وينوي تهريب أجهزة اتصال إلى الإرهابيين في سوريا. أدخله عناصر الحاجز إلى زنزانة وضربوه بدورهم، ثم قيدوا يديه ونقلوه إلى سجن مطار المزة.

خلال التحقيق معه، وبينما هو مطمّش العينين، اتصل السجّانون من هاتفه مع زوجته، ردّت فسمع صوتها، فأنهوا المكالمة من دون كلمة، ثم هددوه:

- إذا ما بتعترف باللي راح نطلبه منك، وتقبل بالطلوع على التلفزيون لتقول بأن تيار المستقبل سلمك أسلحة وهواتف ثريا، لتهربها وتوصيلها للإرهابيين داخل سوريا، فراح نجيب زوجتك الحامل لهالمكان ونعريها، وراح يكون بانتظارها شبابنا العريانين طبعًا.

انهار اللبناني عندما سمع صوت زوجته، لم يستطع مقاومة تهديداتهم، فخرج في مقابلة على التلفزيون واعترف بما طلبوه منه. حاولت طمأنته، عندما سألني عن الحكم المتوقع عليه، قال بعد ذلك بأنه لم يعد قادرًا على الكلام، وطلب مني أن نكمل غدًا، حيث سينام كل واحد في المكان نفسه.

خرج كثيرٌ من الموجودين معنا في الزنزانة، في مقابلات على التلفزيون، وأدلوا باعترافات فبركها لهم نظام الحكم.

على الرغم من أننا محتجزون في قبو السجن، في منطقة باب توما المسيحية، إلا أن معرفة التوقيت متاحة من مصدرين، أصوات الآذان القادمة من الجوامع البعيدة، وشباكٌ مرتفع مقابل التواليت. أيقظونا في الرابعة صباحًا، طوينا البطانيات ووضعناها فوق بعضها، ثم بدأنا بتنظيف أنفسنا من القمل، خلع كل واحد ملابسه وقلبها، للبحث عنه في منطقة الخياطة الداخلية. أما من أراد تنظيف سرواله الداخلي منه، فذهب إلى التواليت. انتهت عملية التخلص من القمل، قبل وقت كاف من وصول الإفطار، في الثامنة صباحًا.

في الليلة الثانية من وصولي، وبينما كنت أستكمل الحديث مع اللبناني تحت البطانية، نادى الحرس على اسمي. خاف اللبناني كثيرًا، ظنّهم كشفوا أمر حديثه معي، أما أنا فتصرفت وكأنني على طريق الخروج من سجن باب توما، بعد أن أعلمني الشبان هنا، بأن الاستدعاء الفردي لمعتقل معناه غالبًا، إما الافراج عنه أو تحويله إلى سجن عدرا.

خرجت من الزنزانة، فقام ثلاثة عناصر ينتظرونني أمام بابها، بتطميش عينيّ وقيد يديّ، من دون استخدام العنف أو الإساءة لي بكلمة واحدة. نقلوني إلى سيارة صغيرة، أتوقع كان فيها آخرون غيرهم، أجلسوني على مقعد وطلبوا مني خفض رأسي إلى أسفله.

انطلقت السيارة في شوارع باب توما، يبدو بأن حركة الناس كبيرة، كيف لا والوقت خريف والجو معتدل، والساعة قريبة من العاشرة مساءً. تحرّش العناصر بالفتيات عبر النوافذ، وجهوا لهن كلماتٍ نابية، ولم يتوقفوا عن

الصفير عليهن.

قطعت السيارة مسافة، أوصلت بي التفاؤل إلى حد الظن، بقرب وصولنا إلى سجن عدرا، قدّرت بأن سيرها لساعة أُخرى، سيوصلنا إلى الطريق المؤدي إلى دير الزور، ومنها إلى البيت، لكنهم وضعوا حدًّا لاسترسالي عند ذلك الحد، توقفوا ثم أنزلوني وطلبوا مني البقاء واقفًا، في مكانٍ يُرجح أن يكون ساحةً، جاء أحدهم بعد ذلك ونقلني إلى داخل بناء، وأوقفني في ممر، قرب حائط.

وضعت رأسي على الحائط، وعملت على تحريك الطمّاشة به، نجحت، فأُصبت بالرعب عندما رأيت الأرضية. أنا واقفٌ على بلاط فرع المخابرات الجويّة في مطار المزة.

حاولت طمأنة نفسي، خاصةً أنني لم أتعرض للضرب حتى الآن، فكّرت باحتمال أن تكون أرضية كل السجون واحدة، وبأن أكون في سجن عدرا، لكنني فكرت بالاحتمال الآخر أيضًا، بأن أكون في مطار المزة فعلًا، وبأن مصيري سيتوقف على تصرفهم في موضوع أماناتي التي يحتفظون بها، فإذا سلموني إياها، فسيقومون بتحويلي إلى سجن عدرا وربما تركي وشأني، أما غير ذلك فمعناه، أن التحقيق لم ينتهِ معي، وهناك مزيد من التعذيب.

- كيفك يا شبال؟

سمعت السؤال باللهجة الساحلية، بعد إدخالي إلى إحدى الغرف واتخاذي وضعية السجود، بصوت أحد الذين حققوا معي في مطار المزة. اقترب مني المحقق، وعندما شاهدت حذاءه بطرف عيني، تأكدت من مكان وجودي.

طلب مني (الحذاء الأسود) الاعتراف بحيازة جهاز هاتف ثريا، وبأن أخبره عن مكانه. ذكّرني طلبه بمحاولات العقيد حسين عبدالله رئيس جوية قامشلي، الحصول على معلومات عن الجهاز المزعوم. أقسمت:

- سيدي أُقسم بالله ما عندي جهاز ثريا، وما بعرف شكله.

تدخل صوت العقيد سهيل الحسن عندها مهدئًا، ثم وجه كلامه لآخرين:

- ليك ولاك، معك نص ساعة لتعترف. إذا ما اعترف، نزلوه للقبو.

عدت إلى المربع الأول، انهارت معنوياتي وأصبحت في الحضيض. إذا قلت لهم بأن لدي جهاز ثريا، وهو أمر غير صحيح، فسأدخل نفسي في متاهة أسئلة، حول مكانه ومن زودني به ومع من اتصلت، سيقتحمون بيتي ويرهبون أطفالي للبحث عنه، أما إذا أنكرت الأمر، فأنا على علم بعقوبة القبو، التي حدثني معن شربجي عنها، عندما أراد التخفيف من وطأة التعذيب الشديد الذي تعرضت له يومًا، فقال بأن سهيل الحسن أدخل عامر إليه، وهو طالب يدرس الأشعة ويعمل في مشفى الهلال الأحمر، لم يكتفوا باحتجازه في القبو، بل وضعوه في التابوت الموجود داخله، قالوا له قبل أن يغلقوه عليه:

- إذا وجدت نفسك غير قادر على الاستمرار، ففي القبو مسدس تستطيع الانتحار به.

عانى عامر من صعوبة في التنفس، بعد قليلٍ من إغلاق التابوت عليه، فدفع الغطاء كيلا يختنق، ليجد نفسه في قبو معتم، يغلفه صمت القبور. رغم كون عامر قوي الإرادة، صبورًا ومؤمنًا، إلا أن رعب المكان جعله يتمنى الموت، فخرج من التابوت يريد الانتحار، بحث عن المسدس الموجود في مكانٍ ما، مدّ يديه أمامه وسار في الظلام، وصل إلى حائط وأخذ يمشي بمحاذاته، لمست يديه أشياء كثيرة مجهولة، منها القاسي ومنها الطري، البارد والدافئ، الجاف والرطب، تصارعت الأفكار في رأسه حولها، إلا أنه لم يستطع تخيّل ماهيتها، وعندما وقعت يده على مسدس أخيرًا، سارع إلى وضع فوهته على رأسه وضغط على الزناد، لكنه كان فارغًا من الرصاص.

وصل عامر إلى حافة الجنون، علق في منتصف المسافة بين الحياة والموت، عاجزًا على الرغم من سعيه المضني، عن استعادة أُولاهما أو نيل ثانيهما. عندما فتحوا الباب وأشعلوا لمبة كهرباء، كانت إحدى الأشياء التي رآها، أفعى ضخمة يتجاوز طولها المترين وقطرها عشرات السنتمترات، تأكد بأنها من بين الأشياء التي لمسها، خلال بحثه المضني عن المسدس. أخرجوه من القبو في وضع نفسي سيء للغاية، جروه وراءهم، بسبب عجزه عن الوقوف على رجليه.

قبل نهاية مهلة النصف الساعة، التي منحني إياها العقيد سهيل الحسن، لسماع اعترافي بامتلاك هاتف الثريا أو معاقبتي باحتجازي في القبو، حدث أمرٌ غريب للغاية، فبدلًا من استكمال التحقيق معي، نقلوني إلى السيارة ثانيةً، من دون سؤال عن الجهاز أو إثارة موضوع القبو، من دون ضرب أو حتى شتيمة واحدة، أعادوني إلى سجن باب توما، لينتهي الأمر فجأةً مثلما بدأ، بشكل غامض.

أزالوا القيد عن يديّ ورفعوا الطمّاشة عن عينيّ، أمام باب الزنزانة، وطلبوا مني عدم التحدث عما جرى لأحد. فتحوا الباب، فاستلمني أمجد شاهين، وسألني عما جرى معي. لم أرغب بإخفاء الموضوع عن أحد، أردت أن أعرف فيما إذا كان غيري مرّ بتجربة مماثلة، وما انتهى إليه. سمعني أمجد باهتمام، بدا غير مصدق في البداية، ثم ظهر الخوف عليه، وحاول التقرب مني:

- أريد أن أقول لك شيئًا خال، باعتبار أمي كُرديّة راح أناديك خال، الأكيد توجد توصيات عليك وربما حركة في الخارج تطالب بك، لأن سهيل الحسن ما بيتصرف هيك، إلا إذا كان عنده إيعاز، أو ربما صدقوك لما حلفت لهم، بأنك ما بتعرف شكل جهاز الثريا، ويمكنني القول في جميع الأحوال، بأن وضعك

بخير.

عدت إلى مكاني تحت البطانية، كان جاري اللبناني لا يزال صاحيًا، لم يكن ينام حسب قوله، أكد لي بأنه لم يتم منذ اعتقاله قبل شهر ونصف، أكثر من ساعة أو اثنتين، كانت أعصاب عينيه حمراء وحولهما هالتان سوداوان. أبدى استغرابه مما قلته وأقسم، بأن هذه أول حادثة من نوعها، يشهدها خلال وجوده في هذا المكان، وبأن كل من خرج منه، لم يعد إليه.

استغربت مجموعتي الحادث، عندما أبلغتها به في اليوم التالي، مازحني البعض قائلًا، بأنني لم أغادر الزنزانة مطلقًا، وبأن كل ما رويته لهم مجرد كابوس، انتهى بحلم جميل.

بدأت الحياة تراوح في مكانها برتابة، في هذا المهجع الذي تقتصر الحركة فيه، على أشياء تعد على أصابع اليد الواحدة، تبدأ بالاستيقاظ في الرابعة صباحًا، ثم التخلص من القمل لساعتين، تليها الصلاة الصامتة قبل الإفطار، وصولًا إلى النوم. أوصل الفراغ الذي نعاني منه، كاتب أناشيد الثورة جورج، وهو مسيحي من حمص، إلى قراءة التسابيح.

دخل جورج إلى التواليت خلال مناوبتي مع هادي، تأخر فطلب مني هادي الذهاب لمعرفة ما يجري، ناديته وسألته فيما إذا كان كل شيء على ما يرام، فخرج وأخبرني بأنه يقرأ التسابيح، على الرغم من حبه الكبير لدينه، بعد أن لاحظ بأننا جميعنا نشغل أنفسنا بها، بينما لا يجد شيئًا يفعله سوى التفكير بزوجته وأطفاله، الأمر الذي يضاعف من عذابه ويكاد يصيبه بالجنون. أخبرته بأن قراءة التسابيح في مكان غير نظيف حرام، فانضم إلينا لقراءتها جماعيًا في اليوم التالي، بقيادة أمجد شاهين، الذي يحدد عدد مرات كل تسبيحة، فننتقل في صمت من واحدة إلى أخرى، بعد مضي وقت يعود تقديره

له، ونقوم بذلك حتى موعد الغداء.

يبدأ الصراع مع النوم بعد الغداء، حيث يجد الجميع صعوبة في إبقاء عيونهم مفتوحةً، في جو يسوده الهواء الثقيل، اضطر فيه لوضع يديّ على عينيّ لإبقائهما مفتوحتين، خشيةً من ضبطي نائمًا من قبل أمجد شاهين أو أحد وشاته، ومعظمهم شبان صغار، يبلغونه عن المخالفين أو عمن يتحدث عنه بسوء، فيتقربون منه بذلك، للتخلص من شره والحصول على بعض الطعام مكافأة.

سيتقرّب أمجد مني مرةً، ويدوم الود بيننا أيامًا عدة، سينتهي عندما يطلب مني إخباره بما يتحدث به الآخرون عنه، سأرفض فأتحول إلى عدوه اللدود.

يحدد أمجد العقوبات الفردية وينفذها بالمخالف، بنقله غالبًا إلى منتصف المهجع وصفعه هناك، ثم رشه بالماء وضربه فلقة، بعصاه التي يخفيها تحت مخدته. حصل خلافٌ بين أمجد شاهين وعبدالعزيز، المقاتل السابق في الجيش الحر، الذي بقي على موقفه ولم يتنازل عنه، فنادى أمجد السجّانين، ضربوا عبدالعزيز واحتجزوه شهرًا في المنفردة، فبقي يتوعد أمجد، إذا ما خرج من السجن يومًا.

تُقرر العقوبات الجماعية خارج الزنزانة، في مواعيد محددة، منها إرغامنا على الدخول إلى الحمام، كل ثلاثة أو أربعة أيام، لإخفاء أنفسنا وراء نصف الحائط الذي يفصل الحمامَين، عن قسم الإقامة والنوم في مقدمة المهجع، بحيث لا يظهر منا شيء للسجّان، الذي يراقب الوضع من كوة الباب. على الرغم من أن المكان لا يتسع لأكثر من عشرين شخصًا، إلا أننا نتكدس نحن المئة والعشرين فوق بعضنا البعض هناك، لأن من سيراه السجّان أو يظهر منه أي شيء، سيستدعيه إلى منتصف المهجع ويضربه، أو يخرجه ملفوفًا

بالبطانيات إلى الممر، فيضربه ويسكب عليه المياه الباردة، التي يرشوننا بها مرة واحدة في الأسبوع.

منطقة الحمامات هي المكان الذي يروّح فيه أمجد شاهين عن نفسه، يضع بطانيات هناك ويأخذ المقربين منه، ليتسامر معهم. أما الاستحمام فمقررٌ لمرة واحدة في الأسبوع، يعطون قبله شامبو مضاد للقمل لأمجد لتوزيعه علينا، لكنه لا يعطي أكثر من قطرتين أو ثلاث لكل واحد، بالكاد تصل إلى فروة الرأس، ولا يسمح لنا بالبقاء تحت المياه سوى لثواني قليلة. بعد الاستحمام، يلقون علينا الطعام، ويطلبون من أمجد إخراج عشرة لضربهم فلقة، فيرشح لهم كل من هو على خلاف معه.

خضعت الحلاقة هي الأُخرى لمزاج أمجد شاهين، فهو يحلق شعر أو ذقن من يشاء، بالماكنة التي يدخلونها إلى الزنزانة مرة واحدة كل شهر، وقد يدخلون عدة مَكّنات، فيساعده من يلم بالحلاقة، غير الصعبة أصلًا، فالقَصّة الوحيدة المتاحة، هي الصفر.

مرّ على آخر زيارة لي لصالون الحلاقة، أكثر من أربعة أشهر ونصف، لم أحلق شعري بعدها، على الرغم من أنه طال كثيرًا، لأنني أتوقع الخروج من المعتقل في أية لحظة، ولا أريد أن يراني أحد بشعر قصير، لكنني تركتهم يحلقون ذقني.

انتهى دوائي، فأصبحت أُعاني من دُوّار ويغمى عليّ حتى ثلاث مرات أحيانًا، خلال يوم واحد. توقفوا عن مناداتي زيفيكس، ومن ثم رمي الحبة لي من كوّة الباب، وهو اللقب الذي أطلقه عليّ رئيس المناوبة أبو أحمد.

بعد مرور أسبوع على وصولي، أبلغ أمجد شاهين السجّانين بوجود مريض في المهجع، فردوا بأن عليّ انتظار زيارة الطبيب المقبلة، والزيارات تجري بشكل

غير منتظم، مرة واحدة وربما أكثر خلال شهر.

طلبوا من المرضى الذهاب إلى باب المهجع مساء ذلك اليوم، لأن طبيبًا سيحضر لحسن الحظ، فذهبت مع أربعة آخرين، أخرجونا إلى الممر وطلبوا رفع كنزتي إلى أعلى رأسي، بحيث تخفيه، وتغطية عينيّ بيديّ، وأن أجثو على ركبتي. بعدما انتهوا من فحص رفاقي الأربعة وأعادوهم، سألني الطبيب عن منطقة سكني، ثم استفسر بعد أن أخبرته عنها:

- كورمانجو؟

ذكّرني بالطبيب في مطار المزة، لا بل ظننته هو نفسه. حدثته عن مرضي، واكتفيت بطلب حبوب زيفيكس التي أتناولها عادةً.

لم أطلب تحويلي إلى المشفى، عندما أثار الموضوع، بسبب تجربة سيئة مرّ بها إبراهيم من مدينة الضمير، الذي كان يعاني من تمزق شرجي ونزيف مستمر، بعد إرغامه على الجلوس على خازوق، خلال جلسة تعذيب في مطار المزة، بحيث أصبح ذهابه إلى التواليت عذابٌ لا يطاق، كانت أمعاءه تخرج كلها، فأقوم مع الأطباء الثلاثة المعتقلون في المهجع، بوضع أيدينا في أكياس الخبز الفارغة، التي نحتفظ بها، لإعادة الأمعاء إلى بطنه ثانيةً.

أرسلوا إبراهيم الضميري إلى مشفى ٦٠١ العسكري للعلاج، فأجروا له عملية جراحية في منطقة الشرج، من دون تخدير، وكسروا فوق ذلك يده. لم يعد أحد يجرؤ على القول بأنه مريض، بعد عودته على تلك الحال.

سألني المساعد أبو أحمد من مصياف، بينما رأسي في الكنزة، وأنا جاثٍ على ركبتيّ:

- شبال إبراهيم، أنت شبال إبراهيم ما هيك؟

- نعم سيدي.

- اقعد عادي ونزّل الكنزة!

أخفضت الكنزة عن رأسي وأبقيت يديّ على عينيّ، فقال:

- لا لا، نزّل أيديك كمان واتطلع فيني.

نظرت إليه غير مصدق، وجدت أمامي شابًا حليق الشعر والذقن، يرتدي طاقية صوف، في حين كان صوته خلق انطباعًا، بأنه يكبرني بعشر سنوات. انتقلت بنظري إلى الطبيب، شعرت بأنني أعرفهما، على الرغم من أنني أراهما للمرة الأولى. فاجأني أبو أحمد ثانيةً عندما قال:

- تعرف يا شبال، إنو الدنيا خربانة عليك برا!

لم أفهم قصده ولم أعلق، تابع فطلب مني عدم الاستسلام للمرض، وأقسم:

- أقسم بالله بأن حبوب زيفيكس مقطوعة، وسيادة اللواء بنفسه يريد تأمينها.

- تمام سيدي، الله يعطيكم العافية.

مرر الطبيب السماعة على صدري، وسألني عن أعراض المرض التي تظهر عليّ، أخبرته بأن لدي قرقرة في البطن وشعور بالرغبة في الاستفراغ، فسّر ذلك بأنه من آثار مرض الكبد، وبأن عليّ أن أرتاح، ثم سألني عما إذا كنت جائعًا، فرديت بالنفي على الفور، فكيف سأتنازل للجوع، وقد علمت قبل لحظات، بأن هناك من يهتم لأمري في الخارج؟

فور إعادتي، أخبرت الدائرة الضيقة من رفاقي بما جرى، فسألوا مستغربين، بصوت واحد:

- أبو أحمد قال لك نزل الكنزة عن راسك!

بعد مرور أسبوعين على وجودي في باب توما، أصبح الخبر الأول الذي يبلغني به المعتقلون الجدد، عندما يعلمون بأنني كُردي، هو استشهاد قيادي

في حزب كُردي بقامشلي، (خربت الدنيا مشانه) حسب قولهم، إلا أنهم عجزوا عن تذكر اسمه، وهو ما عجزت عن معرفته، على الرغم من محاولاتي المستمرة.

وصلت عشر دفعات خلال شهر واحد إلى المهجع، ارتفع عدد معتقلي حمص وخاصةً من منطقة الرستن، أصبحوا أكثر من معتقلي داريا، جاؤوا بمعتقلين من إدلب وجسر الشغور، قال كثير من المعتقلين من حماة ومنطقة جبل الزاوية، بأنهم من أصول كُردية، كان معظمهم يردد الكلام نفسه:

- استشهد عندكم واحد في قامشلي يا ابن العم، وخربت الدنيا مشانه، بس والله العظيم ما بتذكر اسمو.

لم أتوقف عن التفكير بالقيادي الكُردي، الذي يتحدث الجميع عن استشهاده، لكنهم يجهلون اسمه. بقي السؤال المقلق مفتوحًا حتى السابع عشر من نوفمبر ٢٠١١، عندما أحضروا مجموعة إلى زنزانتنا، من بينهم قيادات تجمع اليسار الماركسي، وهو تجمع حزبي للبعض من أبناء طائفة نظام الحكم، كانوا أصدروا بيانًا قبل اعتقالي، أعلنوا فيه براءة طائفتهم من النظام.

تخفينا وراء الحائط في الحمامات، انتظارًا لاستلام أمجد شاهين للمعتقلين الجدد، لتنفيذ إجراءاته عليهم، سمعت في تلك الأثناء المساعد أبو أحمد، يطلب من أحدهم البقاء في الخلف:

- أستاذ عيسى خليك ورا، عندي سؤال الك: شو هي أهداف حزبكم؟

رد عليه الرجل:

- أهداف حزبنا هي مواجهة المحتل الاسرائيلي وتحرير الجولان..

قاطعه أبو أحمد ضاحكًا:

- ولك نحنا والاسرائيلية أخوة، إذا بدنا نرجع الجولان، بنرجعه اليوم، ولو..

لم يضرب أمجد شاهين القيادي في التجمع عيسى، نظرًا لكبر سنه، في الواقع لم يكن يضرب كبار السن، ولدينا أربعة منهم.

كان إبهام أحدهم ينزف وعلى قدميه آثار ضرب، ذهبت إليه في اليوم التالي لتطييب خاطره ومداواته، عرفته على نفسي، قلت له بأنني كُردي من قامشلي ودرست التمريض، وسألته السماح لي بتطهير جروحه، لكنه صدني قائلًا، بأنه لم يطلب مساعدتي، فذكرت له بأنني أقوم بواجبي فحسب، وأطلعته على الوصفة التي حضّرتها له، قطعة صغيرة من حصتي من الخبز من عشاء أمس، نقّعتها بالماء، ثم خلطتها بقليل من الملح الذي أخذته من رئيس المهجع، وضعتها في كيس الخبز الفارغ وتركته تحت المخدة حتى اليوم، فتحول إلى عجينة أردت استخدامها لتطهير جرحه. استجاب الشاب لعرضي وقال بأن اسمه نمر، ذهب معي إلى منطقة الحمامات، حيث وضعت العجينة على إبهامه المكسور، ولففت الكيس على جرحه.

علم أمجد شاهين عبر وشاية من جواسيسه، بالمساعدة التي قدمتها لنمر، يبدو بأن ما جعل جرمي مضاعفًا، بالإضافة إلى كراهيته للشِهام وحبه للمخبرين، هو أن الشخص الذي أخذته للمعالجة في المنطقة التي يصلي فيها عادةً، ناشط يساري.

ناداني أمجد إلى وسط الزنزانة، تناول عصاه وضربني فلقة عشر مرات، بجرم ارتكاب مخالفة في منطقة الحمامات، ثم اعتذر بعد تنفيذ العقوبة، قائلًا بأنه مجبر على تطبيق القانون على الجميع.

قدّم نمر الاعتذار عما تعرضت له بسببه، أعلمني بأن القيح انتهى من جرحه وخفّ وجعه، شكرني قائلًا:

- الله محيي أصلك، أنتم الأكراد على الراس والعين، وبعد استشهاد مشعل التمو...

قاطعته:

- توقف رجاءً، كرمى لله توقف، مين اللي استشهد؟

- مشعل التمو.

- شو عم تقول، ايمتى استشهد؟

شعر بالحرج، فسأل:

- هل تعرفه؟

- هو بمنزلة والدي.

ازداد موقفه حرجًا، فقال:

- أنا آسف جدًا، كنت أظن بأنك تعرف بالموضوع، اللي مضى عليه أربعين يوم.

انفجرت بالبكاء وهرعت إلى منطقة الحمامات، كيلا ألفت انتباه أحد، لكن نحيبي كان مسموعًا، فتقاطر رفاقي إلى المكان، وسألوا عما يجري، وعندما عجزوا عن الحصول على تفسير، ذهبوا واستدعوا أمجد. لم أرد عليه أيضًا، لكنه علم بأن آخر من تحدث معي كان نمر، فانهال عليه بالضرب، رجوته باكيًا أن يدعه وشأنه، قائلًا بأن لا علاقة له بالأمر.

فقدتُ معلمي، القائد الذي علمني الثورة منذ كنت طالبًا، والمناضل الذي استمديت القوة من سيرته، السند الذي كنت أنا وحسين عيسو نعوّل عليه، ومتأكدين من أنه لن يتخلى عنا أبدًا، الرجل الذي حدثت رفاقي في رحلة الاعتقال عنه، فأصبحوا على معرفة به ويتمنون لقاءه. اتفق محمود وعامر معي على زيارته، بعد خروجنا من المعتقل، كانا يقولان:

- إذا طلعنا من المعتقل فراح نروح إلى قامشلي، إلى بيت مشعل التمو، بيت أبو

فارس ما يبعد عن الكراجات أكثر من خمس دقائق مشي.

تذكرت عائلة مشعل التمو، وتصورت حجم الحزن الذي يخيم عليها الآن. استعرضت مسيرته، مؤلفاته الكثيرة وتأسيسه لتيار المستقبل الكُردي، الحكم الأخير عليه لثلاث سنوات بسبب نشاطه السياسي، خروجه من المعتقل بعد انطلاق الثورة وانضمامه لها، استقطابه للشبان ودعوته الجميع في خطابه الأول، إلى البصق في وجوه جلاديهم، رحيله المبكر، الذي لا أعرف تفاصيله.

لم أعُد أهتم بشيء، انعزلت، فقدت الشهية تمامًا، لم آكل لستةٍ أيام متواصلة على الرغم من إلحاح رفاقي، أُصبت بالوهن ونقص وزني.

سأعرف بعد سنتين، عندما سأذهب إلى اسطنبول للعلاج، بأن مشعل التمو حماني بدمه ومنع الأذى عني. سألتقي هناك، بالعميد عبدالباسط، الذي كان مدير منطقة قامشلي قبل اعتقالي، وحصل بيننا تواصل لعدة مرات، على خلفية المظاهرات التي كنا ننظمها للمطالبة برفاقنا المعتقلين، قبل أن ينشق عن نظام الحكم ويغادر سوريا، ويصبح الأمين العام لائتلاف قوى الثورة والمعارضة السورية.

سيتحدث العميد عبدالباسط عن الفترة السابقة لانشقاقه، فيخبرني بأنه بعد حوالي أسبوعين على اعتقالي، وتحديدًا بعد اغتيال مشعل التمو، أعد مع رؤوساء الفروع الأمنية في محافظة الحسكة مذكرةً، أرسلوها إلى قيادتهم في العاصمة، أبلغوها فيها بأن اغتياله تسبب باضطرابات كبيرة، واجهتهم صعوبات في السيطرة عليها، وبأنهم ينصحون بعدم إلحاق الأذى بي، كيلا تخرج الأمور عن السيطرة ثانيةً، وقد أرسلوا رسالتين مماثلتين بعد ذلك.

سيذكّرني حديث مدير المنطقة السابق، بالفترة التي كنت أتعرض فيها

لأشد أنواع التعذيب، في فرع المخابرات الجوية بمطار المزة، وكيف توقف التعذيب فجأةً، على الرغم من تهديدات العقيد سهيل الحسن بالمزيد، وبإنزالي إلى القبو الرهيب، وعلى الرغم من بقاء أسئلة طرحوها عليّ مفتوحة، كان المفترض أنّ أردّ عليها، مثلما توقف التحقيق بعد نقلي من باب توما إلى المزة ليلًا، ما جعلني ورفاقي نستغرب الأمر، لكنني أصبحت أعرف الآن، بأن ذلك تزامن مع اغتيال مشعل التمو، وردّ المواطنين الكُرد عبر احتجاجات واسعة، وطريقة معالجة الأجهزة الأمنية لها.

لم يغادر أحدٌ المهجع منذ وصولي، أما الذين أخرجوهم من السجن، فقد أعادوهم إلى مطار المزة لاستكمال التحقيق معهم، حسبَ المعلومات التي أمدنا بها أمجد شاهين. أما الزيارات، فتحتاج إلى واسطة كبيرة ودفع مبالغ مرتفعة كرشاوى، ساهم في ندرتها، عدم علم ذوي معظم المعتقلين بوجودهم هنا.

تلقى أحمد الرقاوي زيارة من ذويه، فأعطاني قطعتين من الملابس الداخلية التي أحضروها له. تمزقت ملابسي الداخلية منذ فترة، فرميتها وبقيت من دونها، بينما احتفظت بقميصي على الرغم من تمزقه في عدة مواضع، لعدم وجود ما يستر جسمي.

بدأت فكرة القيام باستعصاء بالتبلور، قبل ثلاثة أسابيع من نهاية العام، بهدف لفت الانتباه إلى وضعنا، وتحريكه. ناقشنا الفكرة نحن الستة الذين كنا بمثابة مجلس المهجع، أنا وهادي ومحمود وعامر وطبيب الأسنان من التل والمحامي من منطقة الميدان، السجين السابق لمرتين قبل الآن، والذي شاهدت له مداخلات على قناة العربية قبل اعتقالي.

عرض محمود فكرة الاستعصاء، فتخلى عامر عن الصمت الذي التزم به

منذ احتجازه في التابوت، شرح وضع سجن باب توما الذي يعود إلى العهد الفرنسي، وكان يُعرف وقتها باسم سجن الكوبرا، قال بأن فكرة الاستعصاء خاطئة ولن تؤدي إلى نتيجة، فهو لم يكن يعلم بوجود هذا السجن، على الرغم من عمله في المشفى المجاور قبل اعتقاله، ظن العاملون في المشفى وأهل المنطقة، بأنه مجرد مركز أمني صغير، خاصةً أن ما يظهر منه ليس أكثر من حاجز ومحرس على رصيف، يمنع عناصره العابرون من السير عليه، كما أن حركة الناس الكثيفة في باب توما وصوت السيارات الذي لا ينقطع، سيغطي على أي صوت آخر.

انضم المحامي إلى عامر، في معارضة فكرة الاستعصاء. تذكرت نصيحة حسين عيسو، عندما علم بإضرابي عن الطعام منذ اختطافي، وطلب مني إيقافه للبقاء متماسكًا، لأن الموضوع لن يتجاوز جدران الزنزانة، وقد أموت جوعًا من دون أن يعرف أحدٌ عني شيئًا. وقفت إلى جانب المعارضين للاستعصاء، مستندًا إلى المبررات التي ساقها حسين وقتها، أضفت بأنه سيشكل خطورة على حياة المعتقلين، وأن أقل إجراء قد يُتخذ بحقنا، هو احتجازنا في المنفردات. اقترحت الاكتفاء بإيصال المفرج عنهم، صورة عن وضعنا إلى خارج المعتقل، والتواصل مع ذوينا لإبلاغهم بمكان وجودنا.

عَلِمَ أهلي بوجودي في سجن باب توما، فأصبح همهم الأول، إيجاد وسيلة لإيصال الدواء لي. سألتقي بعد سنوات في سويسرا، حيث ذهبت للمشاركة في مؤتمر الحوار بين نظام الحكم والمعارضة، ممثلًا لمكتب المعتقلين، بالشخص الذي حاول إيصاله، فكادت شهامته أن تودي به، أو تضعه على طريق المجهول على أقل تقدير، كما سألتقي بالشخص الذي كاد يتسبب له بذلك.

جريًا على عادتنا في تذكير بعضنا البعض بأرقام هواتف ذوينا، كيلا

ننساها، ليتصل من سيخرج أولًا من المعتقل بهم، راجعت أرقام هواتفي مع رفيقنا الإدلبي المقيم بدمشق، عندما كان على وشك الخروج من باب توما، وسألته عن شخص تربطني به علاقة صداقة ومصاهرة، يقيم في منطقة نهر عيشة بضواحي العاصمة، فذكر بأنه يُعرف باسم شيركو الكُردي، في السوق المغلق بتلك المنطقة، حيث كان يعمل.

عثر رفيقنا المفرج عنه على قريبي شيركو، وأبلغه عن مكان اعتقالي، فاتصل الأخير بأهلي وأبلغهم بالخبر. ذكّره والدي بالمرض الذي أُعاني منه، والدواء الذي لا بد وأن أكون بحاجة إليه، فتعهد بتدبر الأمر. بدأ من عند طبيبي أسامة البارودي، ذهب إليه وأطلعه على وضعي، فحصل على ثلاث علب دواء، بحيث لم يبق أمامه، سوى إيجاد وسيلة لإيصالها.

شيركو من الكُرد المجردين من الجنسية السورية، أعدَّ ملفًا للمطالبة بها، فأدخله ذلك، بالإضافة إلى ملكيته لمحل تجاري وبذله المال لأجل طلبه، في شبكة علاقات أوصلته إلى شخصيات نافذة، من بينها مسؤول كبير عرض عليه خدماته، وبلغت علاقته به من المتانة حد القول، عندما أبلغه بوجود سجين يخصه، مريض بحاجة إلى دواء:

- هذه سهلة، اعطيني اسمه وأنا راح أتصرف.

أعطى شيركو اسمي للرجل النافذ، ففاجأه الأخير باتصال بعد وقت قصير جدًا، أسمعه خلاله ما لم يكن يتوقعه. كان الرجل غاضبًا جدًا، شتمه واتهمه بتوريطه في قضية صاحب الاسم، قائلًا بأن الجهات المسؤولة أرادت التحقيق معه، فور سؤاله عنه، وطلب منه في نهاية المكالمة: قطع علاقته به.

لم يتراجع قريبي عن مسعاه، في إيصال الدواء لي. أوصلته محاولاته إلى أنور علوان، العضو الكُردي في مجلس الشعب السوري، اتصل به، وعندما بدأ

بعرض الموضوع عليه، قاطعه الرجل بانفعال:

- شبال واحد خاين، فضحنا وأساء لسمعة الأكراد وأفقد احترام النظام لهم، وأساء للعلاقات اللي بنيناها معه، لذلك ما بيستحق المساعدة، على العكس، يستاهل كل شيء صار له، حتى إذا كان الموت.

تجاهل شيركو ما سمعه، وتابع طلبه من البوابة الإنسانية:

- أستاذ أنور، أنا ما قلت لك طالعه من السجن، أعرف أن المسألة أكبر من إمكانياتك، لكن الموضوع إنساني، الزلمة مريض ومحتاج للدواء.

بعد مزيد من المحاولات، أبدى أنور علوان مرونةً، قال قبل إغلاق السماعة:

- روح لفرع باب توما وخبرهم أنني بعتتك، وإذا واجهتك مشاكل، اتصل معي وراح أعالجها.

حضر شيركو إلى باب توما، بصحبة رفيقنا المعتقل السابق، الذي دلّه على موقع السجن، وانتظره في السيارة على مقربة، ريثما يوصل الدواء ويعود. تقدم إلى الموقع بثقة، وحيّا عسكريين واقفين إلى جانب محرس، أخبرهما عن وجود سجين يخصه عندهم، وبأنه يريد إيصال دوائه له، فطلبا منه الدخول.

عندما أصبح شيركو داخل المبنى، انهال مجموعة من العساكر بالضرب عليه، وسألوه عمن أخبره بوجود سجناء لديهم، فأعلمهم بأنه قادم بناءً على توصية من عضو مجلس الشعب، أضاف بأنه مجرد فاعل خير، وسيط أراد إيصال الدواء من أهل السجين، وبأن من أرسله، طلب منه الاتصال به عند حدوث إشكال، طلبوا منه القيام بذلك، لكن الطرف الآخر تجاهل اتصالاته.

طلبوا من شيركو هويته، فقدم لهم وثيقة تعريف قديمة، تصدرها السلطة للكُرد المجردين من الجنسية السوريّة، الذين يُعرفون بأجانب

محافظة الحسكة، كان الحرف الأخير من كنيته، غير واضح على الوثيقة لحسن الحظ، فاختلط الأمر على العسكري، حصل تشابه في الأسماء فظنه من عائلة يعرفها، سأله عما إذا كان ينتمي إليها، فغامر وردَّ بالإيجاب.

طلب العساكر من شيركو، مراجعة فرع المخابرات العسكرية في مطار المزة بنفسه، كتب أحدهم عنوان الفرع على قصاصة ورقية ودسّها في يده، طلب منه تسليمها للمسؤولين هناك، فغادر باب توما وقد فهم مما جرى، بأنهم يريدون مساعدته على الهرب، لأنهم لو كانوا أرادوا غير ذلك، لقبضوا عليه ونقلوه بأنفسهم إلى حيث يريدون.

عاد شيركو إلى البيت، حمل الأشياء الهامة، وغادر مع عائلته دمشق إلى قامشلي. اتصل من هناك مع عضو مجلس الشعب أنور علوان، الذي ردَّ عليه بعد عدد من المحاولات، سأله عن سبب تصرفه معه وعدم احترام كلمته، فكرر قوله بأن شبال إبراهيم خائن، وليس شرفًا التوسط له لدى النظام، قاطعه وأغلق السماعة في وجهه، وغادر البلاد عبر الحدود التركية، تابع مع عائلته عملية الفرار، حتى سويسرا.

سأصادف خلال حضوري مفاوضات جنيف، عضو مجلس الشعب أنور علوان، مع مندوب النظام في الأمم المتحدة بشير الجابري، في مطعم الفندق الذي تجري فيه المفاوضات غير المباشرة، بين نظام الحكم والمعارضة السورية، وهو المكان الوحيد الذي يمكن أن يلتقي فيه المتفاوضون وجهًا لوجه، سيأتيان معًا من الجهة المقابلة ويمران من جانبي، لن أتمالك نفسي، سأصرخ عليهما وأُنفذ وصية مشعل التمو (ابصقوا في وجوه جلاديكم)، سيلتفتان إليَّ ثم يشيحان بوجهيهما عني، ويتابعان سيرهما، لكنني لن أكون متأكدًا، فيما إذا كانا سمعاني أو نالهما شيء مني.

على الرغم من قرارنا عدم القيام باستعصاء، إلا أننا وجدنا أنفسنا منخرطين في رد فعل لسبب سطحي، مقارنةً بما نتعرض له طوال الوقت من أهوال، جرى تبنيه وكأنه قضيتنا.

تسللت رائحة الكحول إلى المهجع ليلة رأس السنة، يبدو بأن السجّانين يحتفلون ويشربون، فأظهر أمجد شاهين تبرمه ورفع صوته معترضًا، فتح السجّان كوة الباب وشتمنا جميعنا، بطريقة لم نعهدها من قبل، في باب توما:

- يا أولاد القحبة يا أولاد الشرموطة، خلي هدول اللي عاملين حالهم معارضين بالخارج يطالعوكم، أنتم كلاب، راح تموتوا هون وما حدا راح يسأل عنكم.

حدثت ضجة كبيرة في المهجع، جنَّ جنون أمجد وخبط بيده الباب بقوة، ثم توجه إلينا يطالبنا القيام باستعصاء.

بدأت الأصوات ترتفع والأيادي تخبط الحيطان، كان البعض ينادي الله أكبر، بينما يصيح آخرون لمجرد الصياح، ربما للتأكد من أنهم لا يزالون قادرين على الكلام، ولم ينسوا أصواتهم بعد.

عندما بدأت موجة الأصوات بالانحسار، وقبل أن تعود إلى الارتفاع ثانيةً، جاء صوت المساعد أبو أحمد من وراء الباب:

- كيفكم يا كلاب، لا والله مانكم كلاب، أنتو شباب كويسين وراح تطلعوا من هون.

فتح المساعد كوّة الباب، فساد الصمت، مسح المهجع بعينيه، فتجنب الجميع نظراته، وعندما وصل إلى أمجد، عاد هذا إلى التصعيد:

- إذا ما يصير اعتذار ما راح نسكت، أنا بحكي نيابة عن الكل.

قدم أبو أحمد اعتذارًا:

- أنا بعتذر واللي صار تصرف شخصي، ممنوع على العنصر فتح الباب.

عليكم، نفسياتنا تعبانة وما عم ننزل إجازات، أنتم أولادنا وأخوتنا وراح نطلعوا قريبًا، وما راح تعيدوها.

أُفرغت فكرة الاستعصاء من محتواها وطويت صفحته نهائيًا، بعد أن تم الاستيلاء عليها وتوجيهها إلى حيث يريدون. أشعل السجّان الاستعصاء وقاده أمجد شاهين، كانت النتيجة إدخال وجبة طعام إضافية، طالب بها الأخير، وخرج على إثرها من المهجع مختالًا، وكأنّه لن يعود إليه أبدًا.

كان انتصار أمجد شاهين في الاستعصاء شؤمًا عليه، اهتزت سلطته وفقد هيبته بعد أيام قليلة، عندما أدخلوا ثلاثة من عناصر المخابرات الجوية إلى المهجع، تنفيذًا لإجراء تأديبي بحقهم، عقابًا على سرقات قاموا بها، منها سرقة دراجات نارية.

أهان العناصر الثلاث السجّان عند الباب، كان واضحًا من لهجتهم، بأنهم من طائفة رئيس الدولة، دخلوا إلى المهجع وكأنه من أملاكهم.

سمعهم أمجد وشهد ما جرى، لم يعترض طريقهم، مثلما يفعل عادةً مع كل قادم جديد، لا بل لم يجرؤ على رفع رأسه أمامهم، استغل الانشغال بدخولهم وانسحب منكسرًا إلى خارج المهجع، للسؤال على الأرجح عن حدود سلطته عليهم.

خلال غياب أمجد شاهين، تقرب أتباعه من العناصر الثلاث، وسرعان ما انقلبوا عليه، يبدو بأنهم وضعوهم في صورة الوضع داخل المهجع، فقد بدأ ثلاثتهم بشتم أمجد والسخرية منه وتحديه، فور عودته:

- أنت بدك تعاقبنا ولك يا خرا؟

قابل أمجد شاهين الإهانات المتلاحقة من عناصر المخابرات بالصمت، وكأنّه ليس الحاكم المطلق على المهجع، ولم يقد قبل وصولهم استعصاءً

لسبب مشابه. لم نتدخل من جهتنا في الصراع الدائر بين الطرفين، لم نخالطهم مثلما لم يحاولوا من جهتهم الاحتكاك بنا، وبقيت علاقتنا معه على حالها.

عطّل وجود العناصر الثلاث سلطة أمجد شاهين على المهجع، تحوّل إلى ما يشبه حكومة تسيير أعمال، يقوم بالعمل الخدمي ويتسول رضا الجميع، ليغفروا له ماضيه القذر، لكنه تنفس الصعداء بعد ثلاثة أسابيع، فور مغادرتهم، وأخذ يعمل على إعادة بناء سلطته، واستعادة مكانته مجددًا.

بدأنا نشهد ما يشبه التوجه لإخراج أبناء الأقليات من سجن باب توما، اعتبارًا من يناير ٢٠١٢. بعد مغادرة عناصر المخابرات الثلاث المهجع، أخرجوا خلال يوم واحد، ماهر الدرزي ثم فاضل ونمر العلويين، تلاهما زميلهما في التجمع الماركسي، عيسى المسيحي. أصبحت الجملة المعتادة التي أسمعها من معظم رفاقي هي:

- جهز حالك شبال، بكرة دور الأكراد، دورك في الإفراج عنك.

تمتُ على وقع حركة خروج متسارعة من سجن باب توما، وغلبة الأحاديث عن الخروج، على أي شيء آخر، فوجدت نفسي جالسًا على حقيبتي أنتظر قدوم الباص، عندما جاء من يعلمني بأن والديّ قدما لزيارتي، تبعته، فدخلت مبنى واستقليت مصعدًا وجدته براد خضروات، نزلت به إلى مهجع مستطيل الشكل في نهايته تواليت، كان أكثر ما لفت انتباهي فيه وعلق في ذاكرتي، شكل بلاط أرضيته.

ذهبت فور استيقاظي إلى خالد أبو محمد، الستيني ذو اللحية البيضاء، من قرية صوران بريف حلب، الموسوعي في شؤون السُّجون، والذي يفتخر بأصوله الكُرديّة، ويرتدي شروال يزينه نقشٌ كُردي، لطالما أشار لي أن أنظر

إليه، ويناديني لذلك ابن عمي. حكيت له حلمي، مثلما يفعل كل واحد يرى مناماً، فقال مفسراً:

- المهجع اللي تصفه يا ابن عمي موجود في سجن صيدنايا، أما نزولك بالبراد فمعناه، أنك راح تتعذب كثير، ولكنك راح تطلع بالنهاية من السجن معززًا مكرمًا، حيًا أو شهيدًا.

تناقصت أعداد المعتقلين القادمين إلى سجن باب توما، وتسارعت وتيرة إخراج القدماء منه، أصبح ذلك حدثًا يوميًا، بعد أن كان يتم لمرة واحدة خلال أسبوع، فيغادر في اليوم الواحد حتى خمسة أحيانًا. لم نكن نعرف مصير المغادرين، إلى أن أبلغنا المعتقلون الجدد بمعلومات مفادها، تفريغ سجن صيدنايا من جميع السجناء، بمن فيهم المحكومون لأسباب جنائية والإخوان المسلمون والمتشددون، وذكروا لنا الجولاني وزهران علوش بالاسم.

تحدث هادي عن سجن صيدنايا وكان من نزلائه، اعتقل بتهمة التمويل، بعد تلقيه حوالة مالية بمئة ألف ليرة من أحد أصدقائه في الخليج، لتوزيعها على المحتاجين خلال شهر رمضان. دفع سوء الوضع السجناء إلى تنفيذ استعصاء عام ٢٠٠٨، لكن الوضع ساء أكثر بعده، لأنهم جاؤوا بمدير سجن تدمر الصحراوي محمد نجيب محفوظ، فنفذ إجراءات تأديبية، جعل بموجبها من صيدنايا نسخةً عن تدمر، وكان التنفس من بين الأمور التي ألغاها.

تخوّف خالد أبو محمد من نقلنا إلى سجن صيدنايا، كانت تجربته التي دامت أربعة أعوام هناك، بتهمة الانتماء إلى جماعة الإخوان المسلمين، هي الأكثر مرارةً في التاريخ الذي سطره داخل السُّجون السوريّة، والذي بدأه بست سنوات في سجن تدمر الرهيب، أما وجوده معنا في باب توما، فيعود إلى اتجاره

بالسلاح، ضبطوا معه ثمانية وستين بندقية بمبكشن، حسب اعترافاته التي شاهدتها على التلفزيون قبل اعتقالي، لكنه لم يكن السجين الوحيد لسبب خاص بالسلاح.

معنا في باب توما ثلاثة أشقاء من عائلة لجلج، اثنان منهما في مهجعنا والآخر في ذلك الواقع خلفه، لديهم معمل أضوية نيون في مدينة حماة. أخبرنا أكبرهم، بأنهم كانوا على علاقة جيدة بالأمن العسكري، وصلت إلى حد عقده اتفاقًا معهم بعد بداية الثورة، يقوم على تسليمهم شاحنات محملة بالسلاح لتوزيعه عشوائيًا على المدنيين، بعد ترويعهم مما يجري في البلاد، على أن يزودوا الأمن بأسماء الذين يحصلون على السلاح، مقابل وعد بمبلغ مالي كبير، بحيث تم القبض على معظمهم بسهولة فيما بعد، بجرم الإرهاب وحمل السلاح.

سارت الأمور في البداية على أفضل ما يرام بالنسبة للأشقاء الثلاثة، وزعوا الأسلحة بسهولة وكأنها أضوية نيون، فالتزم الأمن العسكري باتفاقه معهم، منحهم المال مقابل توزيعها، لكن المشكلة ظهرت فيما بعد، فقد تبين بأن جميع أفرع المخابرات، كلّفت متعاملين معها بنشر السلاح بين المدنيين، من دون وجود تنسيق بينها، فحدثت فوضى عندما بدأت جميعها بملاحقة حاملي السلاح، ولم تعد تعرف المكلفين أمنيًا بتوزيعه من الذين يتاجرون به، ليتم القبض على الأخوة لجلج من قبل فرع أمني، غير ذلك الذي عقد معهم اتفاق نشر السلاح، وذلك بناءً على اعترافات أدلى بها لدى ذلك الفرع، بعض الذين استلموه منهم، ليصبحوا بذلك ضحية مشاركتهم في اللعبة المخابراتية.

أنهيت مناوبتي الليلية صباح الثاني من فبراير ٢٠١٢، ثم نفذت حصة التخلص من القمل، فطرتُ بعدها وقرأت تسابيح قبل النوم. كان إلى جانبي

المعضمية، المعتقل بتهمة تمويل الإرهاب، بعد ضبط ميزانية الجمعية الخيرية البالغة مئتين وخمسين ألف ليرة معه، قال لي ممازحًا:

- أنتَ ما راح تطلع من هالسجن، سواء قرأت التسابيح أو ما قريتها.

رد عليه خالد أبو محمد، واثقًا من تفسيره لمنامي:

- راح يطلع غصبًا عنك.

أعطتني العبارة الأخيرة دفعة أمل جديدة، رافقتني إلى النوم. صحوت بعد حوالي ساعتين على صوت، يطلب من الجميع الدخول في الحائط، مترافقًا بصوت ارتطام سلسلة الحديد بالأرض. نظرت عبر الشبك أسفل الباب، فشاهدت سلسلتين على أرض الممر. نادوا على اسمي مع عشرين آخرين من مهجعنا، أخرجونا إلى الممر مطمّشي العيون. أثناء قيدنا إلى السلسلة، توجه المساعد أبو أحمد بالحديث إلي، ثم خاطب الجميع:

- زيفيكس أنت صرت برا، روح للبيت لعند أولادك، خليك عاقل وما بقى أشوفك هون ها. شباب لا تؤاخذونا، هاي كانت الإجراءات، وكل واحد يحاول يصلح غلطه، نحنا ولاد بلد واحد وهاد بلدكم.

جعلني كلام المساعد متيقنًا من ذهابي إلى البيت، إلا أن الشكوك بدأت تنتابني أثناء صعودنا الدرج، عندما بدؤوا بضرب درويش، المعتقل بتهمة التظاهر، حسبما أبلغني. تراجع التفاؤل، مع كل ضربة تلقاها درويش، وقد شعرت بشدتها، عبر تلك الطائشة التي طالتني، لوجوده أمامي، إذ لا يستقيم ذلك مع مزاعم تركنا نذهب إلى بيوتنا.

أدخلونا إلى الباص، مقيدين إلى السلسلة، وأجلسوني مع درويش على مقعدٍ واحد، هو إلى الشباك، وأنا على المقعد الداخلي المطل على الممر. تحرك الباص، فنادى أحدهم:

- وينو درويش؟
- حاضر سيدي.
- أيّ واحد منكم درويش؟
- أنا سيدي، اللي عند الشباك.
- تعا لهون ولاك عرص.

جرّوا درويش ودفعوني إلى مكانه، أجلسوه في مكاني، ثم أخذوا يشتمونه ويضربونه ويطفؤون السجائر بجسمه، فيصرخ ويبكي. على الرغم من الاعتداء الوحشي الذي يتعرض له درويش، بقي لدي بعض الأمل بالخروج من المعتقل، فسّرت ما يجري له - دون غيره - بالحادث الفردي، ربما تصفية حساب ما معه، قبل أن تنقضي الدقائق الأخيرة لوجوده عندهم.

توقف الباص بعد مسافة قصيرة في ساحة، أنزلونا وأبقونا واقفين، وفكّوا أيدينا عن السلسلة الحديدية. على الرغم من أن الوقت شهر فبراير، إلا أنني شعرت بحرارة الشمس تكاد تذيبني، وتسقط الآخرين من حولي.

تعرض كلّ من سقط للضرب، فقررت الصمود للنجاة بنفسي، حركت رأسي لإسناده إلى حائطٍ أقف بقربه، فأمسك أحدهم بشعري وأخذ يضرب رأسي بالحائط الخشن، لأكثر من عشر مرات سريعة ومتواصلة، ثم تركني أعاني من دوّار، يكاد يُغمى عليّ.

صعّب ما تعرضت له مهمتي، لم أنجح في البقاء واقفًا لوقتٍ طويل، استسلمت وسقطت على الأرض، فنالني ضربٌ مبرح، مثل كل الذين سبقوني في السقوط.

كثيرًا ما يلجأ المرء في هذا المكان إلى جلد الذات، بسبب إخلاله بإجراءات، أقل ما يمكن أن يقال عنها أنها غير محققة، تم ترويضه على الخضوع لها، حتى

أصبحت عادةً لا يعود يفكر في عدالتها، وبأنها لا ينبغي أن تكون موجودةً أصلًا. لمت نفسي على عدم الصمود إلى حين استدعائي، وبالتالي السقوط وتعريض نفسي للضرب، فقد نادوا على اسمي قبل الجميع وأدخلوني إلى مكان، لم يكن سوى مكتب أمانات المخابرات الجوية بمطار المزة. سألني أحدهم هناك:

- شبال إبراهيم، أنت إلك عندنا هويتك وخمسمئة ليرة وجهازين موبايل، مو هيك؟

- صحيح سيدي.

تدخل أحدهم من خلفي شاتمًا وركلني على ظهري، فارتطمت بالطاولة:

- جهازين موبايل دفعة واحدة، يا ابن الـ..

اعتدلتُ ثانيةً، فكّوا القيد عن يديّ وطلبوا مني تحريك الطمّاشة إلى الأعلى، بما يكفي لرؤية زاوية أوراق للبصم عليها. رفعت الطمّاشة، فرأيت حزمة كبيرة من الأوراق على الطاولة، وضعت إبهامي على محبرة وبدأت بالبصم عليها، من دون أن أرى المكتوب فيها، وكلما انتهيت من واحدة، رفعها أحدهم لأبصم على التالية. عديت في سري الأوراق التي بصمت عليها خلال أقل من دقيقة، وصل عددها إلى ثمانية وثلاثين.

أخرجوني من مكتب الأمانات وأعادوني إلى الساحة. شعرت بأحدهم يحوم حولي، تأكد لي ذلك عندما وقف أمامي، وطلب مني الوقوف باستعداد وجعل ظهري مستقيمًا، ثم سألني:

- أنت كام ولد عندك؟

- ثلاثة.

ما إن نطقت الكلمة، حتى تلقيت ركلةً من بوطه العسكري القامي، على منطقة العضو التناسلي، ذكرتني بمشهد الصاعقة التي تسقط بلمح البصر،

فتحول غابة كاملة إلى رماد. أتبع العنصر ضربته بقوله:

- أنتو إرهابيين، ممنوع عليكم تجيبو أولاد.

تابع ضربي مع التركيز على منطقة أسفل البطن، فوصل صراخي من شدة الألم إلى عنان السماء، كان حريصًا على التقاط أغراضي كلما سقطت، ووضعها في يدي ثانيةً، ثم متابعة ضربي، وإرغامي على الوقوف كلما سقطتُ من شدته، مهددًا:

- بدي عد للثلاثة، إذا ما كنت واقف بعدها، راح أفتح لك شوارع بجسمك.

انتهى مكتب الأمانات من تسليم الجميع أغراضهم، فتوقف الضرب. أحضروا السلسلة الحديدية وقيدونا إليها ثانيةً، كنت في المقدمة هذه المرة، لذلك أصعدوني إلى الباص أولًا، ثم قادوني داخله إلى أن أوصلوني إلى آخره، وأجلسوني على المقعد الخلفي.

أعادت الأغراض التي سلموها لنا، بعض الأمل بتركي وشأني، فشددت يدي عليها، ولم يقضِ ضربهم للبعض خلال سير الباص على بقاياه، اعتبرت كل ما نتعرض له ثأرًا شخصيًا أو إشباع عقد نفسية للسجّانين، خاصةً أن نظام الحكم لا يبالي كثيرًا، إذا ذهبنا بآثار العنف إلى بيوتنا، فقد سلّم جثة الطفل حمزة الخطيب لأهله، من دون أن يهتم بوجود آثار التنكيل عليها.

أوقفوا الباص بعد حوالي نصف ساعة وبدؤوا بإنزالنا، سقط أول النازلين فور خروجه من الباب، من شدة الضرب الذي تعرض له.

تكرر مشهد وصولنا إلى باب توما، أصبحنا كومة من اللحم البشري ملقاة أمام باب الباص، أعلوها أنا هذه المرة بظهري المكشوف، فتصيبني الضربات أكثر من غيري.

استمر الضرب بالأيدي والأرجل والعصي والخراطيم ومواسير التمديدات

الصحية، وهذه الأخيرة خبرتها لأول مرة في حفلة الاستقبال بسجن باب توما. ماتت آمال الخروج من السجن، دُفنت عميقًا في جراحي.

أجروا لنا التفقد، وسط الضرب والبكاء والصراخ والفوضى الكبيرة، فجهد كل من سمع اسمه، لإخراج يده غير المربوطة إلى السلسلة، من بين الأجساد المحطمة ورفعها، بالتوازي مع الرد بصوته المخنوق، وهو يحاول نفض الوجع عنه:

- حاضر سيدي.

- وينك ولاك ابن الشرموطة؟

- هون سيدي.

نادوا على اسم همام مصطفى طلاس، فأجابهم صوتٌ مبحوح من تحتي مباشرةً، بحيث لم يكن واضحًا لمن يتواجد خارج كتلتنا، وللمنادي على الأرجح، من منا نحن الاثنان، هو همام. سمعت أحدهم يسأل وآخر يرد عليه، بينما هما يقتربان منا:

- مو هاد ابنه لمصطفى طلاس؟

- كلهم نفس الخرا.

أخطؤوا في التعرف إلى همام مصطفى طلاس، التبس عليهم الأمر، فتعرضت للضرب بالمواسير الحديدية بدلًا منه، ولشتائم طالت وزير الدفاع مصطفى طلاس. شعرت بالحديد يحفر في ظهري، فتخرج الدماء مع كل ضربة وتصب في ساقية، لتشكل سيلًا ينحدر نحو الأسفل. بينما لا يتوقف الحديد عن زرع الموت في جسمي، سمعت صوتًا غاضبًا:

- جماعة الجوية حاجتكم ولاك، كلكم بتاكلوا خرا وبتنقلعوا من هون، ما عاد إلكم علاقة معهم، أنا ماني مستعد استلم جثث، ياالله ولاك.

توقف عناصر الجوية عن ضربنا وغادروا مرغمين، يجرون أذيال الخيبة، مثل ضباع تعبت في اصطياد طريدة، وعندما بدأت بالفتك بها، جاء أسدٌ ينازعها عليها.

فكّوا أيدينا عن السلسلة الحديدية، وطلبوا منا أن نرتاح. مددت يدي إلى ظهري، فامتلأت بالدماء ودخلت رؤوس أصابعي في الجروح المفتوحة العميقة، ففكّرت باستحالة نجاتي هذه المرة.

شعرنا بارتياح تجاه المسؤول الذي أنقذنا من بين براثن عناصر الجوية، وكان بذلك أول شخص يمنع عنا الأذى منذ اعتقالنا، أما مفاجأته الثانية فكانت، إبلاغنا عن مكان وجودنا:

- أنتم موجودين عند الشرطة العسكرية بالقابون، وما عاد للجوية شغل معكم، راح تروحوا من هون لمكان تاني.

جعلني حديث المسؤول أشعر، بأننا مقبلون على مرحلة مختلفة، وبأن انفراجة قريبة لا بد مقبلة، خاصةً عندما بدا متعاطفًا معنا، وهو يعرض على كل واحد ممتلكاته:

- أنت إلك عندنا بالأمانات مبلغ ألف ليرة سوري، مظبوط يا ابني؟

- لا يا سيدي، أنا كان معي ألفين ليرة.

- هاد الموجود، جماعة الجوية سرقوكم، احنا مالنا علاقة.

وزعوا الخبز علينا، لم أستطع على الرغم من الجوع الشديد، أكل شيء من رغيفٍ دسوه في يدي، يبدو بأن المسؤول لاحظ انشغالي بأوجاعي، فوضع قطنًا على ظهري ودفعه، فدخل عميقًا في الجروح، آلمني أكثر، فقال محاولًا طمأنتي:

- لا تخاف، ما في شي.

جاؤوا بطبيب، فسأل عمن يتوجع كثيرًا. قبل أن يرد عليه أحد، قال له

المسؤول في إشارة إلي، كما هو واضح: ضربوا هذا أكثر من غيره.

كشف الطبيب على ظهري، ثم صبّ السبيرتو عليه، شعرت بأن قلبي انفجر وبأشلائي تبعثرت في الهواء، ترافق ذلك مع صوت انفجار شديد قادم من بعيد، انفتح على أثره صوت الإنذار في سيارة قريبة. تأخر نقلنا بسبب الانفجار حوالي ساعة، قيدوا أيدينا في نهايتها، وأصعدونا إلى حافلة شديدة البرودة.

تبين بأنهم لم يقيدوا يدي أحد رفاقنا، لأن إحداهما انكسرت من الضرب، فرفع الطمّاشات عن عينيه ثم عن عيوننا جميعنا، لنجد أنفسنا، بعددنا الذي يتجاوز الثلاثين في حافلة، هي عبارة عن براد لنقل المواد الغذائية.

بحثت عن حسين عيسو، فلم أجده، سألت عنه، لكنّ أحدًا لم يره أو يسمع عنه شيئًا. بدأت أفكار سوداء حول مصيره، تدور في رأسي.

فتح سجّانٌ يرتدي قبعة الشرطة العسكرية، الكوّة المغطاة بشبك حديدي في مؤخرة الحافلة، وراح يشتمنا ويتوعدنا بسبب رفعنا الطمّاشات، ويطلب منا التوقف عن الكلام، لكن أحدًا لم يبالي بتهديداته.

شكّل المكان الذي سيأخذوننا إليه أكبر هواجسنا، كالعادة، قال البعض بأننا على طريق سجن عدرا، بنما خمّن البعض الآخر، بأنه طريق سجن صيدنايا.

الفصل السابع: صيدنايا

الجحيم المستعر

انحرفت الحافلة عن الشارع الرئيسي ودخلت في آخر فرعي، توقفت ثلاث مرات على ثلاث حواجز متقاربة، لوقت قصير في كل مرة، شاهدتُها عبر الشبك الحديدي بعد مرورها منها، وصلت بعد الحاجز الثالث إلى ساحة وتوقفت في وسطها، توقف محركها فساد صمتٌ قاتل، أنهاه صرير فتح بابها الخلفي، ثم صياحٌ يطلب منا النزول.

تقدمت نحو باب الحافلة، سمح لي وجودي داخلها، على ارتفاع عن الأرض، وارتفاع طمّاشة العين قليلًا نحو الأعلى، برؤية عشرات العساكر بالزي المموه الخاص بالحرس الجمهوري والوحدات الخاصة، من دون رؤوسهم، يصطفون بمواجهتها بوضعية التحفز، مثل أشكال حجرية أنتجها قالبٌ واحد، لولا اختلاف أدوات الضرب التي يحملونها، وكأنّ كل واحد حمل على عجل ما طالته يديه، خلال مسارعته إلى هذا المكان، يقبض على أحد طرفيها بيمناه، تاركًا طرفها الآخر يرتاح على راحة اليسرى، المفتوحة للأعلى.

مديت قدمي للنزول من الحافلة، أخطأت في تقدير المسافة الكبيرة بين درجتي سلمها الحديدي، فدخلت في الفراغ الكبير بينهما، تعثرت وسقطت على وجهي، وهو ما تعرض له معظمنا.

طلب منا السجّانون رفع الطمّاشة قليلًا، بالقدر الكافي لرؤية الأرض، والوصول إلى أغراضنا المبعثرة، وحملها ثانية. استعجلونا وهم يشيرون إليها:

- هالموبايل إلك؟ هالغرض إلك؟ هذا إلك؟ شيله بسرعة، استعجل، استعجل ولاك.

بعد أن أصبحت أجهزة الموبايل وأشيائي الأُخرى بين يدي المقيدتين، ولم يبقَ لأحد شيءٌ على الأرض، بدأنا نتعرض للضرب من الجنود، باستخدام أيديهم وأرجلهم والأدوات التي يحملونها. استمروا باستهدافنا بعد سقوطنا تحت وقع ضرباتهم، التي أرغمتنا شدتها على الوقوف مجددًا، ثم لم تلبث أن أسقطتنا، لنعود للوقوف في كل مرة على أمل النجاة، بحيث أصبحنا في حلقة مفرغة من الضرب والسقوط، نهرب منه إليه.

استمرت حفلة الاستقبال في الساحة ما يقارب الساعة، غيرّوا بعدها من تكتيكاتهم، فعمدوا إلى حصارنا وضربنا من ثلاث جهات، بطريقة أرغمتنا على التوجه عبر منفذ وحيد تركوه لنا، انتهى إلى مكان مغلق، كان واضحًا من أرضيته الدهنية وبقايا البرغل عليها، بأنه مطبخ، ألقونا فوق بعضنا البعض مثل ذبائح هناك، فوضعني حظي السيء مرةً أُخرى في أعلى الكومة، حيث ظهري المليء بالدماء نحو الأعلى.

يعتبر الجلّادون بحكم الخبرة، بأن المعتقل الذي تظهر عليه آثار التعذيب أكثر من غيره، من أخطرهم وبالتالي من أكثر المغضوبين عليهم، في المكان الذي أحضروه منه، أما ما عزز فرضيتهم هذه بالنسبة لي، فكان جهازَي الموبايل بين يدي، اللذين يدلان على أنني شخصٌ غير عادي، وقد تعاملوا معي على هذا الأساس، فراحوا يذكرون مع كل ضربة يوجهونها لي، عدد الأجهزة التي أحملها، إلا أن ما خفف من كثافة الضربات وحجم الأذى، عددهم القليل، مقارنة بالذين في الساحة. بعد حوالي ساعة، أصدر صوتٌ أمرًا:

- خليهم كلهم فوق بعض.

يبدو بأننا مقسّمون إلى مجموعتين، ويريدون جمعنا معًا وجعلنا كومة واحدة. انصرف الجلّادون عنا، وانضموا إلى رفاقهم في ضرب أفراد المجموعة الأخرى، وتوجيههم للصعود فوقنا، ثم تابعوا ضربهم إلى أن أسقطوهم علينا. ازداد الثقل عليّ، كلما صعد واحدٌ على سطح مجموعتنا، وعندما أصبح الجميع في الأعلى، لم أعد مكشوفًا للضرب، لكنني بتُّ عاجزًا عن الحركة، وأجد صعوبة في التنفس.

أصبحنا مجموعة واحدة، فتوقفوا عن الضرب وطلبوا ممن يسمع اسمه التوجه إليهم. واجهتنا مشكلة اضافية، إذا لم يكن المنادى عليه في أعلى الكومة، فقد احتاج إلى جهد كبير، لتحرير نفسه من حطام الأجسام فوقه، وكأنّه يخرج من تحت أنقاض منجم انهار عليه، ازدادت مهمته صعوبةً، كلما كان بعيدًا في الأسفل.

بعد أن صغُر حجم الكومة، بأن انخفض عددنا إلى النصف تقريبًا، سمعت اسمي:

- شبال إبراهيم، وقف على حيلك ولاك!

أنا عاجز عن الحركة فكيف بالوقوف، حطمني الضرب وسحقتني مثل حجري رحى، الأجسام التي وقعتُ في وسطها. أمسك أحدهم بشعري، ثم جرّني وراءه على الأرض الدهنية القذرة، قال وكأنّه يغبطني:

- لكان يا عمي لكان، موبايلين وفوقها عم تتدلل، أنت شغلتك شغلة والله!

لم أعد قادرًا على تحريك قدميّ ودفع جسمي بهما، للتخفيف من الألم في فروة رأسي، مثلما فعلت من قبل، في الاستقبال الأول بمطار المزة، لكن وزني الذي خفّ كثيرًا، ساعد في نقلي بسهولة.

ترك العنصر شعري بعد مسافة تزيد عن عشرة أمتار، في مكتب الأمانات،

فتلا أحدهم عليّ بياناتي الشخصية، وسألني عن صحتها، أكدتها فأضاف:

- أماناتك هي تلفونين وخمسمية ليرة، في شي غيره؟

- لا سيدي

طلب مني مسؤول الأمانات البصم على الموجودات، ففعلت. فكّوا القيد عن يديّ، وأخرجوني من المكتب، أجلسوني في مكانٍ به آخرون، يبدو بأنهم شكلوا منا مجموعة من سبعة أفراد.

سمعت في تلك الأثناء أصواتًا، تبدو قادمة من حفرة عميقة مجاورة، لأشخاص يتعرضون للضرب، أما الغريب فيما يجري فكان، الصفير الذي يسبق كل ضربة، ويشبه ذلك المرافق لإطلاق الصواريخ، ثم ينتهي بما يشبه الانفجار، يعقبه صراخ مع صدى متدرج لا يلبث أن يتلاشى، الأمر الذي ذكّرني بعمل حفارات آبار المياه الإرتوازية، وجعلني شبه متيقن من أننا غير موجودين في سجن عدرا، بل أُرجّح مقر الفرقة الرابعة التي يقودها شقيق رئيس الدولة، نظرًا إلى الزي العسكري المموه للجنود، وأسلوب التعذيب غير المسبوق.

أمرونا بالوقوف، وطلبوا من أحدنا إمساك عصا سجّان بإحدى يديه، ومدّ الأُخرى لآخر ليمسك بها، لنصبح بذلك سلسلة سارت خلف سجّان، حذّرنا شاتمًا من الوقوع، قبل أن ينزل بنا درجًا شبه دائري، أبعدنا عنه على عمق حوالي طابقين تحت الأرض، ثم طلب منا التعري، فخلعت ملابسي كلها، باستثناء الطمّاشة.

صدر لنا أمرٌ جديد بالانبطاح فنفّذناه، كنت الثاني في صف العراة الممددين على بطونهم، أُمِرنا برفع أرجلنا فثنيتهما عند الركبة إلى الداخل، بحيث أصبح أسفل القدمين إلى الأعلى. أعطانا أحدهم تعليمات العقوبة التي

سينفذها:

- راح أمر عليكم بالدور، وأضرب كل واحد ضربة وحدة كل مرة. كل واحد يعد ضرباته بنفسه، لحتى يصيروا مئة. إذا ما نزّلتوا رجليكم، فراح تنتهي حفلة الاستقبال، أما اللي بينزلها، فراح تتضاعف الفلقة وتطوّل الحفلة، ويصيروا مئتين.

- أنا منهكٌ لا أقوى على الحراك، نضبت قواي ولم يعد لديّ ما يكفي منها لعد الضربات، فكيف بتحملها؟

بدأت حفلة الاستقبال الثانية، ذات المئة ضربة في القبو، سمعتُ دويًّا أعقبه ما يشبه الانفجار، الأمر الذي فسّر لي الأصوات التي سمعتها، عندما كنت في الساحة. سقطت قدما أول واحد بدؤوا به على قدميّ، ودفعتهما باتجاه قدمي جاري على الطرف الآخر، فسقطتا مع أقدام الآخرين على الأرجح، مثل أحجار الدومينو. عدّ أحدهم الضربة الأولى، وقال:

- أول واحد، أنتَ صاروا مئتين.

جاء دوري بعده مباشرةً، أُصبت بالصمم لحظة سقوط كتلة ثقيلة على قدميّ، قاسية ولكن طرية أيضًا بعض الشيء، شعرت بها تصهر لحمي وتطحن عظامي، فأخرجت صرخة من أعماق بطني، جرفت معها أحشائي إلى الخارج. سقطت قدماي على الأرض، فأصدر صوت العدّاد نفسه حكمه عليّ:

- أنت كمان صاروا مئتين.

- يا إلهي! كيف سأتحمل مئة ضربة أُخرى، بل مئة وتسعة وتسعين حسب قواعد الاستقبال، إذا كانت أول واحدة أنهتني؟

تابع الجلّاد مروره على البقية، منتقلًا من واحد إلى آخر. تساقطت أقدام الجميع من ضربته الأولى، فأعلن الصوت الذي يشاركنا العد، النتيجة النهائية

للجميع، في نهاية الجولة الأولى:

- المجموعة كلها صاروا مئتين ضربة.

بدأت الجولة الثانية، عجز جاري الذي تلقى الضربة الأولى عن رفع رجليه، وعندما فشل الجلّاد في إرغامه على رفعهما، شتمه:

- ارفع رجلك يا ابن القحبة يا ابن الشرموطة..

توجه الجلّاد إلى زملائه، بعد تأكده من استحالة رفع رفيقنا لقدميه:

- حطوه بالدولاب، وثبتوا رجليه بالخشب.

يبدو بأن الأمور جاهزة، فهم متأكدون من عدم صمود أحد، أمام أداة الضرب الرهيبة. أدخلوا جاري في الدولاب، وطلبوا منه مشاركتهم عد الضربات، تباطأ صوته وضعُف إلى أن انقطع، وكأنّه تعرض لتخدير يسبق عملية جراحية، إلى أن نام بعمق في النهاية، فتابعوا لوحدهم العد، حتى وصلوا إلى السبعين، ثم توقفوا وأخرجوه من الدولاب.

جاؤوا إليّ ثانيةً، أرادوا هذه المرة مساعدتي، بتثبيت قدميّ بين عصاتين مربوطتين بحبال، لكن الجلّاد منعهم قائلًا:

- لا لا، هاد شايف حاله قبضاي وبيتحمل، شوفوا رجليه المرفوعتين.

خيّبتُ ظنّهُ للأسف! لم أتحمل ضربته، فسقطت قدميّ على الأرض ثانيةً. رفعتهما مجددًا استعدادًا للجولة التالية، فلم يكن مصيرهما أفضل. تمكنت من الوصول إلى الضربة الخامسة، أصبحت بعدها عاجزًا عن رفع قدميّ، ففعلوا ذلك بأنفسهم وثبتوهما بين عصاتين. تلقيت حوالي ستين ضربة، وهو ما ناله باقي أفراد المجموعة، فاكتفوا بذلك القدر، ولم يكملوا إلى العدد الذي حددوه في البداية.

طلب السجّانون منا الوقوف، فنهضتُ بصعوبة، دفعونا إلى أن حشرونا في

مكانٍ ضيق، عراةً ملتصقين ببعضنا. بدأنا بالمراوحة في المكان من شدة الألم في أقدامنا، إلى أن تلقينا تهديدًا صريحًا:

- لا حدا يتحرك سنتمتر واحد من مكانه لحتى نعطيكم أمر، واللي بنشوف طمّاشته متحركة، فراح نتـ... أخته.

تجمدنا في أمكنتنا، لم نعد ندري فيما إذا كانوا ما زالوا معنا، أم تركونا وذهبوا، فعلى الرغم من أن أيدينا لم تعد مقيدة، إلا أن أحدًا لم يجرؤ على تحريك طمّاشته، ليستطلع الأمر. تلقينا أمرًا جديدًا بعد قليل:

- الكل يشلح الطمّاشات، وواحد منكم يجمعها ويحطها عند الباب، لا حدا يتحرك من مكانه ولا حدا يلبس شيء، لحتى نعطيكم الأمر بكرة.

أزلنا الطمّاشات وألقيناها جانبًا، فوجدنا أنفسنا محشورين في مساحة ضيقة جدًا، هي عبارة عن تواليت، يقع خلف نصف حائط داخل زنزانة. جمع رفيقنا الدرعاوي الطمّاشات، وأخذها إلى حيث طلبوا، أبلغنا بعد عودته، بأنه رأى ثيابنا ملقاةً وراء الباب. سمعنا صوت أحدهم متوعدًا:

- إذا فتحت الشرّاق وشفت ابن شرموطة منكم أو أي شيء يبين منه، فراح طالعه للممر، وأنتم ما بتعرفوا شو يعني الطلعة للممر، لكن راح تعرفوها بعدها بالتأكيد.

كيلا يظهر أحدنا للجلاد، الذي أخذ يفتح كوّة صغيرة في الباب من وقتٍ إلى آخر، للتأكد من وجودنا في التواليت، اتخذنا وضعيات مختلفة، للاستفادة من كل سنتمتر في المكان، بقي بعضنا واقفًا، ولكن محني الظهر بمستوى ارتفاع الحائط، بينما جلس البعض الآخر، ضامًا ركبتيه إلى صدره، أو متكورًا على نفسه على الأرض.

لم يكن يُسمع في المكان صوتٌ آخر، سوى ارتطام قطرات مياه بالأرض،

ترشح برتابة، من حنفية تعلو حفرة التواليت بحوالي نصف متر. أدرنا الحنفية نريد أن نشرب، إلا أنها لم تخرج أكثر من تلك القطرات القليلة، لم يتغير وضعها عندما أدرناها بالاتجاه المعاكس، وعندما أحكمنا إغلاقها، لم تتوقف القطرات عن السقوط بالرتابة نفسها، وبذلك لم يبق لنا سوى الاستفادة منها بالتناوب، بأن يضع كل واحد يده تحتها، ومسح شفتيه بما يتجمع فيها.

بقينا على تلك الحال طوال الليل، عراةً في أجواء برد قارس، لم نعرف خلاله النوم، باستثناء إغفاءات قليلة أنها كوابيس، بالنسبة للجميع على الأرجح. امتلأت أرضية التواليت بالدماء من جروحنا المفتوحة، واصطبغت بها الجدران نتيجة ملامستها. أصدروا أمرهم الخاص بالملابس في الصباح الباكر، الساعة الرابعة أو الخامسة منه:

- الكل يلبس ثيابه ويرجع لمكانه.

سارعنا إلى ثيابنا خوفًا من العواقب، ومن أن يأخذوها إذا ما تأخرنا، بحيث لن يبقى لنا ما يسترنا في ذلك الزمهرير، خاصةً أننا عشنا إحراجًا لا يوصف خلال الليل، بسبب احتكاك أجسادنا العارية ببعضها.

وجدنا أمامنا كومةً من الخرق البالية، داكنة اللون عديمة الملامح، قاسية ملتصقة ببعضها، بعد أن تشربت بالدماء والدهون والقاذورات، جعلتنا أمام تحدي جديد، هو تعرف كل واحد على ملابسه، وفصلها عن ملابس غيره ومن ثم ارتدائها. لم أعثر على ملابسي الداخلية، لكنني استطعت بعد جهد، التعرف إلى قميصي وبنطالي، فارتديتهما بصعوبة.

يرتدي رفاقي ملابسًا مناسبة إلى حد ما، لهذا الجو البارد، منها بيجامات وكنزات دافئة، ربما بسبب اعتقالهم ليلًا أو خلال الشتاء الحالي، أما أنا فأرتدي بنطالي وقميصي الصيفيين، اللذين كنت أرتديهما عند اختطافي قبل

شهور طويلة، وقد أصبحا بمرور الزمن وما تعرضا له، في حالة يرثى لها.

عدنا إلى التواليت، لإخفاء أنفسنا من الجلّاد. حلّت الملابس مشكلة البرد إلى حد ما، واحتوت عرق الأجساد المدماة، لكنها تسببت بمشكلة أُخرى، جعلت رائحتها الكريهة المكان لا يطاق، فانتاب الجميع شعورٌ بالغثيان والاختناق.

طلبوا منا بعد ساعات طويلة مغادرة التواليت إلى الزنزانة، والالتزام بالأوامر الجديدة:

- الكل جاثيًا وما بدي شوف حدا منكم على مقعدته، تبقون جاثيًا لحتى صدور أمر النوم، وساعتها تفرشون وحدة من البطانيتن على الأرض وتتغطون بالثانية. توقعوا أفتح الشرّاق بأي لحظة، لأشوف إذا في حدا عامل حاله زلمة ومغير وضعيته، أو مو نايم بعدين.

اتخذنا وضعية جاثيًا على أرض الزنزانة، المبتلة تمامًا بالمياه التي ترشَح من سقفها، بشكلها المربع وحجمها الذي يصل إلى مترين مربعين، والتي تشبه تلك التي أُحتجزت فيها في باب توما، فهناك نصف حائط في نهايتها، يقع خلفه التواليت الذي حُشرنا فيه ليلة أمس ومعظم نهار اليوم، وهو يأخذ من مساحتها حوالي ستين سنتمترًا، أما مدخل التواليت فيصل إلى حوالي أربعين سنتمترًا، بحيث يصبح حجم الزنزانة الفعلي المخصص لإقامتنا ونومنا نحن سبعتنا، مترين بمتر وأربعين سنتمترًا.

بينما كنت أفكر بكيفية النوم بثيابي المتحجرة القذرة، على بطانية ستبتل لحظة فرشها على الأرضية المغطاة بالمياه، شاهدت عبر الشبك الموجود أسفل باب الزنزانة، أحزمة بلاستيكية في الممر، بعرض كف اليد، بالإضافة إلى قطع صغيرة متناثرة حولها. سأعلم فيما بعد، بأنها أحزمة محركات الدبابات، تم

تقطيعها إلى شرائط طولية، لاستخدامها في ضربنا.

بقينا جاثين على ركبنا في وضعية التحفز، في الوقت الذي لم يتوقف فيه الجلّاد عن استفزازنا، بفتح شرّاق الباب واغلاقه، إلى أن أصدروا لنا أمرًا بالذهاب إلى التواليت مجددًا، فأسرعنا وأخفينا أنفسنا خلف الحائط، وبعدما سمعت صوت فتح الباب ومن ثم إغلاقه، طلبوا منا العودة إلى الزنزانة.

تمكنت على الرغم من الضوء الخافت، من مشاهدة رغيف خبز وعلبة بلاستيكية، ملقيين وراء الباب، سمعنا في تلك اللحظة صوتًا من الممر:

- معكم خمسة دقائق للأكل والرجوع إلى وضعية جاثيًا.

كان رغيف الخبز يابسًا، أخضر اللون من العفونة، أما العلبة ففيها حفنة برغل، تقدر بثلاثة إلى أربعة ملاعق أكل، قطعة بطاطا صغيرة، بيضة واحدة وحبتي زيتون. نظرنا إلى بعضنا البعض تحت وقع الصدمة، والأكيد هو أن سؤالًا واحدًا دار في رؤوس الجميع:

- كيف سنأكل؟ كيف سنشبع بهذه الكمية، ونحن لم نذق شيئًا منذ أمس، وبعضنا قبله؟

امتنع اثنان من المجموعة عن تناول الوجبة، انضممت إليهما وهو ما فعله آخر، فبقي ثلاثة، اقترح واحدٌ منهم علينا نحن الممتنعين، بأن يتناولوا هم الوجبة اليوم، على أن يتنازلوا لنا عنها غدًا، فاعترض زميلاه الآخران، وقالا بأنهما سيأكلان اليوم وغدًا أيضًا.

لم يكن تناول الطعام يحتاج في الواقع سوى إلى ثواني قليلة، عدنا بعدما التهموه إلى وضعية جاثيًا، وعاد الجلّاد إلى لعبته المستفزة، في فتح الشرّاق وإغلاقه.

صدر أمر النوم أخيرًا، فتحررنا من وضعية الجلوس جاثيًا. مددنا واحدة من البطانيتين على الأرض، واتخذنا وضعية التسييف عليها، كل إثنين مقابل بعضهما البعض. رددت ركبتيّ على بطني من شدة البرد، وقبل أن أُخفي رأسي تحت البطانية الثانية، ألقيت نظرة على السقف، فشاهدت على ضوء لمبة صفراء، على ارتفاع أكثر من مترين، قطرات مياه معلّقة به، على وشك السقوط من بين شباك عناكب، تملأ الزوايا أيضًا.

شعرت ببعض المواساة من وجود العناكب، وبالتعاطف معها، فكّرت بأنها مثلنا كائنات بريئة، نتشارك معًا هذا المكان البغيض المجهول رغمًا عنّا، من دون أن نرتكب ذنبًا. كان آخر ما خطر لي، وقد أصبح جفناي ثقيلين، تساؤل عن الجرم الذي ارتكبتهُ، لأكون محشورًا في أعماق الأرض، في مكان ضيق رطب، مغلق كعلبة سردين.

أصدروا أمر الاستيقاظ من دون تعليمات إضافية، في وقتٍ وصلت فيه زقزقة عصافير بعيدة. أشار لنا زميلنا الدرعاوي، يدعونا إلى الاقتراب من حائطٍ يقف قبالته. شاهدنا على الحائط جملةً، لم ينجح الدهان في إخفائها: (الشهداء الذين تم إعدامهم في سجن صيدنايا عام ٢٠٠٨)، يليها عدد من الأسماء المسبوقة بأرقام متسلسلة. عثرنا على مزيد من الكلمات الظاهرة بصعوبة من تحت الدهان، الأمر الذي يؤكد بأن هدفهم منه، هو إخفاء ما كُتب على الجدران، وقد نجحوا في ذلك إلى حدٍ كبير، إلا أننا استطعنا قراءة جملة أُخرى (خرجت بعد ١١ يوم)، مع إضافات (١٩ يوم، ١٧ يوم)، يبدو بأن أصحابها كتبوها، بعد إبلاغهم بتحضير أنفسهم للخروج من هذا المكان، الذي لم تحسم الكتابات اسمه.

يعرف كل اثنين على الأقل من المحتجزين معي بعضهم، لأنهم من منطقة

واحدة، ومعتقلون على خلفية قضية مشتركة، سألت فيما إذا كان أحدهم التقى حسين عيسو أو سمع عنه شيئًا، حسين علي العيسى حسب اسمه الرسمي، والذي أجهل وضعه منذ تفريقنا، فأخبرني عماد الأجرد، بأنه كان محتجزًا مع شخص يحمل ذلك الاسم، في قاعة المدرج بمطار المزة، أضاف للتأكد من أنه الشخص نفسه الذي أقصده، بأن حسينًا الذي عرفه كان ملحدًا، وعندما أكدت له صحة ما ذكره عنه، تابع قائلًا:

-لكن ما لا تعرفه، هو أن حسين كان يصلي في الأيام الأخيرة ويكثر من الأدعية، ولما سألته عن التغيير اللي صار معه، قال بأننا راح نرجع كلنا إلى الله بنهاية المطاف.

ساء وضع حسين عيسو الصحي كثيرًا وكان يتوجع باستمرار، فطلب نقله إلى المشفى. رجاه الجميع طرح الفكرة من رأسه، لأن أقرب مشفى إلى مطار المزة، يُتوقع أن يأخذونه إليه، هو مشفى ٦٠١ العسكري، وإذا حصل ونقلوه إليه، فسوف لن يعود منه سالمًا، حسب سوابق شهدها المعتقلون، لكنه لم يعد يحتمل الألم، فقال بأنه سيذهب مهما كان الثمن.

عندما أخذوا حسين عيسو إلى المشفى، كان أكثر ما يؤلمه رجلاه وظهره، ويعاني من صعوبة في الحركة، أما عندما أعادوه بعد يومين، فكان عاجزًا تمامًا عن الحركة ويخرج الدم من فمه، بحيث صار رفاقه في المهجع يحملونه إلى التواليت ويعيدونه منه.

بقي حسين ممددًا على ظهره وينزف من فمه، فنادى رفاقه مجددًا على السجّان، الذي فتح الباب ونظر إليه ثم ذهب، وعندما عاد بعد حوالي ساعة، توجه إليه قائلًا:

-روح موت ببيتك، ولا تساوي حالك بَطل علينا.

أخذوا حسين، ولم يعيدوه بعد ذلك.

جاؤوا في اليوم الثاني بالوجبة اليومية، رغيف عفن أخضر مع قليل من البرغل وقطعتي بطاطا مجددًا، مع ثلاث حبات زيتون هذه المرة، بدلًا من اثنتين، وهي كميّة لا تكفي شخصًا واحدًا.

حدثني عماد الأجرد عن فوائد الخبز العفن للمعدة، فأظهرت نفسي مقتنعًا بما قاله، في وقتٍ جعلني الجوع مستعدًا لاكتشاف فوائد أي شيء، قابلٌ للعبور إلى المعدة، حتى إذا كان سمًّا، ونصحني بأن أُغمض عينيّ وابتلعه، إذا كنت أقرف منه، أو أذهب إلى التواليت وأضعه تحت قطرات الماء المتساقطة من الحنفية، إلى أن ينظف من العفن ويطرى، فأكلت قليلًا منه، بالإضافة إلى حبات الزيتون الثلاث، التي تنازل رفاقي عنها.

جعلوا من طريقة تقديم الطعام، علاوةً على رداءته وقلته، وسيلة تعذيب إضافية على مدار اليوم، يبدأ تنفيذها عند موعد الاستيقاظ في الصباح الباكر، حيث نشم رائحة الطبخ الذي يبدؤون بإعداده في ذلك الوقت، فيستيقظ وحش الجوع الذي لم ينم أبدًا، ثم نشاهد حوالي الساعة العاشرة صباحًا، عبر الشبك أسفل باب الزنزانة، أرجل العناصر الذين يضعون قصعة الطعام أمامه ويهرعون مبتعدين. دفعتني طريقة تصرفهم هذه، إلى الشك بكونهم معتقلون مثلنا.

يخضع إدخال قصعة الطعام إلى الزنزانة لمزاج الضابط المناوب، فهي تبقى أحيانًا أمام الباب، إلى وقت متأخر من الليل، بينما تبقى عيوننا الجائعة معلقة بها، نترقب اللحظة التي سيفتحون فيها الباب ويدخلونها. ينهار البعض من الجوع أو يفقد المقاومة خلال الانتظار، فيغامر مقتربًا من الباب لشم الطعام، أو محاولة اكتشاف ما بداخل القصعة، على الرغم من أن ما فيها لا

يختلف من يوم لآخر.

لم يكن الطعام يبرد ويصبح حامضًا فحسب، بل يفقد قيمته الغذائية، هذا إذا كان يمتلك قيمة أصلًا.

مرت علينا خمسة أيام في هذه الزنزانة، لم يوفروا لنا خلالها شربة ماء واحدة، فاخترعنا طريقة للاستفادة من القطرات التي ترشح من الحنفية. كنا نذهب حسب الدور إلى التواليت في البداية، فيضع كل واحد يده تحت الحنفية، ويبقى لمدة تكفي لتجمع قطرات من الماء فيها، فيستخدمها لترطيب شفتيه، إلى أن كسر رفيقنا من درعا، إحدى زوايا علبة البلاستيك الصغيرة التي أحضروا فيها الطعام، ووضعها على كيس خبز فارغ، ثم ثبتها بضم الكيس عليها من جميع الجهات، ووضعها تحت الحنفية على أرض التواليت، وكلما تجمع فيها قليل من الماء شربه أحدنا، على الرغم من أننا لم نعرف مصدره. لم يكن السؤال حول صلاحية الماء للشرب مطروحًا، في ظروف العطش الشديد تلك.

كنا على يقين، من عدم ملاحظتهم الكسر في العلبة، أو اختفاء كيس الخبز الفارغ، لأن العلب التي يحضرون فيها وجبة الطعام، معظمها مكسورٌ، أما كيس الخبز، فهم يعطونه عادةً مع الرغيف الأخير الذي يتبقى فيه، بعد توزيع الأرغفة الأُخرى على الزنزانات السابقة، وقد صادف وأن حصلنا على كيس بداخله رغيف، فاحتفظنا به.

حققت طريقة تجميع المياه بتلك الطريقة فوائد عديدة، منها بالإضافة إلى الشرب، وتجنب لفت انتباههم إلى وجودنا في التواليت لمدة طويلة، الحصول على بعض الهدوء، نتيجة انخفاض صوت ارتطام قطرات الحنفية بالأرض.

اكتشف رفيقنا من درعا، وهو أكاديمي عمل في دول الخليج، طريقة ثانية

للحصول على المياه، بكمية أكبر. كانت المواسير التي تصل إلى حنفية التواليت خارجية، معلقة على الحائط، حرّكها مرةً فنزلت منها دفعة واحدة، كمية من المياه تقدر بعشرات القطرات، إلا أن محاذير هذه العملية كبيرة، والاستفادة منها ممكنة مرات معدودة في اليوم الواحد، فتجمع المياه في المواسير يستغرق وقتًا طويلًا، وينبغي تحريكها في أوقات الذروة، عندما تحدث ضوضاء خلال احضار معتقلين أو اخراجهم على سبيل المثال، بحيث تغطي على الصوت الصادر عن تحريك المواسير، وبالتالي لا يتم اكتشاف الأمر.

أبلغونا في اليوم السادس، بأننا ستحصل على المياه لمدة نصف ساعة، وعلينا أن نستحم خلالها، ثم رموا لنا قطعة صابون عسكرية عبر الشرّاق، وطلبوا منا إبقاء علبة الحلاوة التي سيحضرون فيها وجبة الطعام، من أجل استخدامها في الاستحمام.

وصلت المياه بعد وجبة الطعام، استحمينا سبعتنا وغسلنا ثيابنا على الرغم من برودتها الشديدة، خلال نصف الساعة التي حددوها لنا، ثم عادوا إلى قطعها. كانت المشكلة الكبيرة التالية التي لم نفكر فيها، هي في كيفية تجفيف ثيابنا.

اقترح زميلنا حرّان، اشتراك كل اثنين بعصر ملابسهما ومن ثم ارتدائها، قائلًا بأن حرارة الجسم ستتكفل بتجفيفها. كان ارتداء الملابس المبتلة في تلك الظروف، بمثابة عقوبة لا بديل لها، عندما أرغمت نفسي على تنفيذها، ندمت أشد الندم على غسلها، شعرت بأنني أغطس في برميل مياه باردة، تجمدت ثم أطبقت عليّ وضغطت على جروحي، وحولتني إلى كتلة جليد. احتجت إلى وقت طويل، حتى بدأ جسمي باحتواء برودة الملابس والتكيّف معها، ثم التغلب على رطوبتها.

لم يتوقف وصول المعتقلين إلى هذا المكان، كلما وصلت مجموعة جديدة، طلبوا منا الدخول إلى التواليت وإخفاء أنفسنا وراء حائطه، لم يكتفوا بفتح الشرّاق للتأكد من التزامنا بأمرهم، بل فتحوا الباب بشكل مباغت أحيانًا. كانوا يكررون ما فعلوه بنا، بالمعتقلين الجدد، بدءًا من ضربهم في الساحة، حيث تصلنا الصرخات من الأعلى، ومن ثم إنزالهم إلى الممر أمام باب الزنزانة، والطلب منهم الانبطاح، والقول بأنهم سيضربون كل واحد مئة فلقة، وبأن عدد الضربات سيتضاعف لمن يحرك قدميه، ثم يبدأ الضرب والصراخ والعد.

لم تقتصر الحركة في هذا المعتقل على إحضار المعتقلين، بل كانت هناك حركة نقل معاكسة أيضًا، كنت أسمع أصوات شتم وضرب مترافقة مع صياح وبكاء، تنخفض شيئًا فشيئًا خلال توجههم نحو الأعلى، على الدرج من دون شك، حتى تختفي.

أصبح حلمي الوحيد في هذه الحياة، هو أن أكون واحدًا من هؤلاء الذين يصعدون الدرج يومًا، أو أنزله إذا كان ممكنًا، حتى إذا كان ذلك إلى الجحيم، فليس هناك دركٌ أسفل من هذا الذي أتواجد فيه.

بعد حوالي أربع ساعات من استيقاظنا، وكانت الساعة قريبة من العاشرة، من صباح اليوم العشرين من وجودي في هذه الزنزانة، سمعنا كالمعتاد جلبة محركات عربات الزيل العسكرية، وحافلات نقل أُخرى في الأعلى، أعقبتها أصوات ضرب وصياح، ما لبثت أن انتقلت إلى الأسفل قبالة باب الزنزانة، إلا أن ذلك انتهى هذه المرة بتوجيه أمر لنا:

- حط راسك في الكنزة ووحدة من أيديك على عينيك، وامسك بأيدك التانية زميلك اللي قدامك بطريقة القطار، وأول واحد يقف عند الباب.

وقفنا في صف، ملتصقين ببعضنا البعض بسبب ضيق المكان، رفع كل واحد ما يرتديه من قطعة لباس علوية، كنزة أو قميص نحو الأعلى، بحيث أخفى بها رأسه، ثم وضع إحدى يديه عليها في منطقة العينين، وأمسك بالأخرى ما طالته من لباس رفيقه أمامه.

فتحوا الباب وطلبوا من الأول في السلسلة الإمساك بعصا السجّان، الذي تقدم فتبعناه، بدأت العصي تنهال علينا بكثافة رهيبة، في اللحظة التي عبرنا فيها الباب، مستهدفةً منطقة الكتفين والفخذين بشكل خاص، وسط صراخ وشتائم:

- ولاك منيك ابن الشرموطة، لا تفلت أيديك، بدي ألعن، بدي أفعل، بدي...

قاموا بتوجهنا بعصيّهم نحو منطقة الدرج، تقدمنا، تعثر بعضنا بالدرجات فسقطنا وعدنا إلى القاع ثانيةً، كثّف الجلّادون في الأسفل من ضرباتهم علينا، بينما رحنا نكافح من أجل الصعود والخلاص، إلى أن تمكننا بعد عدة محاولات من تجاوز الدرج والوصول إلى الأعلى، أوقفونا هناك وضموا آخرين إلينا، ثم فتحوا بابًا، وطلبوا منا على وقع الضرب بالعصي الدخول إلى زنزانة جديدة، والتوجه إلى التواليت داخلها.

لا أصدق حتى هذه اللحظة خروجي حيًا من زنزانة القبو، التي لم تكن سوى قبرًا جماعيًا، ولا أفهم كيفية تمكن جسمي من التأقلم مع الوضع المتدهور باستمرار داخلها، خلال عشرين يومًا، لن أُبالغ إذا قلت إنها أخذت عشرين عامًا من عمري.

على الرغم من رائحة الرطوبة التي ملأت رئتيّ ثانيةً، عند فتح باب الزنزانة الجديدة، إلا أن الدهشة أنستني إياها وعقدت لساني الممنوع من الكلام أصلًا، عندما وطأت قدميّ أرضها:

- يا إلهي، إنها الزنزانة نفسها التي رأيتها في الحلم، خلال وجودي في سجن باب توما، هي صورة طبق الأصل عن زنزانة الحلم!

سارعت الخطى إلى الجهة الأُخرى للزنزانة، كانت بقعة مياه كبيرة تحتل وسطها، أرسلت قدماي رشقات منها إلى جميع الاتجاهات، عندما اصطدمتا بسطحها، طالت بطانيات ملقاة بشكل فوضوي هناك، انضممت إلى الآخرين وراء حائط يقطعها إلى قسمين، داخل تواليت يعلوه خزان مياه، في الأعلى منه فتحة دائرية في السقف، ربما هي منور أو فتحة تهوية.

استقرينا داخل التواليت، ساد الصمت، فطلبوا منا العودة إلى مقربة من الباب، خرجنا واحدًا تلو الآخر، حريصين على أن تكون ظهورنا تجاههم، تراجعنا إلى أن طلبوا منا التوقف. ضرب سجانٌ في الخلف يده بكتف أحد رفاقنا، وقال له باللهجة الساحلية:

- أنت بتكون عرصا المهجع ولاك، ولما نطلب من عرصات المهاجع يطالعوا المخالفين، بتطالعهم، وإذا ما طالعتهم راح تتعاقب أنت وكل المهجع وتنزلوا للقبو، وما راح تشوفوا ضو الشمس بعدها.

فهمت من شتم السجّان لرفيقنا بلفظة (عرصا) ومعناها (قوّاد)، والتعليمات التي أعطاها له، بأنه قصد بها تعيينه رئيسًا للمهجع.

توجه السجّان بعد ذلك بالتعليمات إلينا: يمنع علينا التواجد أو النوم بنصف المهجع جهة الباب، الذي يجب أن يبقى خاليًا، وعلينا البقاء في النصف الواقع بعد المكان الذي تنزل عليه المياه. وإذا فُتح الباب، علينا الدخول في الحائط. كل شيء بأمر، وإذا أمرنا تاج رؤوسنا - يقصد السجّان - جاثيًا، فعلينا اتخاذ وضعية جاثيًا فورًا، وإذا أمرنا عاريًا، فسنخلع ثيابنا كلها ونصبح عراة، وإذا أصدر أمر الدخول إلى التواليت، فسندخل إليه ونختفي

وراء الحائط، على ألا يظهر منّا شيء. لكل واحد بطانيتان، وإذا صدر أمر النوم، فسنضع واحدة تحتنا ونتغطى بالثانية. أنهى السجّان تعليماته، بأن توعدنا في حالة مخالفة التعليمات.

يصل ارتفاع باب المهجع الذي دخلنا منه، إلى حوالي متر ونصف وعرضه متر واحد، وهو جزءٌ من الحائط المكون بكامله من الحديد، في أعلاه شراقة على مستوى النظر خلال الوقوف، وفي أسفله شبك حديدي، يصل ارتفاعه إلى خمسين سنتمترًا عن الأرض، يستطيع المرء عبره، رؤية أقدام من يتحرك في الخارج. انتقلت أنظاري إلى السقف، الذي يتجاوز ارتفاعه المترين والنصف، كان رطبًا ترشح منه المياه، تتساقط منه قطرات، أسرع من تلك التي تنزل من حنفية القبو.

بدأت أبحث لنفسي عن مكان، في حين حمل البعض بطانيات وذهب بها إلى حائط التواليت، لنشرها عليه.

لم تكد دقائق قليلة تمضي، حتى سمعنا أمرًا جديدًا، ممن أعطانا التعليمات السابقة:

- الكل في المهاجع منبطحًا، رأسك عند الحائط، أيديك على عينيك، ارفع رجليك.

تمدد كل واحد منا في مكانه، واضعًا رأسه لصق الحائط ورجليه باتجاه وسط المهجع، ثم رفعهما من منطقة الركبتين. فتحوا باب مهجعنا أولًا، فخمنت بأننا المهجع الأول. أدخلوا عددًا من الجلّادين، لا يقلون عن سبعة وأبقوا الباب مفتوحًا، لم يكن صعبًا إدراك وجود مسلحين في الخارج، من قرقعة أسلحتهم التي حملت تهديدًا صريحًا بالتدخل. شتمونا وضربونا بالعصي على أسفل أقدامنا وظهورنا وكل المنطقة التي كانت في متناولهم، مدةً

لا تقل عن ربع ساعة، نالني خلالها حوالي ثلاثين ضربة.

قبل أن يخرج الجلّادون من المهجع، طلبوا منا البقاء بوضعية منبطحًا، وابقاء أيدينا على عيوننا. سمعت تنفيذ العقوبة التي نفذوها علينا عشر مرات بعد ذلك، كان يجري فتح باب في كل مرة، يلي ذلك ضرب وشتائم وصياح، الأمر الذي يُفهم منه، وجود عشرة مهاجع بعدنا. بعد حوالي ثلاث ساعات، وعندما انتهوا من كل المهاجع، أصدروا أمرًا للجميع:

- بتجمعوا العصي المكسورة وبتحطوها ورا الباب، بعدين معكم خمسة دقائق لتاكلوا، بعدها بتمدوا البطانيات وتقعدو فوقها جاثيًا، ممنوع النوم لحتى نعطيكم أمر.

أغلقوا الباب فنهضنا والتفتنا جهته، رأيتُ طشتًا بلاستيكيًا مقلوبًا على فتحته، يبدو بأنهم دفعوه بأقدامهم إلى داخل المهجع، خلال ضربنا، كان هذا هو التفسير لصوت احتكاك شيء ما بالأرض، سمعته على الرغم من الشتائم والصياح. إلى جانب الطشت، هناك أرغفة خبز متعفنة، وبرغل متناثر على الأرض، تغطي معظمه بقعة المياه القذرة التي رشحت من السقف، وتظهر فيه قطع بطاطا وبيض، لا يزال متماسكًا ومحتفظًا بقشره.

جمعنا قطع العصي التي تكسرت على أجسادنا، ووضعناها خلف الباب، ثم هرعنا إلى الطعام الملقى على الأرض القذرة، تجمعنا حوله وجمعناه، غرَف كل واحد بيده بعضًا منه، ووضعه على رغيفٍ عفن، التهمه على عجل حتى آخر نتفة، فقد نال الجوع منّا وأصبحت المقاومة أو رفض تناول الطعام من الماضي، والمسألة الآن تدور بين الحياة والموت، بحيث أصبح المرء مستعدًا لالتهام أيّ شيء يقدم له.

فرغنا من الطعام، واتخذنا وضعية الجلوس جاثيًا على البطانيات، بدأنا

نتمعن ببعضنا البعض، ورحنا نسأل عن أحوال من نعرفهم وأسماء الذين لا نعرفهم بعد، وأماكن سكناهم. أراحني وجود عبدالحكيم شربجي ووائل عبيد ومصطفى وشركس من داريا معي، الأربعة الذين سبقوني بيوم واحد في الخروج من معتقل باب توما.

أصبح عبدالحكيم شربجي بمثابة الوالد لنا، منذ أن تعرفنا إليه في باب توما، كيف لا وهو الرجل الحكيم الشجاع المضحي، الذي خدم الجميع ورفع من معنوياتهم. حدثنا أحمد قنديل عما شهده منه، عندما كان معلقًا إلى جانبه بوضعية بلانكو في مطار المزة، فقد سمع صوته الحاد، الذي يستحيل على من سمعه مرةً أن يخطئه، وهو يقول للسجّان:

- أنت عامل نفسك زلمة؟ إذا كنت زلمة فك أيدي وخلينا نتواجه أنا وأنت لوحدنا، وجهًا لوجه، وساعتها راح يعرف الكل مين فينا الزلمة.

اقتربت من عبدالحكيم شربجي، الذي لا يزال يرتدي ثوبه الأبيض فوق سرواله الأبيض الطويل، منذ اعتقاله قبل بدء مظاهرة الجمعة، كانت قدمه مزرقةً تنزف وقد تشكّل خرّاجٌ فيها، سألته مرعوبًا عما أراه، فردّ بصوت مرتفع:

- لا تهتم، هذا لا شيء، راح يطلع مثله من وجوههم.

طلبت منه خفض صوته، قلت محاولًا إخفاء ضحكتي:

- تسببت لنا بخمسمية عقوبة بباب توما، وما بدنا أكثر بهالمكان اللي لسى ما نعرفه.

لم يبالي، تابع الكلام بنبرة التحدي.

عددنا في هذا المهجع أربعة وعشرون معتقلًا. عندما صدر أمر النوم قبل منتصف الليل، انقسمنا إلى مجموعات، اتخذت كل واحدة لنفسها مكانًا. تشكلت مجموعتنا من الشيخين عماد الأجرد وخالد السيوفي وحمورية وأنا،

حمل كل واحد منا بطانيتين، وتجمعنا قرب حائط التواليت، لإعداد الفراش. فرشنا ثلاث بطانيات على الأرض، ووضعنا الباقية بالعرض عليها، باستثناء واحدة لفيناها على بعضها وجعلناها مخدة.

بادرنا بالذهاب إلى التواليت أولًا، قبل أن نستقر على الفراش، وذلك من أجل الحفاظ على وضعيتنا لأطول مدة ممكنة، بحيث لا ينهض أحد ويرغم الآخرين على النهوض معه، فيتحرك الغطاء ونضطر لإعادة ترتيبه من جديد. من أجل إحكام إغلاق الفراش علينا وتصغير المساحة، على أمل الحصول على بعض الدفء، دخلنا تحت البطانيات وأدخلنا طرفها تحت زميلينا على طرفي الفراش، ثم طوينا أرجلنا على بطوننا، ووضعنا طرف البطانيات في الأسفل تحتها، وغطينا رؤوسنا.

تحول عقلي مع مرور الوقت، إلى ما يشبه ماكنة مبرمجة على انتظار الأوامر من جهاز تحكم خارج الزنزانة، الأمر الذي جعلني في وضعية التحفز الدائم، حتى خلال النوم في ذلك الجو البارد، الذي زاده سوءًا بالإضافة إلى البطانيات المبللة، شبابيك المهجع المرتفعة المفتوحة على الممر، التي جعلت صفير الرياح في الخارج مسموعًا، وسمحت لها باقتحام فراشنا والانقضاض علينا، وجعل أجسادنا تصطك ببعضها.

كان نومي متقطعًا، فكلما غلب النعاس البرد، استيقظت على شتائم يطلقها العسكري المناوب، ربما في محاولة للتخلص من الملل أو البقاء مستيقظًا خلال مناوبته، ثم أنام مجددًا عندما يغيب صوته. صدر أمر الاستيقاظ حوالي الساعة الرابعة صباحًا، صرخ أحدهم من الممر:

- عرصات المهاجع، كل العالم تفيق يا عرصات يا كلاب يا منايك!

تقضي تعليمات هذا المهجع، بقيام كل معتقل بطي بطانيتيه أربع طيات،

ووضعهما فوق بعضهما، ومن ثم الجلوس عليهما على مقعدته من دون حراك، مع ضم الركبتين إلى الصدر.

بعد مضي عدة ساعات على تلك الحالة، طلبوا منا وضع رؤوسنا في الكنزات وأيدينا على عيوننا، ثم أخرجونا بطريقة القطار المعتادة، إلى نقطة تجمع تبعد حوالي عشر خطوات عن الباب، أرغمونا هناك على الدوران حول أنفسنا، ربما لإضاعة الاتجاهات التي نجهلها أصلًا، ثم أدخلونا إلى مهجعٍ آخر، مطابق للسابق وملاصق له، يبدو بأنهما كانا مع آخر في الخلف مهجعًا واحدًا، جرى فصلها بجدران حديدية، ربما للتخلص من عبء وجود معتقلين كثر في مكانٍ واحد، لتسهيل السيطرة عليهم. الشيء الجيد في هذا المهجع، هو خلوه من الرطوبة.

فتح السجّان الذي لقبنّاه فيما بعد (متغب)، طاقة باب المهجع الجديد، في اليوم الأول من وصولنا إليه، نادى رئيس المهجع، الأستاذ الجامعي المحترم والمثقف المتدين، وسأله:

- يا عرصا المهجع، خبرني مين عم يصلي عندك بالمهجع؟
- والله يا سيدي ما حدا عم يصلي هون.

فاجأ السجّان الأستاذ الجامعي بسؤال جديد:

- أنت كم ولد عندك؟

قوبل سؤال السجّان بالصمت، فاحتد على الأستاذ الجامعي، شاتمًا مهددًا:

- ليش ما تجاوب يا ابن الشرموطة؟ بتجاوب ولا فوت لجوا؟
- عندي خمسة أولاد يا سيدي.

أطلق السجّان ضحكةً لئيمة، ختمها بسؤال جديد:

- الأولاد منك ولا من غيرك؟

استمر الأستاذ الجامعي في ابتلاع الإهانات، رغمًا عنه، فتابع السجّان استفزازه:

- إذا سألتك وبقيت ساكت مرة ثانية، بدي أنيك أختك.

فقد الأستاذ الجامعي القدرة على الكلام، تحول إلى ما يشبه الجثة، عندما دخل السجّان في مشهد اغتصاب افتراضي مدمر مع عائلته:

- راح أمسك زوجتك بهالشكل وأفعل بها كذا، راح أرفع رجليها هيك وأفتح .. هيك وأدخله، أما إذا طلبت مني أدخله من الخلف، شو رأيك، أدخله ولا لا؟

البراكين تشتعل داخل الصنم الذي كان أستاذًا جامعيًا، انفجرت في اللحظة التي أغلق فيها السجّان الطاقة، فبدأ بضرب رأسه بالباب بكل ما يملك من قوة، خرجت الحمم الحمراء من فمه وأنفه، لكننا سيطرنا عليه قبل أن يتفتت ويحرقنا.

على الرغم من عدم معرفة المقصود بالمخالفة، إلا أن من القواعد المطبقة على المهجع، تنفيذ عقوبة بحق المخالفين مرتين في الأسبوع، الأمر الذي اضطرنا إلى التضحية باثنين في كل مرة، كيلا نتعرض جميعنا للعقوبة.

من أجل التوزيع العادل للعقوبة، بحيث لا يعاقب البعض ويبقى البعض الآخر بمنجى منها، اتفقنا على أن يختار كل واحد لنفسه رقمًا، ووضعنا لائحة شفوية متسلسلة بالأسماء، على أن يخرج في كل عقوبة اثنين حسب ترتيب الأرقام، وعندما تصل اللائحة إلى نهايتها، يبدأ الدور مجددًا من البداية.

اختار رئيس المهجع الرقم واحد لنفسه، وكان مع آخر اختار الرقم اثنين، أول اثنين طالتهما العقوبة في المرة الأولى.

يصدر الأمر بتنفيذ العقوبة من الخارج، قبل إدخال وجبة الطعام:

- يا عرصا المهجع، طالع المخالفين لنص المهجع.

يتقدم المعينان مخالفَين حسب اللائحة، من تلقاء نفسيهما إلى وسط المهجع، يفتح السجّانون الباب ويُدخلون وجبة الطعام، ثم يختارون عقوبة لهما، قد تكون فلقة أو خليطًا من الضرب بالأيدي والركل بالأقدام، يقومون بتنفيذها بهما، من دون أن يمنعهم ذلك عن ضرب الجميع عشوائيًا، على الهامش، فيدوسون علينا ويرشوننا بالمياه، ويعتبر ضرب الرأس بالحائط، من ثوابت هذه العقوبة.

لم يكن قانون تنفيذ العقوبة في وسط المهجع صدر بعد، ولم نكن وضعنا لائحة بأسمائنا، عندما تعرضت لها. سرتُ مغمض العينين نحو الخلف، عندما نادوني:

- تعا لهون يا أبو القميص الأحمر.

وصلت إليهم بعد خطوات قليلة، فجرّوني بأنفسهم بعيدًا عن الآخرين، طلبوا مني الوقوف باستعداد وإبقاء عينيّ مغلقتين، ثم بدأ (متعب) بتوجيه لكمات لي وكأنني كيس تدريب، مع التركيز على وجهي بشكل خاص. تراجعت تحت وقع ضرباته، حتى خرجت من باب الزنزانة المفتوح. دام تنفيذ العقوبة حوالي عشر دقائق، كان (متعب) يشتمني خلالها، طالبًا مني الوقوف باستعداد، عند حدوث أي اختلال في وضعي، ثم يتابع.

كيلا أنساهم، ولإبقاء ذاكرتي حيّةً، تابعت مذاكرة أسماء العائلة والأصدقاء والمعارف، والتحدث مع زوجتي وأطفالي كل ليلة، السلام عليهم والسؤال عن أحوالهم، في حوار افتراضي صامت، إلى أن يغالبني النوم، بالإضافة إلى تبادل الأحاديث مع رفاقي عما مر بحياتنا، حتى حفظنا تاريخ بعضنا عن ظهر قلب، ولم يعد لدينا في نهاية المطاف من جديد، بحيث بتنا

تعرف ما سيقال، بمجرد فتح أحدهم سيرته، بسبب روايتها بتفاصيلها مرارًا وتكرارًا، لكن الاحترام كان يمنعنا من عدم الإنصات، ومقاطعة المتحدث بالقول بأننا نعرف ما سيقوله، كنا نبدي القدر نفسه من الاهتمام، وكأننا نسمع كل شيء لأول مرة.

كانت المشكلة في ذاكرتي البصرية، وعدم وجود حل لنسيان الصور. نسيت ملامح أطفالي، لم أعد أتذكر منها، سوى تلك الموجودة في صورتنا العائلية المعلقة على الجدار. السيء في الأمر، هو أن تلك الصورة قديمة، صورناها قبل وقت طويل من اعتقالي، في وقت لم تكن ابنتي ألين البالغة أحد عشر شهرًا عند الاعتقال، ولدت بعد.

ضغط عليّ أمر نسيان الصور وضايقني كثيرًا، أردت التأكد مما إذا كانت حالة عامة، أم مشكلة أعاني منها لوحدي، فسألت مصطفى عما يتذكره من عائلته:

- نسيت ملامح الجميع، ونسيت شكل ابني إيهاب البالغ ست سنوات، يأتيني خياله في الحلم أحيانًا، لكنني أنساه في صباح اليوم التالي.

كل ما أتذكره من ألين، هو الجبص الذي يلف رجلها، لإصابتها بخلع ولادي. اشترت لها والدتها ملابسًا لعيد ميلادها الأول، الذي سيكون بعد عشرة أيام، ولأنها لم تأخذها معها للشراء، بسبب وضعها الصحي، فقد أخطأت في تقدير المقاس، لذلك ذهبتُ إلى السوق لاستبدالها بمقاس أصغر.

استقليت دراجة أخي المزودة بمحرك، لكنني لم أتجه غربًا نحو وسط المدينة، تجنبًا لمفرزة (أبوعلي) التابعة للمخابرات العسكرية، الواقعة على شارع حي قدوربك - السوق، بل قمت بحركة التفافية، عبر حي البشيرية جنوبًا.

صادفت حمو على جسر البشيرية. كنت تجاهلت معظم اتصالاته خلال

ذلك النهار، وفي المرات القليلة التي رديت فيها عليه، ألّح على لقائي لأمر ضروري، حسب قوله، لكنني تحججت بأيّ شيء لتجنبه.

أصعدته معي على الدراجة، وطلبت منه إبلاغي بما يريده، خلال المسافة المتبقية إلى السوق، فقال بأن المقدم في المخابرات الجوية يصر على لقائي، ولم ينسَ إظهار نفسه بمظهر الصديق، بأن نصحني الانتباه لنفسي لدوام المظاهرات.

أردت طمأنته، للتخلص من ملاحقته وصرف انتباه مسؤوليه، حتى مغادرة المنطقة إلى عفرين، قلت له بأن لي زيارة قريبة إلى الضابط، ثم أنزلته في السوق وذهبت إلى المتجر لاستبدال الملابس، فوجدته مغلقًا، مثل معظم المتاجر التي يغلقها أصحابها ظهرًا، خلال الصيف الحار، فأعدتها إلى البيت، ولا أعلم ماذا فعلوا بها، فقد تم اختطافي في اليوم التالي.

كان قرار ذهابي مع اثنين من رفاقي إلى عفرين، بديلًا لمغادرة البلاد، للتخلص من الضغوط والملاحقات الأمنية المرهقة، في وقتٍ تصاعدت فيه عمليات قتل وضرب واختطاف النشطاء. وجدنا بأن مغادرة البلاد، ستؤدي إلى انفراط عقدنا، وخلق فراغ قد لا يتمكن غيرنا من ملئه، مع مخاطر حرف نشاطنا عن مساره، في حين أننا سنحافظ ببقائنا على قرارانا المستقل وشرعيتنا، وعلى الشارع الذي نعتبر القوة الأكبر والأهم فيه، بعد أن أصبح في رصيدنا خلال ستة أشهر، ما بين ثلاثمائة وخمسين إلى أربعمائة مظاهرة، بمعدل ثلاث مظاهرات أحيانًا في اليوم الواحد، ذلك أننا لم نتوقف عن التظاهر، حتى في أيام العيد.

وقف وراء فكرة الذهاب إلى عفرين، خالي، السياسي المعروف المقيم خارج البلاد، وعد بدعمنا لوجستيًا وتوفير احتياجاتنا هناك، وتحمل جميع

النفقات بما فيها أجار البيت، فعملت على ترتيب الموضوع، تواصلت مع عدد من الشخصيات الحزبية في عفرين، ثم حجزنا للسفر مساء الجمعة، الثالث والعشرين من سبتمبر، بعد أن تمكّن كل واحد من الحصول على هوية شخصية بديلة، لشخص يشبهه وغير مطلوب للسلطات، بحيث يستطيع العبور بها على الحواجز.

سيشعر خالي بتأنيب الضمير بسبب فكرته، لأنني لو غادرت البلاد وقتها، لما تم اختطافي في اليوم السابق للسفر إلى عفرين، ولما وصلت بالتالي إلى هذا المكان.

أبلغونا بعد عشرة أيام من وجودنا في المهجع، بأنهم سيأخذوننا إلى الحمّام. قسمونا إلى مجموعتين، ثم طلبوا منا أن نتعرى وننتظم في صفين بوضعية القرفصاء، مع خفض رؤوسنا إلى أقصى حد، على أن يقوم كل واحد بوضع احدى يديه على عينيه، ويمسك بالأُخرى قضيب رفيقه الذي يليه في الخلف، باستثناء رفيقنا الذي سيكون في المقدمة، فسيكتفي بإغلاق عينيه، لأنه سيمسك بإحدى يديه عصا العسكري الذي سيقودنا، أما الذي سيكون في مؤخرة الصف، فسيضع كلتا يديه على عينيه، تاركًا قضيبه لمن يسبقه. بعد أن أصبحنا جاهزين، هددونا:

- إذا أفلت واحد منكم قضيب غيره، فراح نحطه بطيزه.

لا أعتقد بأن هناك كلمات في أي لغة من لغات العالم، قادرة على وصف مشاعري في تلك اللحظات، وهي لا تختلف بالتأكيد عن مشاعر الجميع. كان صعبًا علينا، ونحن معظمنا من أوائل الثوار، النشطاء في الثورة وربما قادتها ومنظروها، بشر قبل أيّ اعتبار آخر، إذلالنا إلى درجة إرغامنا على الامساك بأعضاء بعضنا. صحيحٌ أن عار ما يجري سيلحق بنظام الحكم، ولا يعيبنا في

شيء ما يفعله بنا، ونحن أسرى لديه، إلا أن طريقة كسرنا هذه، لا تتفتق عنها عقول أبلس الأبالسة.

خرجنا من المهجع متوجهين إلى الحمام، نسير بطريقة مشية البطة، تزحلقتُ مثل كثيرين على أرضية الممر المبللة، سقطت فانكسر رأسي.

اعتبر الجلّادون سقوطنا مقصودًا، جريمة مبيتة حسب قولهم، هدفها النظر إليهم للتعرف على وجوههم، عاقبونا عليها بالضرب بالعصي، أمرونا بالانتظام في الصف ثانيةً، وأخذ وضعيتنا السابقة، ومتابعة المسير.

أبلغنا أحدهم تعليمات الحمّام على عجل، ثم دفعني إلى حجرة صغيرة، وبدأ العد بسرعة من أمام بابها المفتوح:

- معكم عشر عدات للانتهاء من الحمام، واحد، اثنين، ثلاثة...

أدرت أول حنفية طالتها يدي، فنزلت عليّ مياهٌ باردة، لم تكد تلمس جسمي، حتى شعرت بصعقات كهربائية داخل جروحي، فقفزت مذعورًا مبتعدًا، والتصقت بالحائط.

استغرق العد إلى عشرة أقل من نصف دقيقة، لينتهي بذلك الحمّام ونعود إلى المهجع، بالطريقة نفسها.

أخذونا إلى الحمّام لمرة ثانية وأخيرة بعد عشرة أيام، حرصت على عدم فتح حنفية المياه، بعد أن فتحت في المرة السابقة جروحي، وجعلتني بمواجهة مشاكل جديدة، أبسطها الوقوف والجلوس وارتداء الملابس. أبلغونا بعد الحمام الثاني، بأنهم سيسمحون لنا بالاستحمام داخل المهجع، وهي مغامرة حالت المياه الباردة دون خوضها.

حدثت جلبة في الممر في اليوم التالي، أمرنا أحدهم بالتوجه إلى الحائط، بطريقة جاثيًا. نفذنا على الفور، وجلسنا على ركبنا في صفين، أسند

المنتظمون في أولهما رؤوسهم إلى الحائط، ووضع المنتظمون في ثانيهما رؤوسهم على ظهور أفراد الصف الأول.

فتحوا الباب، فتفاجئنا بدخول أشخاص مختلفون عن كل الذين عايشناهم من قبل، لم يبدؤوا دخولهم بالشتائم ولم يقوموا بضربنا، مثلما يجري عادةً، فشعرت بأن للزيارة طابعًا استثنائيًا، وقد تبين من سياق الحديث، بأن بين الزوار ضابطٌ كبير، توجه إلينا بلطف قائلًا:

- يا ابني، اللي عنده مصاري بالأمانات يرفع أيده.

رفعت يدي، يبدو بأن عددًا كبيرًا رفعوا أيديهم، لذلك أضاف موضحًا:

- تريد أربعة أو خمسة، يكون المبلغ اللي عندهم أكثر من عشرة آلاف ليرة، لأننا راح نشتري لكم بالمصاري شامبوهات ومواد نظافة.

سجلوا أسماء بعض الذين لديهم مبالغ مرتفعة، ثم سأل طبيبٌ يرافق الضابط عن المرضى، قال بأنهم سيشترون بقسم من المبلغ حبوب التهاب ومسكن لوجع الرأس، سيضعها عند السجان ويزوده بأسماؤهم، ليعطيها لهم في مواعيدها.

كان رفاقنا في المهجع الذي يعلونا، وهم أقدم منا في هذا المعتقل، أعلمونا خلال تواصلنا معهم مرةً، بأن السجّانين سألوهم عن أموالهم في الأمانات، وأخبروهم بأنهم سيشترون بها أطعمة، مربيات وحلاوة وغير ذلك، حصلوا عليها بالفعل فيما بعد، فأصبحنا ننتظر منذ ذلك الوقت، مثل هذه الزيارة بفارغ الصبر، سألت نفسي وقد فرغ جسمي من السكريات، فيما إذا كنت سأرى الحلاوة والمربى أمامي يومًا، أصبحت أراها في أحلامي، ليست هي فحسب، بل جميع أنواع الأطعمة.

أحضروا مواد النظافة إلى المهجع، بعد يومين من زيارة الضابط الكبير،

خصصوا لكل واحد منا عبوة شامبو، فرشاة ومعجون أسنان، عبوة كريم لإزالة الشعر، علبة برسيل صغيرة لغسل الملابس، كأس بلاستيكي للمياه، وحصل المهجع على عشر عبوات لودالين ومدار للجلي.

وضعنا المواد في طرفٍ مثلما طلبوا، ورحنا نتأملها غير مصدقين، بعد أن كدنا ننسى أشكالها، قرأنا الأسعار التي تحملها، فوجدناها مطابقة لأسعارها قبل اعتقالنا، فاستنتجنا بأن وضع البلاد طبيعي.

في اليوم التالي لتسليمنا مواد النظافة، وكانت ما تزال في مكانها، وبينما ننتظر أمرهم باستخدامها، دخل (الضابط الساحلي) إلى المهجع، يرافقه عناصر يحملون وجبة الطعام في طشت، قام بإفراغه على الأرض، وأخذ يشتمنا ويضربنا بيديه ويركلنا بقدميه. لم يكتفِ بذلك، بل تناول مواد النظافة، الشامبوهات والبرسيل واللودالين ومعجون الأسنان، وأفرغها كلها علينا. كان يحمل عبوة الشامبو، يفتح غطاءها ويوجهها إلينا مثل بندقية، يضغط عليها حتى تفرغ، ثم يتناول علبة البرسيل وينثره علينا مثل الثلج، حتى أفرغ جميع العبوات.

ظنّ الجميع، بأن المشهد انتهى عند ذلك الحد، لكن (متعب) وضع بصمته المميزة عليه، وختمه بطريقة مبتكرة. سأل الضابط، بلهجة مليئة بالسخرية، الأرجح لم يتوقع الإجابة عليها:

- سيدي، ممكن أشخ على الأكل؟

ردّ الضابط عليه، مرحبًا بالفكرة:

- طبعًا، لكان وين بدك تشخ!

سمعنا خلال لحظات، نزول البول على الأرض، وحرص صاحبه على توزيعه على أكبر مساحة ممكنة. غادر (الضابط الساحلي) ورفاقه، التفتنا إلى

الخلف بعد إغلاق الباب، كان المهجع أشبه بمنطقة تعرضت لإعصار مدمر، أو ساحة معركة، نحمل الكثير من آثارها.

توجهنا إلى الحمام أولًا، استحمينا وغسلنا ثيابنا، حتى اختفت الرغوة منها، ثم بدأنا بتنظيف المهجع، مثلما اعتدنا عليه بعد تناول وجبة الطعام، لكن بشكل مختلف هذه المرة. جمعنا العبوات وافرغنا ما تبقى في بعضها من مواد في عبوة واحدة، أردنا الحفاظ عليها واستخدامها بانتظام، للسيطرة على الجرب واحتوائه، كان ذلك مستحيلًا بالنسبة لعبوات معجون الأسنان، التي سواها الضابط بالأرض، الأكيد أنه داس عليها بقدميه.

جاء دور وجبة الطعام، عَصَرَ خالد السيوفي البرغل، لتخليصه من المنظفات والشامبو والبول، ووضعه مع البطاطا والبيض في الطشت ثانيةً، فأخذناه إلى التواليت ووضعناه تحت الحنفية، غسلناه ثم أكلناه. أكلت قليلًا من الخبز وبيضة مسلوقة، كانت لا تزال محتفظة بقشرتها.

تكرر التبول على الطعام عدة مرات، أكلناه في كل مرة بعد غسله.

قدموا الحبوب التي وضعها الطبيب عند الحرس، بشكل غير منتظم، أبلغونا بعد أيام قليلة، بأنها انتهت.

بعد ثلاثة أيام من تبوله على الطعام، ضعّد (متعب) الموقف بطريقة جهنمية، لا تخطر للأبالسة، وأكاد أكون متأكدًا بأنه سيفاجئ به حتى (الضابط الساحلي)، على الرغم من ملازمته له مثل خياله خلال جميع مناوباته، إلى درجة يمكن القول معها، بأنه تتلمذ على يديه، وأصبح يقرأ أفكاره وينفذها علينا. دخل علينا (متعب) المهجع وأصدر أمرًا، برهن به على تفوقه على أستاذه وملهمه:

- بدي فوت بكرة للمهجع، وما بدي شوف ولا شعرة على وجه أي شرموطة

منكم، واللي بلاقي شعر على وجهه، بدي أحرقله ياه.

اللعنة! ما العمل الآن مع هذا المأزق الكبير؟ كيف سنحلق لحانا ونحن لا نملك ماكنة حلاقة، لا بل لم نرها منذ اعتقالنا؟ أما مزيل الشعر الذي اشتروه لنا بنقودنا، فقد كان في عبوات صغيرة أصلًا، داس (الضابط الساحلي) عليها في اليوم المشهود، الذي أفرغ فيه مواد النظافة علينا، واستخدم البعض بقاياه لإزالة شعر الإبط والعانة، وإذا جمعنا الكمية التي لا زالت عالقة في العبوات، فربما لن تغطي وجهًا واحدًا.

بدأنا بتقليب الأمر على وجوهه، الحقيقة التي لا غبار عليها في هذا المكان، هي قدرتهم على فعل أيِّ شيء بنا من دون وازع أو رادع، وكلمتهم قانون يطبق حتى إذا كان جريمةً، من غير المستبعد مكافأتهم عليها، وإذا قال (متعب) بأنه سيحرق وجوهنا، فسيحرقها من دون تردد، وبما أنه ليس لدينا بديل للبقاء أحياء أو تجنب الأسوأ، فليس أمامنا سوى تنفيذ أمره.

استسلمنا للواقع، وأخذنا نهّون الأمر على بعضنا. لم تكن ذقون الجميع طويلة، فالبعض معتقلٌ منذ مدة قصيرة، لم تطل ذقنه بعد، أما بالنسبة للمعتقلين القدماء، فقد حلقوا ذقونهم في المعتقلات التي كانوا فيها بماكنة حلاقة الشعر، بعضهم قبل يوم من نقله إلى هذا المعتقل، والذي صادف موعد الحلاقة. أما ذقني، فمضى شهر على حلاقتها.

أخذ الجميع ينظرون إلى بعضهم البعض، انتظارًا لمبادرة أحدهم بالتنفيذ، لمعرفة الطريقة الأفضل للتخلص من شعر الذقن. وجه خالد السيوفي نصيحة، ذكّر بأنني أملك متجرًا لمواد التجميل، ولا بد أن تكون لدي خبرة في استعمالها:

- المسألة يا جماعة من اختصاص شبال، ولازم نسمع اللي راح يقوله.

ذكّرتهم باحتواء علب مزيل الشعر على طريقة الاستخدام، وبأن الكمية المتبقية في العبوات قليلة جدًا، لن تزيل الشعر كله، خاصة في ظروفنا الحالية، إلا أنه ينبغي إبقائها على الذقن من ربع إلى ثلث ساعة، عليهم تحمل رائحتها الكريهة خلالها، ونحتاج بعد ذلك إلى مياه ساخنةٍ لتطهير الوجه، وهو ما لا يتوفر هنا.

حمل كل واحد عبوة مزيل الشعر، فتح غطائها وضغط عليها بما تبقى لديه من قوة، بيديه وأسنانه، لإخراج كل ذرة قد تكون عالقة فيها، ووضعها على وجهه. بعد مرور ما يقارب الثلث ساعة، أزحنا مزيل الشعر من على وجوهنا، بمشاحف بلاستيكية كانت موجودة في العلب. لم يساعد المزيل في إزالة شعرة واحدة، بقي شعر الوجه مثلما كان من قبل. نظر الجميع إلى بعضهم البعض، ولسان حالهم يقول:

- والآن، ما هو الحل لهذا المأزق الوجودي؟

على الرغم من بقاء الشعر على حاله، وظهور المادة المزيلة وكأنها عديمة التأثير، إلا أنها خلّفت أثرًا ساعد على التخلص منه، ذلك أن احتوائها على نسبة من الزرنيخ، أضعف الشعر وخدّر الوجه إلى حد ما، لكن الحاجة إلى أداة اضافية لإزالته، بقيت قائمة، ولم يكن لدينا سوى أيدينا.

بدأ كل واحد بنتف ذقنه بأصابعه عشوائيًا، لعدم وجود مرآة، إلا أن الجميع وجد صعوبة في الاستمرار، أخذت أصابعنا ترتجف وفقدنا التركيز بعد قليل، فانتقلنا إلى مرحلة جديدة، جلس كل اثنين مقابل بعضهما البعض، وأخذ كل واحد ينتف الشعر من وجه الآخر. كان الألم لا يطاق في البداية، وتعيق الدموع الحارقة الرؤية وتجعلها صعبةً، إلا أنه خفَّ مع مرور الوقت، مثلما عليه الحال في الفلقة التي تبدأ بوجع كبير، يخف تدريجيًا مع

تخدر القدمين، إلى أن ينتهي وتُتْرَك القدمان لمصيرهما، حتى رؤية النتائج فيما بعد.

بعد معاناة طويلة، انتهينا من إزالة شعر الوجه. لم أرَ وجهي، لكنني استطعت الحكم عليه من خلال وجوه الآخرين، التي اختفت الفروقات بينها وأصبحت صورة طبق الأصل عن بعضها، وكانت كما شأنها دائمًا، مرآتي التي عكست صورتي. كانت وجوه الجميع منتفخة تغطيها الدماء، يشعر المرء بأن أصحابها مخلوقات فضائية، وحوش لا يمتون بصلة للبشر الذين كانوا قبل قليل.

لمست وجهي بحذر، شعرت بأنه إطار سيارة، جرى نفخه بكمية هواء، أكبر بكثير من قدرته على الاستيعاب، فأصبح معرضًا للانفجار في أيّ لحظة.

فتحوا باب المهجع في الصباح الباكر من اليوم التالي، وأخذوا محي الدين، الشاب من غوطة دمشق، من مريدي عائلة الشيخ الخزنوي المعروفة في قرية تل معروف بريف قامشلي، سبق له وأن زارها عشرات المرات. سمعنا أصوات فتح المزيد من الأبواب في طابقنا، والطابقين الأعلى والأسفل، ثم أصوات محركات عربات الزيل العسكرية تبتعد.

شَغَلنا السؤال حول المكان الذي أخذوا محي الدين والآخرين إليه، غلب التفاؤل على أحاديثنا، خاصةً بعد انقضاء النهار من دون أن يعيدوهم، وذهب بمعظمنا إلى حد الظن بأنهم أفرجوا عنهم، فرحنا نتبادل الأمنيات بأن تكون مثل هذه العاقبة للجميع، إلى أن جاء المساء معه بأصوات محركات عربات الزيل العسكرية، ثم أصوات فتح الأبواب وإغلاقها، مثلما حدث في الصباح، تلاه تعرض شخص للفلقة في الممر، ومن ثم فتح باب المهجع.

ظهر محي الدين مجددًا بيننا، أعلمنا بأنه كان في محكمة الميدان

العسكرية، المعروفة بمحكمة الإرهاب، حضرها من دون طمّاشة مقيد اليدين، وبأن القاضي سأله أولًا عن وجهه المتورم، فأبلغه بما تعرضنا له على أمل كسب تعاطفه، لكن المحاكمة انتهت خلال دقيقة واحدة، من دون إبلاغه بالحكم الصادر عليه، وتعرض طوال طريق العودة، حتى باب المهجع للضرب. كانت هذه هي المرة الأولى منذ اعتقالي، التي أشهد فيها محاكمة أحد.

أُصبت بالشلل بعد أسبوعين من وجودي في المهجع، بسبب ضربة غير مباشرة تلقيتها.

طلب (الضابط الساحلي) إخراج المخالفين لمعاقبتهم، فتقدم حسب دور العقوبة اثنان، أحدهما رفيقنا رائد، انتظمنا نحنُ الباقون في صفين متوجهين للحائط، ووضعنا أيدينا على عيوننا.

كنت موجودًا في الصف الخلفي، ووراءنا نصف المهجع الفارغ، الذي يُستخدم ساحة لتنفيذ العقوبات.

طلب الضابط من المعاقبَين الرجوع خطوات إلى الخلف، ففعلا حتى أصبحا في وسط الساحة، ثم أمرهما بالانبطاح ورفع رجلهما، نفذا، فأخذ جلادان يضربانهما الفلقة.

عندما كانت العقوبة تشارف على نهايتها، بعد أن تلقى كِلا المعاقبين أكثر من ثلاثين ضربة على أسفل قدميه، باغتتني حيث أقف عصا مثل سهم، أصابت عظم رجلي اليمنى أسفل الركبة، ذكرتني بالسهم المميت الذي أصاب كعب أخيل، في الأسطورة اليونانية القديمة.

في الحقيقة، لا أعلم فيما إذا كان الجلّاد رماني بالعصا عمدًا، أم أنها كانت ضربة طائشة، فقد السيطرة عليها لسبب ما، ففلتت منه، إلا أن الأكيد هو أن الضربة التي لم أتحضر لها، أصابتني بالشلل.

انتهت العقوبة، ومثلما درجت العادة بعد ذهاب الجلّادين، توجه الجميع نحو المعاقَبين للتخفيف عنهما، مسد جسديهما ورفعهما عن الأرض، لمساعدتهما على المراوحة في المكان، كيلا يتجمع الدم أسفل القدمين، فتتورمان وتتقيحان.

غبت عن القيام بالواجب، بقيت ملقىً على الأرض في مكاني، حيث أُصبت، عاجزًا عن الحركة. لم أكن أريد إشغالهم عن مساعدة رفيقينا، على الرغم من المساعدة التي أحتاجها، لكن خالد السيوفي لاحظ ما أنا عليه من حال، فقدم إلي وسألني همسًا:

- شو فيك شبال؟

- ما عدت قادر على المشي والله.

أقبل المزيد من رفاقي نحوي، فشرحت لهم ما جرى لي. تدخل رائد الذي لا يزال يعاني من آثار الفلقة، قال بأن ضربة عصا أخطأته، رفعها الجلّاد ولكنها لم تنزل على قدميه، لم يشعر بها ولا يعلم عن مصيرها شيئًا، فتأكدنا من أنها أصابتني.

لم يتحسن وضعي في اليوم التالي، ازرقَّ جسمي، ففقدت الأمل في استعادة عافيتي. أبلغ رئيس المهجع السجّان عن إصابتي، فضحك الأخير وقال ساخرًا:

- قل إنه تكرسح وانتهى.

يُعتبر المرض في سجن صيدنايا مشكلة حقيقية، ويصبح كارثة إذا أعاق المعتقل عن الحركة. أصبحت بسبب إصابتي معاقًا، مرميًا على الأرض وعاجزًا حتى عن الذهاب إلى التواليت، فأخذ اثنان من رفاقي يحملانني ويرافقهم ثالث للطوارئ، يساعدونني حتى أقضي حاجتي ثم يعيدونني، وهو ما كنت أقوم به تجاه آخرين أصابهم المرض، في هذا المهجع الذي لم يخلُ يومًا من المرضى.

تغيرت القواعد بسبب عجزي عن الحركة، وبالتالي عن تنفيذ إجراءات الدخول في الحائط أو اتخاذ وضعية جاثيًا، تمهيدًا لدخول السجّانين إلى المهجع. قاموا بتغطيتي من قمة رأسي حتى أخمص قدمي ببطانية، في المكان الذي سقطت فيه، كيلا أرى وجوه السجّانين عند دخولهم إلى المهجع، الذين لم يتورعوا عن الدوس عليّ خلال حركتهم داخله، من دون أن أشعر بالألم جراء ذلك.

أصبحت أعيش في عزلة تحت البطانية، وتُركتُ للموت البطيء، اعتبروني ميتًا، فانقطع تواصلي مع الجميع، سجناء وسجانين، باستثناء خالد السيوفي، الذي يحضر أحيانًا، يقرأ الآيات القرآنية على مسامعي ويخفف عني:

- شبال لا تفكر بالموضوع، راح تتحسن وتشفى.

صممت على التغلب على المرض، الذي حطمني ودهور الوضع النفسي لرفاقي، ذلك أن مرض أحدنا، يؤلم الجميع ويصيب معنوياتهم في مقتل، وكان ما فاقم الوضع عندنا، إصابة محيي الدين بمرض مشابه، خلال الفترة نفسها. أعطوني حبوب التهاب، فشعرت ببعض التحسن، أصبحت بعد مرور أسبوعين، قادرًا على تحريك أصابعي وجسمي قليلًا، وتمكنت بعد ثلاثة أسابيع، من الوقوف بالاستناد إلى الحائط، والذهاب بمحاذاته إلى الحمام. كان الأمر صعبًا، لكن الانجاز أشعرني بسعادة لا توصف ليلتها.

استيقظت صباحًا على زقزقة العصافير، وكأنني خارجٌ للتو من نفق مظلم. كان المهجع منارًا، على عكس الممر المعتم، سقطت الجدران ولم أعد أرى حولي شيئًا، نسيت احتمال مراقبة سجّان لنا عبر الشبك أسفل الباب، وبدأت صلاة علنية كاملة الأركان، من وقوف وسجود وركوع، وختمتها بدعاء شكر لله على استعادة عافيتي.

أُنير الممر فور انتهائي من الصلاة، فتح (متعب) طاقة الباب وتوجه إلى رئيس المهجع:

- يا عرصا المهجع، طالع لي كل شي كان يصلي.

- الصلاة ممنوعة يا سيدي، وأنا ما شفت حدا يصلي.

- أنا راجع بعد دقيقة، وإذا ما راح تطالعهم بدي...

ابتعد (متعب)، وهو يكفر ويشتم ويهدد، فأخرج رئيس المهجع اثنين من رفاقنا إلى الساحة، كان دورهما في العقوبة.

بدأت بمحاولة لمحو الأدلة على أداء الصلاة من ذاكرتي، وإحلال فكرة أن طلب (متعب) إخراج المخالفين بحجة الصلاة، إنما يدور حول العقوبة الدورية، ودوري حسب اللائحة لا يزال بعيدًا. صممت على استبعاد فرضية معاقبتي، خاصةً أنهم يعطونني الأدوية منذ ثلاثة أسابيع، ويعلمون بأنني غير قادر على تحمل الضرب، إلا أن رأي (متعب) كان مختلفًا، سأل بعد إخراج المعاقبَين:

- وشو بالنسبة لأبو القميص الأحمر؟

انتفض جسمي، عندما ذكر لون القميص الذي لا يرتديه سواي. اتخذ القرار وتابع بحزم:

- أبو القميص الأحمر، فوت على نص المهجع ولاك.

انضممت إلى رفيقيَّ المخالِفَين، انتقى (متعب) عددًا آخر، فأصبحنا سبعة. حدثت جلبة في الخارج، فتوقعتُ نظرًا لعددنا المرتفع، دخول عدد كبير من الجلّادين إلى المهجع، لمشاركة (متعب) في حفلة الضرب. عُدتُ طفلًا، أغلقت عينيّ في محاولة للاختفاء عن الأنظار، رجعتُ قرونًا إلى الوراء، وقلت في محاولة يائسة للنجاة من المجزرة المقبلة:

- سيدي أنا ايزيدي، ما أصلّي.

حدثتُ رفاقي مرةً عن الكُرد، قلت لهم بأننا شعبٌ من أصول زردشتية، تشكّل الديانة الايزيدية امتداد لها، أسلم معظمنا فيما بعد، وقد استقتيتُ خالد السيوفي هذا الصباح حول ادعائي ذاك، بعدما نبهني رفاقي إلى احتمال انكشاف أمر الصلاة العلنية، فقال:

- لا ضرر منه، يمكنك أن تدّعي ما تشاء، لأن المهم هو أن تنجو من الضرب على أيدي هؤلاء الكفار، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، وقدر الله وما شاء فعل.

لم يتوقف السجّان عند كلمة ايزيدي، ربما لم يفهمها أو لم يسمع بها من قبل، فسأل:

- لكان شو كنت عم تعمل؟

- كنت أعمل رياضة سيدي، وأنت بتعرف اني مرمي على الأرض من ثلاثة أسابيع.

- رياضة لكان!

أمرونا بالانبطاح فنفذنا، ذكّرتهم بوضعي الصحي من دون جدوى، تلقيت لا أقل من سبعين ضربة على أسفل قدميّ.

هرع رفاقنا لمساعدتنا سبعتنا بعد خروج الجلّادين، كنت أول من نهض من دون مساعدة، أعادتني الفلقة إلى وضعي السابق من دون ألم، كأنني كنت مخدرًا خلال عمل جراحي، انتهت حالة الشلل التي عانيت منها لثلاثة أسابيع.

أعاد خالد السيوفي ما جرى إلى أسباب دينية:

- استجاب الله تعالى لدعائك وصلاتك، ومنَّ عليك بالشفاء.

تغيّر روتين التعذيب اليومي قليلًا، بعد إخراج بعض رفاقنا نهائيًا من

المهجع، من دون أن نعرف مصيرهم، وأولهم محي الدين الذي كان أول من جرت محاكمته، وإحضار معتقلين جدد، تابعنا من خلالهم أخبار ما يجري في الخارج. علمنا بتشكيل الجيش الحر والمعارضة السياسية، وتفجير خلية الأزمة وزيادة العسكرة والتسليح وفقدان نظام الحكم السيطرة على الوضع، بحيث لم يعد قادرًا على تنفيذ الاعتقالات كالسابق، وبالتصريحات الأمريكية ضده والفيتو الروسي لمصلحته في مجلس الأمن، وبأن قطر والسعودية وبعض الدول الأوروبية تقف إلى جانبنا.

بتنا نشعر بأن أسلوب التعامل معنا في المعتقل، ردُّ فعلٍ لما يجري في الخارج، فكلما كان التعذيب شديدًا، خمنّا بأن نظام الحكم يتعرض لضغوط ويخسر، فيعمل على تعويض هزائمه عبر الانتقام من أجسادنا الهزيلة، بينما اعتبر بعضنا ذلك مؤشرًا على استعادة النظام قوته، وبالتالي ممارسة سلوك المنتصر علينا.

كان (الضابط الساحلي) استثناءٌ من القاعدة، استمر بإيقاع عقوباته الاستثنائية علينا بوتيرة مرتفعة، خلال أيام مناوبته الأربعة من كل أسبوع، من ذلك إرغامنا على صف البطانيات في زاوية منذ استيقاظنا، وعدم السماح لنا بالجلوس عليها، وخلع ثيابنا في الأيام الباردة، والبقاء بوضعية جاثيًا على رُكَبنا طوال الوقت، حتى صارت تُصدر طقطقة مرتفعة كلما تحركنا، وكأنها تصرخ من الألم.

للتغلب على آلام الركبة ووقف صدور أصوات عن المفاصل، تناوبنا على الذهاب إلى التواليت، بحيث يبقى كل واحد بضع دقائق لإراحة ركبتيه، وجلسنا بشكل طبيعي عندما يكون الممر مضاءً، وهو الأمر الذي يتيح لنا رؤية السجّانين عبر الشبك أسفل الباب، بحيث نعود إلى وضعية الجثو عندما

نشعر بقدومهم، أو عند قيامهم بإطفاء ضوء الممر، بسبب احتمال مراقبتهم لنا من العتمة والتنصت علينا، إذ لطالما أوهمونا بالمغادرة، عبر إغلاق بوابة الممر وقفلها وإطفاء الأضواء، لكنهم كان يبقون داخله قرب أبواب المهاجع. المشكلة الكبيرة التي واجهتنا عند تغيير أوضاعنا، هي الطقطقة التي تصدر عن الرُكَب، والتي كانت من الارتفاع بحيث تُسمع، فتكشفنا، فنتعرض لعقوبة جماعية في اليوم التالي.

عانيت من ازدياد حالات الإغماء في الشتاء الثاني من اعتقالي، لم يكن ذلك بسبب الوهن الجسدي والنفسي فحسب، الذي أصابني بعد كل تلك المدة من التعذيب والاحتجاز في ظروف غير إنسانية، من دون شمس أو تغذية أو رعاية صحية، بل إبقاء شبابيك المهجع المشتركة مع الممر مفتوحةً طوال فترة الشتاء، فاستوطنه البرد، وحوّله إلى ثلاجة.

أُصبت بدوّار شديد، في ليلة باردة من أواسط فبراير ٢٠١٢، زاد حتى أوشكت على فقدان الوعي. قاومت الغياب، لم يكن لدي من وسيلة، سوى تذكّر الأشخاص الذين أحبهم، لعلّي أحصل على بعض دفئهم، لكن المحاولة لم تكن مجدية، شعرت بأنني أسقط في بحيرة باردة، منعت طبقة جليد تعلوها، روحي من الصعود إلى السماء.

لاحظت بأن شركس جالسٌ إلى جانبي، ربما كان بعيدًا، لكنني وصلت إليه، من دون أن أدري كيفية حدوث ذلك. قلت له:

- لي طلب عندك. أريد أن أُبلغك وصيتي، وإن شاء الله ينكتب لك عمر طويل وتطلع من هالمكان، أما إذا ما كان لك نصيب في الحياة مثلي، فأسامحك عن عدم ايصالها.

سألني شركس عما يجري لي، فأخبرته بأنني لم أعد أتحمل الأوجاع، وأشعر

بأنني أموت. عجزت دموعه عن منع مزيد من البرد من اختراق دفاعاتي الهشة، فسقطتُ على الأرض، كتلة جليد صماء، عاجزًا تمامًا عن الحركة. ماتت حواسي جميعها باستثناء السمع، أصبح قويًا جدًا، وكأن جميعها انتقلت إلى أُذنيَّ.

ناداني رفاقي، حركوني، صفعوني خفيفًا ورشّوا الماء على وجهي، لكنني بقيت عاجزًا عن الاستجابة، عن نطق حرف واحد، تحريك إصبع أو جفن على الأقل، لإعطاء إشارة بأنني حي. وصل غموض وضعي، إلى حد عدم ظهور علامات التنفس عليّ، وغيّاب أيّ أثر لجريان الدماء في عروقي، فاعتقد كل من رآني بأنني ميت.

حاولت جهدي القول بأنني حي، ليس خوفًا من الموت، بل لطمأنة رفاقي وتجنيب نفسي (عقوبة الميت)، إلا أنني فشلت.

تذكرت المعتقل الذي جاؤوا به محمولًا في بطانية إلى المهجع، ألقوه على الأرض وطلبوا منا إدخاله إلى الحمام، كان منهكًا وفاقدًا القدرة على الكلام، وعليه آثار تعذيب وحشي، حاولنا التحدث إليه بعد ذهابهم، من دون جدوى، فقد مات بعد بضع ساعات، من دون أن نسمع صوته أو نعرف عنه شيئًا، فأبلغ رئيس المهجع عن موته:

- سيدي، عندنا واحد ميت.

- أيّ مهجع يا عرصا؟

- المهجع الثامن سيدي، هاد الجديد مات.

- حطوه عند باب المهجع، بدنا ننيك شرفه.

سارعنا إلى تأدية صلاة الجنازة سرًا على المتوفي، قبل وضع الجثة عند الباب. بعد تنفيذنا أمرهم بالدخول إلى التواليت، دخل أكثر من سبعة

جلّادين إلى المهجع، وانهالوا بالضرب على الجثة، كانوا يصرخون عليها بعدوانية ويشتمونها بحرقة، وكأنّها سببت لهم ضررًا كبيرًا وعرضتهم لخسارة فادحة:

- أنت ليش متت يا ابن القحبة، أنت جاي لتتعذب، أنتو مو جايين هون لتموتوا يا أولاد الشرموطة، أنتو جايين لتتعذبوا، شو شغلنا إذا متتوا؟

دخلت في سباقٍ محموم مع الموت، حاولت جمع بقايا طاقتي التي كانت في طريقها إلى التلاشي، للضغط على نفسي والقول بأني حيّ، لقطع الطريق على رفاقي ومنعهم من إبلاغ الجلّادين بموتي، وأنا أفكر بأنني إن لم أمت من الضرب، انتقامًا من موتي من دون أذنهم، فسأموت حتمًا إذا وضعوني في براد الموتى أو دفنوني حيًا فيما بعد، إلا أنني فشلت، فحسم رئيس المهجع أمره، وصاح مكررًا لثلاث مرات:

- سيدي!

ردّ عليه (أبو القندرة الحمرا):

- شوفي عندك يا عرصا المهجع؟

- سيدي مات عندنا واحد.

- بأيّ مهجع يا عرصا؟

- المهجع الثامن سيدي، عندنا واحد ميت.

ساد صمتٌ جنائزي، يشبه ذلك الذي يلي حدوث وفاة، وما يرافقها من إرباك، حول الإجراء الذي ينبغي البدء به أولًا، على طريق طويل ينتهي بالدفن. دخلت في مرحلة عجز ثقيلة، مثل تلك التي يمر بها من يعش كابوسًا، وصل فيه إلى مشهد دفنه، وقد بُحّ صوته، بعد محاولات عبثية لإبلاغ المشاركين في الدفن، بأنه حي، ورجاءهم التوقف عن إهالة التراب عليه، لكن الغبار يمنعهم

من رؤيته، فيتابعون بإصرار وكأنه لم يعد موجودًا.

بعد مرور دقائق ثقيلة على الإبلاغ عن موتي، قطع صوت (الضابط الساحلي) الصمت:

- مين مات عندك يا عرصا المهجع؟

- شبال إبراهيم مات، سيدي.

الأمر ليس كابوسًا إذًا، لستُ في مواجهة مع الموت، بل أصبحت في قلبه الميت.

تأخروا في طلب نقلي إلى وراء الباب، على عكس ما حدث عند إبلاغهم عن الحالة السابقة، ربما فاجأهم خبر موتي، ولم يكونوا مستعدين للانتقام من جثتي، فبدؤوا بالإعداد لطقوس التنكيل بها، قد يكونوا استدعوا الجلّادين الآن، ويقوم كل واحد بتسليح نفسه، وربما أصبحوا على الطريق إلى المهجع، أو على وشك فتح بابه.

بينما ينتظر رفاقي الأمر بنقل جثتي إلى وراء الباب، بذلت محاولة أُخرى للإعلان عن عدم موتي، قدرتُ بأنها ستكون الأخيرة قبل وصول الجلّادين، وأنا أدعو الله أن يساعدني، فنجحتُ أخيرًا.

في اللحظة التي أراد فيها رئيس المهجع الإبلاغ عما استجد في وضعي، سبقه (الضابط الساحلي) بالسؤال:

- شو صار مع شبال إبراهيم، يا عرصا المهجع؟

- شبال إبراهيم تحرك سيدي.

- كل العالم تلبس، وتحطوا البطانيات تحتكم وتتغطوا حتى صدور أمر النوم، ويا ويلكم إذا سمعت صوت واحد أخو شرموطة منكم.

كانت الحادثة مناسبة لانفراجة، بطلها للغرابة هو (الضابط الساحلي)،

شملت المهاجع المجاورة كلها، لكنها لم تدم أكثر من أربعة أيام، عادوا بعدها لمعاقبتنا، بإرغامنا على تجميع البطانيات في زاوية المهجع، والتعري مع الجلوس بوضعية جاثيًا على البلاط، ورش المياه الباردة علينا.

بدأت مناوبة السجّان (الكُردي)، وهي أفضل فترة نعيشها قياسًا بمناوبة غيره، لذلك ننتظرها بفارغ الصبر ونتمنى دوامها. (فالكُردي) لم يشتمنا، لم يذكر والدي أحد بسوء يومًا، ولأننا لم نشهد ضربه لأحد، فقد شعرنا بعدم مشاركته في الضرب الجماعي أيضًا، علاوةً على ذلك، كانت لغته العربية الضعيفة وطريقته الطريفة في نطق الكلمات، خاصةً عندما يحاول أن يكون جادًا، تجلب بعض المرح إلى المهجع وتجعلنا نضحك. كانت شتيمته الوحيدة التي يكررها بلغته العربية المتعثرة، عندما يحاول إثبات وجوده، هي: (يا عرسا لا تحكي، يقطع صوتك).

زادت شكوى عماد الأجرد من أسنانه خلال مناوبة (الكُردي)، بحثت بين العبوات الفارغة، فعثرت على علبة مزيل الشعر، وجدت فيها نتف صغيرة منه، فوضعتها على موضع الألم، أملًا في أن تخففه مادة الزرنيخ التي يحتويها، وتمنع تفاقم الورم، عندما وجدت الأمر غير مجدٍ، حيث لم يعد عماد يحتمل، قررت خوض مغامرة غير محسوبة العواقب.

أصدر (الكُردي) أمر النوم في تلك الأثناء، وعندما بدأ بفتح شبابيك المهجع على الممر كالمعتاد، قلت من مكاني بصوت مسموع، متعمدًا خلط اللغة العربيّة بالكُرديّة، وأنا لا زلت متخوّفًا من ألا يكون كُرديًا:

- سيدي، أز كارم بشتغلم/ سيدي، هل يمكنني أن أتكلم؟

أضفت بلغتي الهجينة، من دون انتظار رده، بينما يغطي رفاقي رؤوسهم بالبطانيات:

- دتانيمن گلَكي ديشن/ أسناني تؤلمني كثيرًا سيدي.
- يا عرسا، بدي روح شوف إذا في ملح، بدي جيبلك ملح.

كان رد (الكُردي) عليّ، لا يقل تأثيرًا عن وقع كلمة الملح على مسامعي. فيا له من انتصار عظيم ويا لها من جائزة كُبرى، كُرديٌّ وملح في يوم واحد، لا بل في لحظة واحدة، فمثلما لم أتحدث الكُرديّة منذ زمن طويل، درجة الشعور بأنني الكُرديّ الوحيد في هذا العالم، فقد نسيت طعم الملح وأصبحت أراه في الأحلام، لخلو الطعام الذي يقدمونه لنا منه.

توقف بي الزمن، تعلقت عيناي بكوّة الباب بانتظار ما سيأتي منها، بينما لا تكف رؤوس رفاقي المترقبة، عن الظهور من تحت البطانيات، والإسراع في الاختفاء تحتها ثانيةً، فتزيدني توترًا. أصبح السؤال الكبير الذي يشغلني الآن، وبالتأكيد الجميع، هو عما إذا كان الأمر سيمضي بسلام حقًا، حتى النهاية. قطع صوت (الكُردي) دهرًا من الانتظار:

- يا عرسا ما في ملح، بس في هالحبتين، خدهم وبعدين نام يا عرسا.

رديت عليه بالكُرديّة:

- گلَكي سپاس سيدي/ شكرًا جزيلًا سيدي.

ذهبت محني الرأس إلى الباب، رفعت يديَّ ثم فتحتهما مثلما تقضي القواعد، فوضع فيهما حبتي الدواء ثم أغلق الكوّة، ليقطع بذلك الشكّ في هويته، لأنه لو لم يكن كُرديًا، لما فهم عليّ واستجاب لي، ولما عاملني بتلك الطريقة.

جافاني النوم تلك الليلة، تداخلت الأفكار في رأسي وضغطت المشاعر على صدري، من دون أن أحسم السبب في ذلك، فيما إذا كان ما جرى بيني وبين (الكُردي)، أم الشعور باقتراب وقوع أمر ما، وهو ما حدث في الصباح الباكر

من اليوم التالي، الثامن عشر من آذار ٢٠١٢. نادوا على اسمي بعد نصف ساعة من الاستيقاظ، وكنت لا أزال تحت تأثير ما حدث ليلة أمس، الأمر الذي جعل قلقي مضاعفًا.

نقلوني من المهجع مقيّد اليدين ومطمّش العينين، إلى غرفة تقع في الطابق نفسه، ضموني إلى آخرين سبقوني إليها، وجعلوني اتخذ وضعية جاثيًا. أجروا لنا التفقد وأعطوا كل واحد منا رقمًا، طلبوا منا حفظه بديلًا لأسمائنا، كان رقمي هو (١٣٢٠).

تحدث المعتقل الجاثي إلى جانبي مع آخر، يبدو بأن سجّانًا رآه، فتوعده وهو يتجه نحوه:

- أي أي برافو برافو، ما بقي غير أنك ترفع راسك وتتطلع فيني كمان، هلّا بفرجيك.

حطت يدٌ على كتفي في تلك الأثناء، ظننتها يد السجّان في البداية، أوقفني صاحبها من دون أن يقول لي شيئًا ونقلني من مكاني. تعرض أحدهم للضرب بعد برهة، في المكان الذي كنت فيه، على وقع شتائم أطلقها بحق الجميع من هناك، السجّان نفسه.

لم يكن الشخص الذي نقلني من مكاني، سوى (الكُردي). وجدت لتصرفه تفسيرًا وحيدًا، هو تجنيبي الضرب، ذلك أن الجلّاد الذي يحدد سجينًا لمعاقبته، يختلط عليه الأمر أحيانًا، فلا يعود يميزه عن غيره، فيضرب آخر بدلًا منه، أو يعمد إلى ضربه مع كل القريبين منه.

عمد (الكُردي) بدوره إلى توبيخنا من حيث يقف خلفي، لإظهار نفسه حريصًا على تنفيذ التعليمات، بما لا يقل عن السجّان الذي ضرب رفيقنا، لكنه زودنا بمعلومة من حيث لا يدري، فهمنا من خلالها بأن نظام الحكم

فاقدٌ السيطرة على الوضع في البلاد:

- ولك يا عرسات، بالأول كان كل شي تمام، تنزل الساعة اتنين بنص الليل للشام، أما اليوم الساعة سبعة المسا ما تسترجي تطلع لبرا، وصارلنا ثماني شهور ما نزلنا إجازات.

بعد حوالي ساعتين من الانتظار، أحكموا ربط الطمّاشة على عينيّ، ثم نقلونا من الغرفة إلى باصٍ قريب، سألوني عن اسمي عند بابه، ربما على سبيل الاختبار، فذكرت من دون تردد رقمي، وعندما توقف بنا الباص بعد مسافة نصف ساعة من السفر، وكان ذلك قرب بناء، نادوا على اسمي:

- ١٣٢٠!

- حاضر سيدي.

أدخلوني إلى غرفةٍ، تعرضت فيها لضرب مبرح، صفعًا ولكمًا وركلًا، ثم تُركت لوحدي، فاستكشفت المكان في غيابهم، عبر السير لصق الحيطان، مثلما يفعل المرء في زنزانة القبو. قدِم عنصران بعد وقت قصير، أخرجاني مقيد اليدين ومطمّش العينين، وقالا بأنهما سيأخذانني إلى المعاينة الطبية. كنا ننتظر في الممر، عندما انفجر صوتٌ نسائي بالصراخ، متوجهًا إلى العنصرين، وقبل أن أستوعب ما يجري، تلقيت ضربةً بأداة حادة على رأسي:

- أنتم جايبين الإرهابيين لتعالجوهم هون!

- ممنوع ضربه، راح يموت بين أيديكِ، ونحن مسؤولين عنه.

على الرغم من منعها من متابعة اعتدائها، وتحذيرها، لم يتوقف الصوت النسوي عن التهجم عليّ واتهامي بالإرهاب، إلى أن ضاع وسط غابة من الأصوات، قد تكون لمرضى مع أقاربهم أو مرافقيهم، ينتظرون في الممر دورهم للفحص الطبي، أو ربما لعاملين في المركز الصحي، راحوا يهتفون بصوت واحد

من دون توقف:

- الله، سوريا، الرئيس وبس.

لم ينتهِ الاعتداء عليّ عند ذلك الحد، تفاجأت بعد توقف هتافات المؤيدين لنظام الحكم، بمياه قذرة تصدر عنها رائحة مطهر، تدلق على رأسي، بللتني بالكامل، وبشتائم تطلقها عليّ امرأة أُخرى، باللهجة الساحلية. جنَّ جنون العسكري عندها، وأخذ يكفر بالرب، قال محتدًا:

- ولك شو أنتو، وشو علاقتكم بالموضوع؟ مرة تجي الممرضة وتضربه بحديدة السيروم على رأسه، ومرة تجي عاملة التنظيف وتصب عليه المي اللي شطفت فيها الأرض، احترمونا على الأقل، ملأتونا بالمي الوسخة.

أدخلني العنصران إلى مصعد نقلنا إلى الأعلى، حيث غرفة طبيب سألني عن اسمي، فذكرت له رقمي، وأجبت عن سؤاله التالي عن مرضي، فقال بأنه سيأخذ عينة دم لفحصها، ثم مرر سماعته على صدري وقال بأن أموري على ما يرام، لكنه سيقرر وضعي بناء على نتيجة التحليل. وجه الطبيب كلامه للعنصرين المرافقين:

- يستحسن أخذه لمشفى ثاني، ويُفضل مشفى المجتهد، لأن هالاختصاص موجود عنده.

- ممنوع دكتور، إما هون أو مشفى تشرين.

غيّر الرد الملتوي للعنصر على الطبيب، من أفكاري حول المكان الذي أتواجد فيه، عاد مجهولًا، بعد أن اقتربت من حسم وجودي في مشفى تشرين العسكري، الذي نفذت فيه دورة تمريض، بعدما أنهيت دراستي في المعهد الطبي قسم التحاليل، وكان كوادر المشفى أو معظمهم حينها، من أطباء وممرضين وعمال نظافة، من منطقة الساحل، الذين لا تخفى لهجتهم التي

سمعتها اليوم على أحد، مع وجود أقلية من مناطق أُخرى، بلهجاتهم المختلفة.

أخذوني إلى المخبر لأخذ عيّنة دم، أدخلت ممرضة إبرةً في يدي وسحبتها من دون نتيجة، فسّرت لي ما قامت به بلهجتها الساحلية:

- أنا قادرة أسحب الدم بثانية وحدة، لكني حابة أتمنيك عليك.

ثَقَبَت الممرضة يدي خمس مرات، سحبت الدم في الأخيرة منها، ثم طلبت مني الخروج من المخبر، من دون أن تنساني من دعائها:

- روح الله لا يشفيك، الله لا يعالجك، الله لا يردك.

وجهت حديثها بعد ذلك للعنصر الذي يرافقني، حانقةً:

- نحنا صار شغلنا معالجة الإرهابيين هون، ما هيك!

أراد العنصر التخفيف عنها، وإظهار كرم أخلاقه وتسامحه:

- نحنا عم نشتغل بأصلنا.

لمتُ نفسي في البداية، على ما تعرضت له في المشفى، لأنني خاطرتُ بتسجيل مرضي لدى طبيب السجن، وأمّلتُ منهم خيرًا، لكنني سرعان ما تجاوزت ذلك، ووقفتُ على الجانب الإيجابي للموضوع، فقد أعادني ما حدث إلى بدايات الثورة، شعرت بجرعة من القوة تسري في جسدي، من دون أن أحصل منهم على حبةً واحدة.

علاوة على ذلك، حلّت زيارة المشفى بعد أيامٍ قليلة، اللغز الذي أحاط طوال الوقت بمكان وجودي، والمركز الطبي الذي كنت فيه. نادى (الضابط المحترم) على اسمي، عند إدخال وجبة الطعام اليومية، وكان مناوبًا يومها، وسألني:

- شبال إبراهيم، شو كان اسمك لما رحت ع المشفى؟

- ١٣٢٠، سيدي.

- هذي الورقة بتحرص علها، وتاخدها معك وين ما رحت، وإذا جاء الدكتور بتعطها له.

سعيت طويلًا إلى الحقيقة، من دون جدوى، لكنها جاءتني أخيرًا على قدمها. فتحت الورقة المطوية مثل تعويذة، لم تكن سوى تقريرًا طبيًا، بدأ باسم الجهة التي أصدرته ومكان صدوره (الجيش والقوات المسلحة - الشرطة العسكرية - مشفى تشرين العسكري)، وتم توجيهه إلى (رئيس السجن العسكري الأول بدمشق - صيدنايا، العميد الركن محمد نجيب محفوظ)، وورد فيه اسمي (السجين ١٣٢٠) ونبذة عن وضعي الصحي، ثم بتوقيع اللواء رئيس المشفى، إلى جانب الختم.

عرفت اسم السجن ومن يديره، والمشفى الذي أخذوني إليه، فأبلغت رفاقي بذلك، تواصلنا مع المهاجع الأُخرى، فعلم الجميع خلال دقائق، بأننا في سجن صيدنايا.

انقطعت المياه في منتصف أغسطس ٢٠١٢، كنا نسمع الضباط والعناصر يتحدثون عنها، أثناء مرورهم من أمام المهجع، بطريقة أعطت انطباعًا، بأنهم لا يقفون وراء قطعها. تحدث إلينا ضابطٌ عما يجري بنبرة أبوية، في اليوم الثالث لانقطاعها:

- اسمعوني يا أولادي، المي مقطوعة عنكم، لأن الإرهابيين أولادين الحرام دمروا الخزانات، وإذا ما اجت اليوم، فراح نحاول نجيبها إلكم بالقصعات بكرة.

ربما كان هدفهم من مخاطبتنا بهذا اللين، المحافظة على شعرة معاوية معنا، خشيةً من أن يؤدي أيّ ضغط إضافي، في ظروف الاعتقال والتعذيب الرهيبة، إلى إفاضة الكأس، فتصبح الأمور كلها سيّان عندنا، ولا نعود نبالي

بالنتائج، فنلجأ إلى الخطوة الانتحارية ونتمرد، ما يعني احتمال خروج الأمور عن السيطرة.

عانيت أكثر من الجميع من انقطاع المياه، ربما كان للأمر علاقة بالمرض الذي أعاني منه، جفّ فمي تمامًا والتصق حلقي ببعضه من العطش. قلت لشركس بصعوبة:

- أنا ما عاد أتحمل، راح أصبر ساعة وحدة مو أكثر، وأقسم بالله إذا ما توفرت المي خلالها، فراح أشرب من حفرة التواليت، البول والوسخ ممكن يصيبني بإلتهاب، لكن ما راح أموت بسببه، اللي راح يقتلني بالتأكيد، هو العطش.

حملت كأسي وذهبت إلى التواليت، أريد أن أشرب من الصرف الصحي، فوقف رفاقي أمامي ومنعوني، عدت ولكنني أعدت المحاولة ثانية، فأعادوني بالقوة إلى مكاني.

تم تزويد المهاجع بالمياه في الليل، في صحون بلاستيكية صغيرة. تقاسمنا مياه الصحن، فحصل كل واحد على حوالي ربع كأس، كانت كافية ليبلل بها فمه. حافظنا على صحن المياه، بوضعه على كيس خبز فارغ، ولففناه به. استمروا بتزويدنا بالمياه بتلك الطريقة، على مدى أربعة أيام، لم تزد الحصص عن ربع كأس لكل واحد في اليوم، لكننا حرصنا على الرغم من قلتها على الاقتصاد في تناولها، بعدم شربها دفعة واحدة.

جاؤوا بوجبة عيد الفطر، في التاسع عشر من أغسطس ٢٠١٢. احتوى البرغل على غير العادة، على قطع لحم، عزلها خالد السيوفي عن البرغل ووضعها جانبًا. لم تكن الكمية تزيد عن مئتي غرام، قسّمها إلى حصص متساوية، ووزعها علينا.

على الرغم من أنني لا أتناول لحم المواشي عادةً، إلا أنني بتُّ مستعدًا لأكله،

مثل أيّ شيء آخر، خاصةً بعد أن نضبت الدهون من جسمي.

قلّبت قطعة اللحم الصغيرة بين يديّ، فوجدت عليها شعرًا أبيض كثيفًا، أمعنت النظر فيها غير مصدق، فحصتها أكثر، فاقشعر بدني وتجمدت، عندما تيقنت بأن ما أحمله، ليس سوى لحمًا بشريًا، مع قطعة جلد يغطيه شعر.

الأسئلة سيول هائجة، لا تتوقف عن الضغط على مشاعري، فتكاد تحطم سدودها المتحجرة، وتخرجها طوفانًا لا يبقي على شيء:

- كيف وصل اللحم البشري إلى طعام السجناء؟ لحم من هذا؟ ماذا فعلوا بصاحبه؟ كيف تم تقطيعه؟ من طهاه؟ هل نحنُ في مسلخ بشري أم سجن؟ هل نحنُ حيوانات أم بشر؟ هل سُيقدم لحمي أيضًا لآخرين، يومًا؟

أشعر بغثيان ممزوج بالرعب، ولا أعرف كيف أتصرف. وجّهت ضربة خفيفة بكتفي إلى كتف خالد السيوفي، انتبه ونظر إليّ، أشرت له إلى اللحم بين يدي، فصاح مفجوعًا:

- الله أكبر!

أطبقتُ بيديّ على قطعة اللحم مثل تابوت، من دون أن يدري الآخرون عنها شيئًا، توجهت بها إلى التواليت وتخلصتُ منها هناك، تقيأت على الرغم من ذلك.

حصلت حالة إسهال غير مسبوقة في صيدنايا في اليوم التالي، ثاني أيام العيد، علمنا بحصول وفيات، من خلال مناداة رؤساء المهاجع للإبلاغ عنها، ومشاهدة نقل جثث عبر الشبك أسفل الباب. أحضروا طبيبًا بعد يومين، أمر من لا يزال محتفظًا باللحم، بالتخلص منه.

الفصل الثامن: المحاكمة

الحكم السري

ازدادت وتيرة المحاكمات، شهد الثاني من سبتمبر ٢٠١٢، أكبر عملية نقل بين سجن صيدنايا والمحكمة. فُتحت أبواب المهاجع في أجنحة السجن الثلاث، التي لا تقل عن عشرة في كل جناح، قبل موعد الاستيقاظ اليومي بوقت طويل، أخذوا شبان داريا الأربعة من مهجعنا، فأصبحت بذلك أقدم الموجودين دون محاكمة.

تحركت أربع إلى خمس عربات من السجن، بسبب العدد الكبير للمعتقلين، بينما كانت عربة واحدة تغادر في الأيام الماضية. تواصلنا مع المهاجع الأُخرى، فعلمنا بأن اليوم مخصصٌ لمحاكمة مدينة داريا.

عاد شبان داريا مساءً من المحاكمة مبتهجين، كانت معنوياتهم مرتفعة، وكأنهم في اليوم الأول من الثورة. أخبرنا عبدالحكيم شربجي، بأن يحيى ومعن شربجي كانا معه في العربة البراد التي نقلتهم إلى المخكمة، وأخبرنا آخر، بأن من بين الذين التقاهم محمود، رفيقي في معتقل باب توما، أبلغه بأنني في صيدنايا، وأوصل إليّ سلامه وسلام كل الذين أعرفهم.

لم يكن شبان داريا الأربعة في عربة نقل واحدة، لحسن الحظ، فتنوعت بذلك دوائر لقاءاتهم وتوسعت، وكلما ذكر أحدهم اسم واحد التقاه، كنا جميعًا، بمن فيهم هؤلاء الذين كانوا في المحكمة، ولكنهم ذهبوا إليها في عربة أُخرى، نسأله بغبطة غير مصدقين:

- عن جد التقيت فلان!؟

أسدل الليل ستاره على نهار محاكمة داريا، وحمل لأبنائها حكاياتهم وآمالهم إلى النوم. جاءني مشعل التمو تلك الليلة في الحلم، كنا جالسَين على أريكة ناصعة البياض، وأُدرِك بأنه شهيد، يرتدي لباسًا أبيضَ كأنّه كفن، حتى حذاؤه كان أبيضًا. قال لي:

- أنت تأخرت هون كتير يا شبال، وكان لازم تطلع من مدة طويلة، أنا أتابعك لحظةً بلحظة وما بعرف ليش بقيت لهلّا، بينما نحنا الدفعة الأولى ما تأخرنا.

كانت عيناي مليئتين بالدموع، عندما أيقظني صوت فتح شِراق باب المهجع، في الصباح الباكر من اليوم التالي. نادى عليّ السجّان (الكُردي):

- شبال إبراهيم، تعا لهون يا عرسا.

لم تجعلني طريقة لفظ (الكُردي) المخففة للشتيمة، بصورة تفرغها من روحها العدوانية، أشعر بأنني أتعرض للشتم أو أن سوءًا بانتظاري، بل بأقرب المقربين مني، يمسح دموع حلم الأمس الذي زارني فيه مشعل التمو، وأبلغني بأنه يحمل همّي، على الرغم من رحيله.

أخذني (الكُردي) إلى الغرفة نفسها، التي أرسلوني منها إلى المشفى، ثم جاؤوا بآخرين. قيدوا يديّ وضيقوا حلقات القيد، فضغطت على عظام الرسغ وسببت ألمًا كبيرًا، نقلونا إلى حافلة النقل إلى المحكمة، التي لم تكن سوى شاحنة مُبرّدة لنقل المواد الغذائية.

صعدت إلى الحافلة، يتقدمني الأمل بلقاء حسين عيسو، فالمحاكمة كما يُفترض، مناسبة لجمعنا معًا، باعتبارنا قضية واحدة حسب تعريف أجهزة المخابرات، أما إذا لم يكن موجودًا معي على متن الحافلة الوحيدة التي تغادر إلى السجن، فهو لم يعد موجودًا على الأرجح.

سارع الجميع إلى التعريف بأنفسهم في وقت واحد، والسؤال عمن يعرفونهم. الأمر أشبه بمناداة باعة في سوق شعبي، على بضائعهم المعروضة على الرصيف لتسويقها، بينما عيونهم القلقة تنظر بعيدًا، خشية ظهور دورية شرطة ستلاحقهم، وتصادرها:

- أنا شبال إبراهيم، مين هون يا شباب، حسين عيسو هون؟

- لا.

- في حدا شاف حسين عيسو؟

- لا يا أخي.

- في حدا سمع عنو شي؟

- لا والله يا أخي.

على الرغم من خوفي على الأهل والأصدقاء والمعارف من هذا المعتقل، من أن يكون القدر ساق أحدهم إليه، فأصابه شيء مما تعرضت له، إلا أنني وددت في حال وجوده، أن يكون معي في الحافلة، لذلك تابعت السؤال، بحذر:

- في حدا كُردي هون يا شباب، في حدا من قامشلي، عامودا، ديرك، عفرين، كوباني؟

الحافلة المغلقة علينا بإحكام، خريطة بلاد تسير على عجلات نحو المجهول، أطبق لاعبُ نردٍ بيديه على مدنها وقراها، وراح يضربها ببعضها بعنف، ثم نثرها ركامًا، فتبعثر أبناؤها على كامل مساحتها، ثم خرجوا من تحت الأنقاض بعد حين، ينفضون غبار الموت عنهم، ويعملون على استعادة هوياتهم مجددًا، وإذا عثر أحدٌ منهم على أحدٍ يعرفه، سارع إلى محادثته، ليتيقن من أنه لا زال حيًا.

سمعت من الطرف الآخر للحافلة صوت أحمد قنديل، رفيقي في معتقل

باب توما، لم أتمكن بسبب اكتظاظها، وبالتالي استحالة الحركة داخلها من الوصول إليه، فتبادلنا السلام عن بعد وسألنا عن الأحوال، تداخل صوتانا مع أصوات الآخرين، ووجدت صعوبة في سماع معظم كلامه، والاستمرار بالحديث معه.

بعد تراجع أمواج الأسئلة واستقرار مستوى الأصوات، بدأنا بتوسيع دوائر التعارف، وتبادل الأحاديث مع الذين لا نعرفهم. حدثني شاب يقف إلى جانبي في زاوية الحافلة عن نفسه، قال بأن اسمه جهاد من قرى درعا، أخبرني بأنه أبٌ لطفل، وبأن زوجته كانت حاملًا بطفله الثاني عند اعتقاله، حدثني عن دراسته وعمل والده في الخليج.

سألتقي بعد ثلاث سنوات عائلة جهاد، في مدينة هيرفورد الألمانية. سيكون معي في مدرسة تعلم اللغة خمسيني سوري، سيخبرني بأنه قدِم مع عائلته إلى ألمانيا، ومعهم كنته وحفيداه من ابنه المعتقل في صيدنايا، الذي لا يعرفون شيئًا عن مصيره منذ اعتقاله، سأسأله عن اسم ابنه وسأعرف بأنه جهاد، وعندما سنقاطع ما لدينا من معلومات مع بعضها، سأجد بأن اليوم الذي علم فيه بوجود ابنه في المحكمة، بناءً على رشوة دفعها، سيكون اليوم نفسه، الذي جمعتني وإياه حافلة السجن.

سيضمني والد جهاد إلى صدره بحرارة، وكأنّه يضم ابنه، ثم يسارع للاتصال بوالدته وإخبارها عن الأمر، فتتحدث معي باكيةً، مثله، وتدعوني للزيارة بسرعة:

- أريد أسمع كلمات جهاد الأخيرة وأشم ريحته منك، لأنك آخر واحد حكى معاه ولمست كتفه كتفك، أريد أسقيك وأطبخ لك، يمكن يصله شيء بالمكان اللي مخفي فيه من دون أثر.

أنزلونا من الحافلة، استقبلونا عند بابها بصفعات وضربات عصي خفيفة، تكاد لا تذكر، مقارنة بما نتعرض له عادةً.

وجدت نفسي في عالم آخر، كدتُ أنساه وفقدت الأمل بالعودة إليه ثانيةً، لا بل بتُّ أشك بوجوده مؤخرًا. أجلسوني بوضعية جاثيًا تحت أشعة الشمس، فتركت العنان لقلبي يستمع إلى (قارئة الفنجان) لعبدالحليم حافظ، تبث من إذاعة قريبة، وهي المرة الأولى التي أسمع فيها موسيقا منذ اعتقالي. كنت سعيدًا جدًا بذلك الترف، الشمس والموسيقا والهواء والخلاء دفعة واحدة. ربما أصبحتُ في نهاية النفق المظلم، الذي بدا طوال الوقت بلا نهاية، بحيث ظننتُ، بأنني سأبقى (مفقودٌ، مفقودٌ، مفقود) بعدما دخلته، عندما حاولت (فكّ ضفائرها)، كما تقول كلمات الأغنية الآن.

شعرت بدوار، وبصعوبة تحمل حرارة الشمس، قبل أن يبدأ الظل بالزحف علينا، وتغطية رؤوسنا، سمعتُ عندها صوتًا مألوفًا ينادي على اسمي، كان المنادي هو صاحب الصوت الذي سمعته في القابون، عندما شتم عساكر الجويّة وطلب منهم التوقف عن ضربنا، (لأنه لا يريد استلام جثث)، كما قال يومها. أخذوني إلى غرفة، وأجلسوني على الأرض بوضعية جاثيًا مجددًا، ثم أدخلوا اثنين آخرين وأجلسوهما ورائي. ساد صمتٌ قصير، قطعه الصوت نفسه، بطريقة تدل على قرب اكتشافه شيء ما، بعدما راجع حساباته:

- لحظة لحظة، مو أنت شبال إبراهيم؟

- بلى سيدي.

- أنت من وين؟

- من قامشلي سيدي.

- وقف على حيلك وامشي عادي وقرب لهون، لحتى أطلب منك التوقف.

اتجهت إلى مصدر الصوت، اقتربت منه فطلب مني خفض رأسي، فعلت وتهيأت لتلقي صفعة، لكنه فاجأني برفع الطمّاشة عن عينيّ، وقال:

- اتطلع فيني ولا تنسى وجهي.

نظرت إليه من دون أن أفهم شيئًا، فقطع عليّ استغرابي:

- يا شبال خربانة الدنيا عليك برا، تعرف عائلة مراد من اللاذقية؟

فكّرت بما يريده مني هذا الشخص، الذي يحمل رتبة مساعد أول، ويبدو مسؤولًا ذا نفوذ أكبر من رتبته. عدت إلى سنوات دراستي في المعهد الصحي باللاذقية، علّي أتذكر أحدًا باسم مراد، من دون جدوى. رديت عليه، وأنا أفكر بأنه لم يعد هناك شيء أخسره:

- أي سيدي بعرفها.

تلقف ما قلته، وكأنه كان يتوقعه:

- صرعوني بالتلفونات بالسؤال عنك، مع أني ما بعرفهم شخصيًا، بس بيمونوا على الرقبة، أختي مرّت بموقف صعب خلال دراستها باللاذقية، وهدول عملوا شي ما أنساه بحياتي.

جاء صوت أحمد قنديل من الجهة الخلفية، يطلب من المساعد أول التحدث معي. يبدو بأن سماعه ما يجري أمامه، شجعه على ذلك:

- سيدي ممكن أسلّم على شبال، هو ابن خالتي وما التقينا من يوم فراقنا في باب توما.

- تعال سلّم عليه.

رفع المساعد أول الطمّاشة عن عيني أحمد أيضًا، فسارعنا إلى احتضان بعضنا ودخلنا في موجة بكاء، أنهاها قائلًا:

- خلاص شباب، بيكفي.

لاحظت وجود ملفات كثيرة بين يدي المسؤول، فأردت الاستفسار عن وضعي:

- سيدي، عندي سؤال إذا سمحت لي.

- أسأل اللي بدك ياه، شبال.

- سيدي لإمتى راح نبقى في صيدنايا؟

- شو بيعرفك أنك بصيدنايا؟

- سيدي، أنا رحت لمشفى تشرين وأعطوني تقرير عن حالتي، مكتوب عليه صيدنايا.

- ما في مشكلة. أنتم موجودين بصيدنايا للتأديب وعلى سبيل الإيداع، انتهى التأديب وجيتم اليوم للمحكمة، لذلك ما عاد لكم شغل بصيدنايا، وأتوقع مهما طال الأمر، أن يتم تحويلكم لسجن مدني خلال شهر أو اثنين.

انتقلت إلى السؤال الصعب، الذي جعلني أسمع دقات قلبي، وهي تنعشه ثانيةً:

- سيدي، يعرف أهلي بوجودي في صيدنايا؟

- الكل يعرف بأنك بصيدنايا والأكراد كلهم يطالبون بك، وبما أنكم وصلتم إلى المحكمة، فمن حق أهاليكم زيارتكم اعتبارًا من بكرة، لأن الزيارة قبل المحكمة ما بتصير.

ارتفعت معنوياتي كثيرًا، شعرت بامتلاك قوّة، أستطيع مواجهة العالم بها. انتقلت بالسؤال إلى النتائج، التي بتُّ مستعدًا لتقبلها، بالقوّة التي أصبحت عليها:

- ممكن أعرف مدة الحكم عليّ؟

- أنت عملت شغلات كثيرة يا شبال، ما راح يكون الحكم عليك بسيط.

- احكموا عليّ بثلاثين سنة، خلوها أربعين خمسين، ما يهم، لكن حطوني بسجن مدني، فصيدنايا ما هي سجن أبدًا.

أنهى المساعد أول الحديث، وأعاد الطمّاشات إلى مكانها، لكن أحمد طالبه بالمزيد:

- شباب خذوا أماكنكم، راح تفوتوا عند القاضي.

- سيدي، تم ضبط خمس أو ست حقائب معي، خذها بما فيها حلال عليك، بس خبرنا كرمى لله أيّ شيء حول مصيرنا.

- لا تهتموا، كل شيء خير إن شاء الله، راح تاخد حقائبك معك وترجع على بيتك.

أمسك أحدهم بيديّ المقيدتين وجرّني وراءه، رفعوا الطمّاشة عن عينيّ في غرفة أُخرى، فوجدت نفسي بمواجهة ثلاثة أشخاص، جالسين وراء طاولة، أحدهم رجل ستيني سمين وإلى جانبه شاب ثلاثيني ثم آخر على طرفها، بينما كانت صورة رئيس الدولة مسندة إلى الحائط على الأرض، الأمر الذي أفرحني كثيرًا، على الرغم من عدم وجود ما يدل على سقوط نظام الحكم، فكّرت في البداية باحتمال استبداله بواحد من عائلته، لكنني غيرت رأيي بعد رؤية الدهان الحديث على الجدار، وشممت رائحته.

بدأ الشاب الثلاثيني الكلام من دون مقدمات، أو وجود ما يدل على المكان وهويات الأشخاص الثلاث:

- شبال إبراهيم، عندك ثلاث تهم رئيسية، لكن خبرني قبل ما نبدأ، ليش ما قبلت بالجلوس مع السيد الرئيس؟

- سيدي، أعطوني مهلة ثلاثة أسابيع لترتيب الموضوع، لكنهم اعتقلوني بعد

مرور أسبوع واحد، ما تركوا لي مجال وخالفوا تعهدهم.

- مين أعطاك المهلة؟

- فرع الأمن العسكري.

هز المتحدث رأسه عدة مرات، في الوقت الذي صدرت عنه مممممممم طويلة، ثم سأل:

- يؤكد موقع الباخرة الكُرديّة/گميا كُردا عبر أخبار ومقالات نشرها، بأنك قائد التنسيقيات الكُرديّة، لكنك أنكرت الموضوع في قامشلي ومطار المزة، ليش تنكر والمسألة واضحة؟

تذكرت نصيحة شبان داريا، بإنكار كل التهم وعدم الإدلاء حتى باعترافات صورية، مهما كان حجم الضغوط أو الإغراءات، لأن نظام الحكم لن يستطيع إصدار أحكام، بل سيؤجلها حسب تصورهم، إذا لم تكن هناك اعترافات، لكنه سيحكم على المعتقل بالإعدام، إذا اعترف بأيّ شيء، وبما أن الجميع يعيش على أمل سقوط رئيس النظام، ويجدون في ذلك المفتاح الوحيد لنيل حريتهم، فهم مستعدون لتحمل كل شيء، للوصول إلى ذلك اليوم من دون اعترافات قد تودي بهم، على الرغم من عدم وجود رابط بين الاعتقالات وارتكاب الجرائم، وبين الاعترافات والأحكام، كما أثبتت التجارب.

أنكرت التهمة الموجهة لي:

- والله ما لي علاقة بالتنسيقيات يا سيدي، قلت هالشيء بأول تحقيق كمان.

طلب مني الإجابة على السؤال، وليس إنكار التهمة مجددًا، وأضاف:

- أنت ما اعترفت بأسماء الجهات اللي تمولكم، إذا اعترفت لي، راح أخفف الحكم عنك.

- سيدي، إذا ما كنت بالتنسيقيات، فكيف راح أعرف الجهات الممولة؟

يبدو بأنه وصل إلى النهاية، فقد سألني:

- هل تطلب الرحمة؟

- ما حدا يرفض الرحمة يا سيدي، بس أنا ما عملت شيء، وأنتم قضاة ودارسين القانون.

- قصدك ما راح تطلب الرحمة؟

بدا وكأنّه ضاق بي ذرعًا، فقررت أن أكون أكثر مرونةً:

- أطلب الرحمة لأنني مجرد متظاهر، والمفروض أكون برات هالمكان من مدة طويلة.

تدخل الرجل الستيني السمين لأول مرة، محتدًا:

- خلاص خلاص، طالعوه لبرا.

أعادوا تطميش عينيّ وأخرجوني من الغرفة، لتنتهي المحاكمة بذلك. باستثناء ما قاله القاضي قبل إخراجي، من أنني في حكم الميت، أو شيء من هذا القبيل (راحت عليك وانسى كل شيء)، لم أعرف شيئًا عن الحكم الصادر عليّ، وهو أمر معتاد في هذه المحكمة التي تبقى أحكامها سرية، لا يعلم بها المحكوم عليهم، وهي لا تعني لإدارة السجن شيئًا على كل حال، فقد يبقى المرء محتجزًا لديها طويلًا، حتى بعد تنفيذ مدة العقوبة السريّة.

دامت محاكمتي حوالي دقيقتين، ربما كانت الأطول مقارنة بالآخرين، إذ لم يكد كل واحد منهم يدخل إلى غرفة المحكمة، حتى أخرجوه منها سريعًا، فانتهوا بذلك منا جميعنا، خلال حوالي ثلث ساعة.

أجلسني المساعد أول في مكان ما، ثم جاء بأحمد قنديل وأجلسه إلى جانبي، تحدثنا عن بعض الأمور التي شهدها كل واحد، منذ افتراقنا. سألته عن عقوبة إزالة شعر الذقن، التي أوقعها (متعب) علينا، فقال بأنهم لم

يعرفوا مثلها.

عاد المساعد أول وفاجأني بسؤال، عما إذا كنت جائعًا، صمتت تحت وقع الصدمة، فأضاف إلى سؤاله تفصيلًا، جعله شهيًا، يكاد لا يُقاوم:

- شبال، أنت جوعان؟ أجيبلك خبز؟ في خبز وحلاوة كتير عندنا.

على الرغم من أنني مصابٌ بجوع مزمن، جعلني على وشك الانهيار، وعرض المسؤول رغيف الخبز في هذا الوقت، لا يقل عن عرض منحي إكسير الحياة، إلا أنه بدا تافهًا، بعدما سمعته منه قبل قليل، من أن الأكراد يطالبون بي، وبدا رشوةً، عندما وجهه لي وحدي من دون رفيقي الجالس إلى جانبي، فكيف سأذل نفسي بعد هذا الموقف، وأسقط في الاختبار من أجل بعض الخبز، حتى إذا كانت حياتي متوقفة عليه. رددت على المسؤول:

- لا والله سيدي، ماني جوعان.

تأخرنا حوالي أربع ساعات في القابون، بسبب وقوع انفجار، حدث مثل هذا الأمر من قبل، مع آخرين. أخذوا أحد زملائنا للمحاكمة قبل فترة وأعادوه في اليوم التالي، وعندما سألناه عما جرى معه، قال بأن انفجارًا وقع، فبات المعتقلون ليلتهم في سجن القابون، أضاف بأنه تمنى أن يبقى هناك إلى الأبد:

- الخبز كان متوفر مثل الهوا، تصور أكلت لوحدي ثلاثة أرغفة بالليل، شيء مثل المعجزة، ما هيك؟

تعاملنا نحن الذين كنا نسمعه، على أن الأمر معجزة حقيقية، فالحصول على ثلاثة أرغفة دفعة واحدة، هي مثل أن ينام المرء مفلسًا، بائسًا، يكاد الجوع يفتك به، لكنه يستيقظ على امتلاك ثلاثة أفران وتلال من الخبز الساخن وحقول قمح لا نهاية لها، وعندما يُحدّث أحد الذين يعرفونه عن ذلك، يغبطه ويسأله، غير مصدقٍ في قراراة نفسه:

- معقول، صار عندك كل هذه الأشياء؟

أعادونا إلى عربة النقل، جائعين مثلما قدمنا، تلقى كل واحد عدة هراوات خلال الصعود. ساد الصمت خلال رحلة العودة، فقد تزودنا بكفايتنا من الكلام، وبتنا نستعجل وصول العربة إلى السجن، لإخبار رفاقنا بما جرى معنا. في غرفة التوزيع، استعصى قيد يدي على الفك، على الرغم من محاولات لذلك، دامت دقائق. تلقيت في تلك الأثناء ركلةً على كتفي، أسقطتني أرضًا، كانت من (الضابط الساحلي) الذي قال:

- اعملوا معه آخر محاولة، وإذا ما انفك القيد، اقطعوا له أيديه وخلصونا.

شعرت بجدية التهديد، تخيّلت للحظات نفسي من دون يدين في هذا الجحيم، لكن نجاحهم في فك القيد بعد مزيد من المحاولات، قطع سلسلة أفكاري المرعبة، وأوقف تعرق جسمي.

كانت معجزة بانتظاري في المهجع، وجدت أمامي العنب الذي لم أره منذ اعتقالي، وهو أكثر فاكهة أحببتها في حياتي. فالفاكهة الوحيدة التي نحصل عليها هي البرتقال، حيث يعطوننا بين الفترة والأُخرى، نحن الأربعة وعشرين معتقلًا ثلاث برتقالات، فنقوم بتقشيرها، ثم نقتسمها مع قشورها، ونأكلها من دون أن نبقي لها أثرًا.

تقاسم رفاقي حصتي من الطعام، لأنهم توقعوا بسبب تأخري، بأن لا يعيدوني اليوم، وبذلك كان الطعام الفاسد سيفسد تمامًا، لكنهم حفظوا لي حصتي من العنب، وبعد أن تنازل بعضهم عن حبة أو اثنتين، تعويضًا عن حصتي من الطعام، أصبح لدي أربعًا وعشرين حبة عنب، إلا أنني وجدت من غير المناسب أن آكلها لوحدي، فأعدت توزيعها عليهم، مثل سكاكر العيد التي كنا نحصل عليها أطفالًا، لينال كل واحد حبة واحدة.

قطعت مرحلة المحاكمة أخيرًا، وأصبح الباب مفتوحًا على تلقي زيارة، وربما نقلي من هذا المكان وفق القواعد المعمول بها، وبتُّ مؤمنًا بعد إبلاغي بمعرفة أهلي بوجودي هنا، وبأن هناك من يهتم لأمري، بأن القائمين على المعتقل سيفكرون ألف مرة قبل التخلص مني، بعد مروري بمرحلة ظننت خلالها، بأن الجميع استسلم لفكرة موتي، وبأن تصفيتي ستكون تحصيل حاصل.

كانت كل هذه الأخبار المفرحة، في الذكرى السنوية لزواجي، فرحتُ أستعيد تفاصيل ذلك اليوم، مع أسماء ووجوه كل من حضر الحفل وأتحدث معهم، واختتمت يومي باللقاء المعتاد مع أطفالي. شعرت بيد تهزني أثناء النوم، ظننت نفسي أحلم، فتحت عينيّ، فوجدت عبدالحكيم شريجي منهمكًا في إيقاظ الآخرين أيضًا، سألته عما يجري، فقال:

- قوموا اسمعوا، الله أكبر.

سمعنا أصوات رصاص وانفجارات بعيدة، لكنها واضحة، وكأنّ معركة تجري في مكانٍ ما. كانت هذه هي المرة الأولى التي نسمع فيها بمثل ذلك، في هذا السجن الذي نجهل وضعه، ولا نعلم شيئًا عن محيطه وتحصيناته. قلنا لبعضنا في شبه يقين، بأن الجيش الحر قادم لتحريرنا، وبأن هذه هي بالتأكيد ليلتنا الأخيرة هنا. بقينا يقظين ننتظر، تناقصت أصوات النيران مع مرور الوقت، إلى أن تبخر الحلم مع نهايتها، في الصباح.

توقعت بعد المحاكمة، بأن يُحسم أمري خلال مدة قصيرة في هذا المكان، أو أن يحصل تغيير ما عليه، فتصرفت وكأنني لن أبقى فيه طويلًا. ترقق قميصي كثيرًا واهترى، وتمزق بنطالي عند الركبتين، فتشكل ثقبان كبيران بحجمهما، بحيث لم يعد البنطال يحميهما خلال عقوبة الجلوس جاثيًا، وبقي ما تحت الركبتين معلقًا بما فوقهما ببعض الخيوط، من دون فائدة، ويعيقني

علاوةً على ذلك خلال الحركة وتنفيذ العقوبات، لذلك فصلتهما ورميتهما، فتحول البنطال إلى شورت صيفي.

لم تكن توقعاتي صائبة، مرّت الأيام والأسابيع ووصلنا إلى نهاية الخريف، الذي يعتبر شتاءً حقيقيًا في صيدنايا، واستمرت العقوبات الفردية والجماعية اليومية القاسية بطحننا، متضافرة مع الأمراض وسوء التغذية وصعوبة النوم في المهجع البارد، فحولتنا إلى هياكل بشرية متفحمة، تكفيها نفخة واحدة لتفتيتها.

على الرغم من أنها لم تكن مناوبة (الضابط الساحلي)، إلا أننا أُرغمنا على الجلوس على الأرض العارية بوضعية جاثيًا، بعيدًا عن البطانيات المرصوفة في زاويةٍ بالمهجع، في ليلة باردة من نهاية أكتوبر ٢٠١٢. كان وضعي مقارنةً بالآخرين، بقميصي الرقيق ونصف البنطال، هو الأسوأ على الإطلاق، كنت أرتجف من شدة البرد، تصطك أسناني ببعضها، وتنهمر الدموع من عينيّ، لكنني لا أتوقف عن تلاوة آياتٍ من القرآن. شعرت في لحظة ما، بأنني اقتربت من الله كثيرًا، لذلك دعوته من كل قلبي، أن يراني ويسمعني جيدًا.

لفتت حالتي المزرية ثائر يوسف، خلع بنطاله فبقي بسرواله الداخلي، وجاء يقدمه إلي:

- أخي شبال، البسه.

- يا ثائر، بدك ياني البسه وأتركك عريان؟

- أخي البسه مشان الله ولا تناقشني، حلفتك براس ابنك ألند البسه.

- قسمًا بالله ما راح البسه، من غير المعقول أني البسه وتبقى أنت عريان.

- أنت بردت.

- وأنت كمان راح تبرد، فشو استفدنا؟ البس بنطالك والله بيفرجها.

لم تكد دقائق قليلة تمضي، حتى رأينا عبر الشبك أسفل باب المهجع، كومة ملابس تلقى أمامه. في الواقع، لم تكن الإضاءة كافية للتحقق منها، إلا أن ما نحن عليه من حال، جعلنا نمنّي النفس بأن تكون ملابسًا، خاصةً أن مهجعنا هو الوحيد الذي لم يتلقَ أحد زيارةً من أهله، على عكس المهاجع الأخرى، التي سمعنا صرير فتح أبوابها في أيام محددة، وشاهدناهم من أسفل الباب وهم يأخذون معتقلين، ثم يعيدونهم وهم يحملون صررًا.

نمت على دفء الملابس المرمية أمام الباب، على أمل ارتدائها حتى إذا كان ذلك في الحلم، وأن يستمر الحلم إلى الأبد. تأكدنا في الصباح الباكر، بأن ما وضع أمام الباب هي ملابس فعلًا. استغرب رفاقي الواقعة غير المسبوقة، أحالها الشيوخ إلى ما قالوا عنه تدين الأكراد بطبيعتهم، الأمر الذي يجعل دعاءهم مستجابًا، مقارنة بغيرهم. جاءني ثائر يقول لي:

- استجاب الله لدعائك.

أدخلوا وجبة الطعام اليومية إلى المهجع، وألقوا كومة الملابس ورائها، ثم قال السجّان:

- يا عرصا المهجع وزع هالثياب، واتركوا ثيابكم القديمة عند باب المهجع يا عرصات.

الملابس التي حصلنا عليها مستعملة، تعود على الأرجح لرفاقنا في المهاجع الأُخرى، أخذها السجّانون منهم، بعد حصولهم على ملابس جديدة من ذويهم عند زيارتهم.

قدّر خالد السيوفي، بأن ملابسي هي الأسوأ مقارنةً بما يرتديه الآخرون، فأعطاني أكثرها دفئًا، حصلت على كنزة خضراء فاقعة اللون، سميكة جدًا وبها طاقية، مع بنطال أزرق، غسلتهما، فطال الوقت حتى جفّت الكنزة. على

الرغم من أن مظهري بدا مضحكًا بمقاييس الموضة، بقطعتي الملابس غير المتجانستين، إلا أن الدفء منحني شعورًا، بأنني الأكثر أناقةً في العالم. فكّرت:

- لا يهمني الآن، إذا بقيت عامًا آخر هنا.

تركنا ملابسنا القديمة عند باب المهجع، فأخذوها في اليوم التالي. أخذوا قميصي الأحمر وبنطالي، الملابس التي كنت أرتديها ذات مظاهرة، فعلقت بها رائحة الغاز المسيل للدموع، عندما سارعت إلى ركل قنبلة أُلقيت علينا، لإبعادها، إلا أنني استنشقت كمية كبيرة منه، فكاد يغمى عليّ وبقيتُ أشعر بعد غسلها، بأن رائحته استوطنتها ولم تغادر صدري، إلى أن حلت رائحة العرق والدم مكانه بعد اعتقالي.

بدأت أشعر بطعم الخسارة، بعد غياب الملابس، وبالأسف لما آلت إليه، مما تعرضت له. لم تكن ملابسي مجرد قماش، بل قطعة مني، شاركتني الزمن الصعب، وحملت من عرقي ودموعي ودمائي ولحمي الكثير، ولكن آمالي وأحلامي ومخاوفي وصمودي أيضًا، فهي برديّة خطّت عليها السياط تاريخي، انقطعت بفقدانها صلتي بالماضي، بحيث لم يبق معي من رائحة البيت وقامشلي والمظاهرات شيء، فأصبحت شخصًا آخر، غريبًا، بلا هوية.

تلقى مصطفى زيارةً، بعد أربعة أيام من حصولنا على الملابس القديمة، ومضي سنة ونصف عليه في الاعتقال. مصطفى أبٌ لطفل، كانت زوجته حامل بطفله الثاني عند اعتقاله. حدثنا عن لقائه بعائلته، قال بأنه بالكاد سمع صوت زوجته، فقد ركّز طوال الوقت على ابنته، التي تمشي متعثرةً خطواتها الأولى، لكنها كانت منشغلة عنه، لم تكن تفهم شيئًا مما يدور حولها، على الرغم من محاولات لفت انتباهها إليه:

- هذا بابا، شوفيه!

جلب مصطفى ملابسًا من الزيارة، عرضها علينا وترك لكل واحد حرية اختيار ما يريده منها، قال بأنه يكفيه لقاء عائلته، لكنه سألني عما إذا كنت أريد شيئًا محددًا، فشكرته، أعطاني على الرغم من ذلك جواربًا، فاكتمل هندامي وأصبحت محصنًا ضد البرد. فكّرت مجددًا:

- أستطيع الآن عبور الشتاء بسهولة.

الفصل التاسع: ضريبة الزيارة

علمنا مع مرور الوقت، بأن الأحد والثلاثاء من كل أسبوع، هما يوما زيارات إلى السجن. كان ذلك واضحًا من الحركة الكبيرة خلال هذين اليومين، حيث يفتح السجّانون أبواب المهاجع باستمرار، لنقل معتقلين وإعادتهم، وكذلك من التساهل معنا خلالهما، خاصةً بالسماح لنا بالجلوس على البطانيات، إلا إذا كانت مناوبة (الضابط الساحلي)، الذي استمر في تنفيذ عقوباته، من دون اهتمام بأسماء الأيام أو مراعاة المناسبات.

جلسنا على البطانيات في السابع من نوفمبر ٢٠١٢، وهو يوم زيارة إلى السجن، صامتين نصغي السمع، نترقب فتح باب المهجع، وقد فتحوه بالفعل، وأخرجوا واحدًا للزيارة.

فتحوا الباب ثانيةً بعد حوالي ربع ساعة، ونادوا على اسم آخر، لرجل في منتصف الستينيات من العمر من قرى درعا، كان سُجن لأربعة أعوام في تدمر، حكى لنا قصة سجن أخيه في تدمر أيضًا، قال بأنهم أقاموا له العزاء بعدما بلغهم موته، لكنهم فوجئوا به بعد خمسة عشر عامًا، يطرق باب البيت.

كنت أُفكر بحكاية الرجل وأخيه، الذي لم يكن وصل إلى باب المهجع بعد، عندما فوجئتُ بالمناداة على اسمي. اضطربت، وقفت سريعًا مثل نابض رُفع عنه الضغط، تلعثمت وتعثرت، تمكنت من الوقوف مجددًا ورديت:

- حاضر سيدي.

- حط الكنزة براسك وتعا لهون.

رفعت الكنزة الزرقاء إلى أعلى رأسي، بحيث غطته ولم أعد أرى شيئًا، تقدمت باتجاه صاحب الصوت، فتابع:

- لهون، لهون، بس، وقف وامسك زميلك.

أخرجوني من المهجع مع الرجل الدرعاوي، عاملونا باحترام، فرجحت وجود زيارة بانتظاري. سألتقي بأهلي أخيرًا، أعتقد بأن الزائر هو شقيقي جوان، يصعب وصف مشاعري.

أدخلوني إلى الغرفة الواقعة على بعد أمتار قليلة من المهجع، غرفة التجميع والتوزيع نفسها، التي سبق وأن أخذوني منها إلى المشفى، وبعد ذلك إلى المحكمة. طلبوا مني وضع الإبهامين على عينيّ، وجعل يدايّ فوق مستوى الرأس، بحيث يكون وجهي متاحًا لهم، من دون أن أتمكن من رؤيتهم. حلقوا لحيتي بماكنة الشعر، سألنا أحدهم بعدما انتهوا:

- كل واحد عنده زيارة لأول مرة، يرفع يده.

رفعت يدي، يبدو بأن آخر فعل ذلك أيضًا، توقعت بأن يكون رفيقي في المهجع، فهو لم يتلقى زيارة من قبل. أعطانا المتحدث تعليمات الزيارة:

- اسمعوني أنتو الاتنين وكمان كل الموجودين، راح تروحوا للزيارة، ولما يطلب منكم السجّان رفع رؤوسكم، بترفعوها وتمشوا نظامي مئة بالمئة.

قصد محدثنا بذلك، تغيير وضعية القرفصاء، خافض الرأس ومحني الظهر المعتادة للتنقل داخل السجن، إلى السير وقوفًا، مثل البشر.

تلقينا مزيدًا من التعليمات. طُلب منا عدم سؤال الزائر عن أحد، غير والدينا وإخوتنا وأطفالنا، مع السماح لنا بذكر أسمائهم عند السؤال عنهم، وبأن علينا الردّ على السؤال الذي سيُطرح عن أحوالنا، بالقول بأننا بخير

وسعداء، وبأن الأكل ممتاز ولا ينقصنا أيَّ شيء.

سار السجّان إلى جانبي على غير العادة، من دون عنف أو شتائم، طلب مني بعد خطوات قليلة رفع رأسي، تباطأت في التنفيذ، فتكزني وشتمني وكفر بالإله، بصوت حرص على أن يكون منخفضًا، اعتدلت ورفعت رأسي، فرأيت أخي جوان إلى جانب آخرين، منهم نساء وأطفال، يفصل بيننا حاجزان شبكيان، يبعدان عن بعضهما مسافة تصل إلى متر، يتحرك فيها عدد من العساكر، ينتقلون بنظراتهم بين الجميع في صمت، بينما يقف إلى جانب كل معتقل في جهتي، عسكري واحد، موزعون على شبك يصل طوله إلى عشرة أمتار.

وقفت مقابل أخي، نمعن النظر ببعضنا. كان وجهه ينبض بالحياة، أو تهيأ لي ذلك، ربما لأنني لم أعد أرى سوى وجوه رفاقي المتعبة. سلمنا على بعضنا في وقت واحد، وسألنا عن الأحوال. حمل سؤاله مشاعر صدمة، عبّرت عنها دموعه التي نزلت بغزارة، وهي من الحالات النادرة التي أراه يبكي فيها، فاستجابت دموعي لها، على الرغم من اتخاذي قرارًا من قبل، أعدته على نفسي طوال الطريق، بألا أبكي مهما حصل.

طلب مني العسكري الواقف إلى جانبي، عدم التحدث باللغة الكُرديّة مع شقيقي، لأن الزيارة بالعربيّة حصرًا. ربما كان يجدر به، طلب التوقف عن البكاء باللغة الكُرديّة، لأننا لم نكن بدأنا الحديث بعد، وكل ما فعلناه حتى تلك اللحظة، هو تبادل الدموع، التي لا لغة لها.

تذكرت بأن مدة الزيارة دقائق قليلة، فحاولت الخروج من حالة البكاء، ومن كُرديتي، عدت بالحوار مع شقيقي إلى البداية، سألته ثانية عن حاله، باللغة العربيّة هذه المرة، للتأكيد على أننا لم نقل أكثر من ذلك بالكُرديّة،

وأعدت على أسماعه، ردًا على سؤاله، الأجوبة التي طلبوا منا ايصالها للزوار، من أننا بخير والأكل متوفر ولا ينقصنا شيء.

سألت جوان عن أطفالي وزوجتي ووالديّ بالاسم، ردّ بأنهم كلهم بخير ويسلمون عليّ، وعن جدتي التي أحبها كثيرًا، قال بأنها بخير وتدعو لي دائمًا. كانت جدتي متوفية قبل هذه الزيارة، بمدة طويلة. سألته عما إذا كانوا احتفلوا بعيد الميلاد الثاني لابنتي ألين، بعد غيابي القسري عن الأول أيضًا، بكى ورد بالإيجاب، وطلب ألا أقلق على الأطفال وأن أهتم بنفسي، أضاف بأنني سأخرج قريبًا، إن شاء الله.

أردت الحصول على بعض الأخبار، بطريقة غير مباشرة، فسألت عن اثنين من السياسيين المعروفين من العائلة، عمي وخالي، سميتهما بالاسم، وقصدت بهما المعارضة السياسية، فجاءت الإجابة عامة، مثل سابقتها. خاطرت بسؤال أكثر وضوحًا، في الاتجاه الآخر:

- شو أخبار (شيرو)؟

كان وجه المخاطرة في السؤال المتهور، الفذلكة في غير موضعها، والذي افتقدت إلى الحكمة في طرحه، لأنه قد يودي بنا معًا، هو احتمال معرفة العساكر معنى كلمة (شيرو) الكُرديّة، المتداولة في سوريا في ذلك الوقت، وهي اسم معناه (الأسد).

لم يفهم المقصود من السؤال، ربما فكّر بالاسم، ولكنه لم يعثر على صاحبه ضمن دائرة الأقارب أو المعارف، فتابعت محاولًا تقريب الفكرة، سألته عن موقف الكُرد من (شيرو):

- لساته عم يتحرك على الكُرسي الكهربائي، ولا عم يقع وتساعدوه وترفعوه؟

ربما ظنني أتحدث عن شخص لا يعرفه، معاق يستخدم كرسي متحرك،

فجاراني قائلًا:

- أحيانًا يقع وأحيانًا لا.

على الرغم من حرصي الشديد على مذاكرة أسماء أقاربي يوميًا، كيلا أنساها، نسيت اسم زوجة أخي، عندما سألته عن أُسرته، فاضطررت لسؤاله عن اسمها:

- شو كان اسم زوجتك؟

غلبت نظرات الشفقة مشاعر الحزن والصدمة، المسيطرة على وجه جوان طوال الوقت، شعر على الأرجح، بأنني لست على ما يرام، خاصةً بعد أسئلتي التي لم يفهمها بالتأكيد، والتي وجدها غريبةً من دون شك، عن (شيرو) والكرسي.

انتهت الزيارة عند ذلك الحد، ودعنا بعضنا وأرسلنا قبلات عبر الشبك الحديدي. قبل أن أخفض رأسي وأحني ظهري ثانيةً، على طريق العودة إلى المهجع، لاحظت على الطرف المقابل للزائرين، معتقلون يلعبون كرة قدم، أو ربما سجّانون يعرضهم نظام الحكم على أنهم معتقلون، هم بالتأكيد جزء من العرض الكاذب الذي يريد نقله للزوار، للقول بأننا بخير ولا ينقصنا شيء، ونقضي أوقات فراغنا في ممارسة الرياضة.

أعادوني إلى غرفة التجميع والتوزيع، أبلغوني هناك بأن أخي ترك لي خمسة آلاف ليرة في الأمانات، بالإضافة إلى صرّة ملابس، سيقومون بتفتيشها ثانيةً، قبل تسليمها لي.

شعرت بالرعب، تذكرت رفيقنا المعتقل في الطابق العلوي، كانت والدته أحضرت له ملابسًا، وكتبت على الماركات الداخلية كلمات لرفع معنوياته، اكتشفوها فعذبوه إلى درجة التشويه، وقرروا حرمانه من الزيارة.

سلموني صرّة الملابس، فتنفست الصعداء.

كنت أفكر بأن ثمن التذكرة إلى البيت، أصبح في متناول يدي، إذا ما قرروا يومًا، تركي أخرج من هذا المكان، عندما تلقيت ركلةً على ظهري، أمام باب المهجع المفتوح، ألقتني شدتها في منتصفه. اعتدلت وفككت عقدة الصرّة، التي لم تكن سوى منديل ملفوف على ملابس، أبلغت رفاقي بأنني سأتركها لهم، ولن أحتفظ منها سوى بالمنديل وبيجاما سوداء. وجدت من غير المناسب الاحتفاظ بالمزيد، على الرغم من معاناتي من البرد المزمن. تنازلت عن البيجاما التي أرتديها لشركس، قلت له بأنها أكثر دفئًا من هذه الجديدة، التي أريدها فقط، لأنها تحمل رائحة أهلي.

أراحتني الزيارة كثيرًا، تجاوزت محنة انقطاع التواصل مع أهلي، اطمأننت عليهم وانتهت أفكاري السوداء، حول احتمال ظنهم موتي، وهو همٌّ قاتل، أخذ حيزًا كبيرًا من تفكيري وشكّل معاناة كبيرة لي. أما الأمر السلبي في الزيارة فكان، ايقاظها مشاعر الشوق إلى الحرية، التي غيّبها تفاصيل الصراع اليومي، من أجل البقاء. شدتني أصوات الأطفال الذين حضروا إلى زيارة آبائهم، أفاضوا قلبي بمشاعر الشوق إلى أطفالي، على الرغم من أنني كنت منشغلًا طوال الوقت بأخي، وقد شعرت بالقلق عليه، من أن يقوموا باعتقاله بعد خوض مغامرة الزيارة، وهو الآن المعيل الوحيد للعائلة.

نقلوا المزيد من رفاقنا من المهجع، وعندما انخفض عددنا إلى ستة عشر، طلبوا منا تقسيم أنفسنا إلى مجموعتين، لنقلنا إلى مهاجع أُخرى، لكنهم نقلوا خمسة فقط من المجموعة التي شكلناها، إلى المهجع الثامن، فأصبح العدد بعد وصولنا، خمسة وعشرين.

ظهر (ضابط ساحلي) جديد، بعد نقلنا إلى المهجع الثامن، أسميناه (أبو

المئة وثمانين كبلة)، لأنه توعد كل من يسمع له صوتًا، بضربه مئة وثمانين كبلة على يديه. نفذ الضابط وعيده سريعًا، وكنت ضحيته الأولى، ناداني عبر طاقة الباب، وعاقبني بحجة التحدث ومخالفة نظام الجلوس جاثيًا:

- أبو البيجاما السودا، تعالهون ولاك.

ذهبت إليه لأنه قصدني، فقد أصبح اسمي أبو البيجاما السودا، بعد أن كان أبو القميص الأحمر. تحركت بوضعية القرفصاء نحو الخلف، وعندما أصبح ظهري بمحاذاة الباب، طلب مني وضع رأسي في الكنزة، وإبقائه منخفضًا مع الوقوف والاستدارة نحو الباب، وإخراج يديّ من فتحتين ضيقتين على شكل ماسورتين أعلاه، بحيث أصبحت يداي خارج المهجع في الممر، جهة الضابط، ظهراهما إلى الأعلى وكفيّهما نحو الأسفل، لينهال عليهما عندها بالكبال الموجعة، وبعدها.

انتهى (أبو المئة وثمانين كبلة) من ضرب يديّ مئة وثمانين كبلة، ثم توعدني مجددًا:

- خليك زلمة وسمعني صوتك مرة تانية، راح أضاعف لك العدد المرة الجاية، ويصيروا ثلاثمية وعشرين كبلة.

أصبحت معلقًا من يديّ بالباب، حاولت إخراجهما بعد ذهاب (أبو المئة وثمانين كبلة)، إلا أنني لقيت صعوبة كبيرة في ذلك، تورمتا فأصبح حجمهما كبيرًا، يفوق بكثير قُطر الفتحتين، وعندما لم أجد حلًا آخر سوى سحبهما، فعلت ذلك بسرعة البرق، لاختصار زمن الألم، فتسلخ جلدهما وكأنهما تعرضا للحرق. هرعت إلى الحمام وأنا أنفخ على يديّ، وضعتهما تحت الماء لغسل الدماء، ومن ثم على البلاط لتبردا. احتاج الأمر إلى أسبوع كامل، لاختفاء الورم وشفاء الجروح.

ارتفع مؤشر التعذيب في ديسمبر ٢٠١٢، جعلتنا شدته نتمنى الخلاص بأية طريقة كانت، بالذهاب إلى منصة الإعدام أو ساحة الرمي بالرصاص أو أية طريقة موت سريعة أُخرى، وأخرجت الأكاديمي والأستاذ في الشريعة عن طوره، رغم كونه أحد أكثر المتدينين، رفع يديه إلى السماء،يومًا، ودخل في موجة بكاء، قائلًا:

- ياالله، هل أنت معنا أم علينا؟

توقفوا مجددًا عن السماح لنا بالجلوس على البطانيات، خلال أجواء برد قارس، ومجاعة تلقي بظلالها على المهجع، فتكاد تفتك بنا. أرغمونا على اتخاذ وضعية جاثيًا على البلاط الجليدي، منذ الصباح الباكر حتى وقت متأخر من الليل، فحوّل البرد الثانية الواحدة إلى دهر كامل، أفقدنا الأمل بقدوم الليل، وأصبح سماع الأمر بالنوم، حلمًا بعيد المنال.

عدا عن الاقتصار على وجبة واحدة خلال اليوم، وهي لم تكن تكفي شخصين أو ثلاثة على الأكثر، وبدلًا من زيادة الكمية مراعاةً لعددنا الكبير، أنزلوها إلى حدود التجويع، أصبحوا يعطوننا نحنُ الأربعة والعشرين، ربطة خبز بها ثماني أرغفة، بحيث يحصل كل واحد خلال الأربعة والعشرين ساعة، على ثلث رغيف، فيلتهمه في لحظة، من دون أن يترك عليه أثرًا.

خلال وقوعنا بين مطرقة البرد وسندان الجوع، تفتقت عبقرية (الضابط الساحلي)، عن مزيد من العقوبات النوعية، استمتع بتنفيذها بسادية عجيبة. فتح كوّة الباب يومًا، وأمرنا بخلع ثيابنا، ثم فتح الباب ونادى على رئيس المهجع:

- يا عرصا المهجع يا منيك، عبي القصعة مي وكبها على الكُل ولاك.

حمل رئيس المهجع المسكين قصعة الطعام الفارغة، ملأها بالماء البارد من

التواليت، ورشه على أجسادنا العارية الباردة، في جوٍ صقيعي، فتحوا شبابيك المهجع أمام زمهريره، ليضرب كياناتنا المتهالكة، زلزلنا فتصاعد الحماس في رأس الضابط، وصعّد الموقف:

- يا حقير، أنت اللي بالزاوية ولاك، أنت ثالث واحد يا ابن الشرموطة، اضربهم كف.

ضرب ذاك الذي عينه الضابط رفاقه، لكن الصفعات لم تشفِ غليله، فصرخ مجددًا:

- قوي الكف ولاك حقير، إذا فتت راح أنيك أختك ها.

يشتد الضرب، فيقهقه الضابط بهستيريا، يتابع وكأنّه يريد أن يشعل الزنزانة بالصفعات:

- أنت ولاك، قوم أنت كمان اضربه عشر كفوف، اضربه، كفكفه، اضربه عشر كفوف.

حدثت حالة إسهال جماعي، جففت أجسامنا مما تبقى فيها من سوائل، فجعلتنا مثل أوراق في مهب الريح. سألنا عن وضع زملائنا في المهاجع الأُخرى، فوجدنا الحالة عامةً. مات اثنان من المهجعين السابع والعاشر خلال يوم واحد، نادى معتقلون وأبلغوا عن حالتي الموت، ثم رأينا سجّانين عبر شبك الباب، ينقلون جثتين على بطانيات.

دخل ضابط وطبيب مع مجموعة من العناصر إلى مهجعنا، خلال ذلك الوقت العصيب، سأل أحدهم عن المصابين بالإسهال، فرفعنا جميعنا أيدينا. سألوا عمن لديه نقود في الأمانات، لشراء أدوية مضادة للإسهال ومواد النظافة، فرفعنا أيدينا مرةً أُخرى، على الرغم من خشيتنا من تكرار (الضابط الساحلي) لفعلته، بتفريغها علينا، مثلما فعل من قبل.

سلّموا حبوب مضادة للإسهال لرئيس المهجع في اليوم التالي، لتوزيعها علينا، ثم أحضروا كمية من مواد النظافة، أقل من المرة الماضية: ثلاث علب شامبو، صابون لغسل الثياب، ثلاث علب شامبو مضاد للقمل، لن يكون مجديًا مع القمل الذي يستوطن كل مكان، خاصة البطانيات، التي لا تتغير ولا تغسل ولا تنشر في الشمس.

نظرنا إلى أسعار مواد النظافة، كانت مرتفعة مقارنةً مع سابقاتها، وُضعت لاصقات بسعر جديد على السعر الأساسي المطبوع على العبوات، لا بل وضعوا لاصقين بسعرين مختلفين عن السعر الأساسي، على بعضهما، ما يعني ارتفاع الأسعار مرتين. تساءلنا عن كيفية تدبر أهلنا لشؤونهم، والعيش في ظل الغلاء الفاحش، الذي حصلنا على صورة عنه.

فتحوا أبواب مهاجع كثيرة، بعد ظهر الرابع عشر من يناير ٢٠١٣. بدؤوا من الطابق الأعلى ثم الأول، وأخيرًا طابقنا الأرضي، نادوا على أسماء كثير من المعتقلين، وأخذوا ثلاثةً من مهجعنا، هم عبدالحكيم شربجي ووائل عبيد وآخر من داريا، تعاملوا معهم - على خلاف المعتاد - باحترام، بحيث لم نشعر بوجود نوايا مبيتة ضدهم، نقلوهم إلى المهجع الرطب، ذلك الذي ترشح المياه من سقفه، وأبقونا فيه يومًا واحدًا، بعد نقلنا من زنزانة القبو.

فرحنا لرفاقنا الثلاثة المغادرين، توقعنا ما جرى خطوةً على طريق الإفراج عنهم، فخروج أيّ معتقل من المهجع في تلك الظروف، فرحة مزدوجة ومصلحة مشتركة لكلينا، فمن جهة ينال المغادرون حريتهم، ويكبر بذلك أملنا بها، وتزداد من جهة أُخرى حصة المتبقين من الطعام، بعد أن أنهكنا الجوع. لم تمنع هذه الأجواء الإيجابية، من ظهور نوع من الامتعاض، على بعض المقربين من ثلاثتهم، ذكروا بأنهم مثلهم من داريا وقضيتهم هي كذلك المظاهرات، وبأنهم

تعرضوا للمحاكمة معهم في يوم واحد، معتبرين بذلك بقاءهم بعدهم، إشارة سيئة ودليلًا على صعوبة أوضاعهم، مقارنةً بهم.

لم نضع للحظة واحدة، احتمال تغييب كل ذلك العدد، خاصةً أن جميعهم تلقوا زيارات من ذويهم، فانتهت بذلك حالة الإخفاء القسري من دون أثر، وثبت بالتالي وجودهم أحياء ضمن مسؤولية نظام الحكم، كما لم يتم إبلاغهم بصدور أحكام قاسية عليهم، في المحاكمات التي تعرضوا لها. كان أسوأ ما توقعه بعضنا، إن لم تكن العملية إفراجًا عنهم، هو نقلهم إلى سجن مدني. لم تخطر لنا فكرة الإعدام يومًا، لأنهم لو أرادوا التخلص منا، لفعلوا ذلك في اليوم الأول، لكننا وجدناهم حريصين على حيواتنا، أو على إبقاء خيط رفيع يربطنا بالحياة، بحيث نعيش طوال الوقت على حافة الهاوية، نتعرض لأقسى أنواع التعذيب والإذلال، للانتقام منا وردعنا، وجعلنا عبرة لغيرنا.

سمعنا في اليوم التالي صرير باب المهجع الرطب، وأصوات رفاقنا يتعرضون للضرب، بسبب ممانعتهم لأمرٍ ما، وهو ما سبق لي وأن سمعت مثله، في اليوم التالي لنقل أبو أحمد من الرستن وآخرين إليه. أجمعت آراؤنا عندها، خلافًا لما ذهبنا إليه أمس، على أن عملية النقل إلى ذلك المهجع ليست خيرًا، لكن تفكيرنا لم يتجاوز احتمال نقلهم إلى فرع الجوية، أو الفرع الذي كانوا فيه أول مرة، ما يعني إعادة تعذيبهم بشكل مكثف.

لم نرَ عبدالحكيم شربجي ووائل عبيد ورفاقهما، ولم نسمع عنهم شيئًا بعد ذلك، مثلما غاب كل أثر لأبو أحمد ورفاقه من قبل، بعد نقلهم إلى المهجع الرطب. سأعلم بعد عام، بأنهم كانوا يتعرضون للضرب، لأنهم يقاومون نقلهم إلى الإعدام، وبأنه جرى إعدامهم جميعًا في ذلك اليوم.

فتح الضابط (أبو المئة وثمانين كبلة) طاقة باب المهجع السابع مساءً،

ضبط ثلاثة يتحدثون مع بعضهم، فأمرهم بالتعري، ثم طلب من أحدهم أن يتمدد على بطنه، ومن آخر وضع الشامبو على خلفيته والتمدد فوقه، ومن الثالث وضع الشامبو على خلفية الثاني، والتمدد بدوره عليه.

تصرف الضابط مثل مخرج أفلام إباحية، يدير ممارسة جنسية كاملة، فطلب منهم الإدخال وإصدار أصوات الاستمتاع، وأعطى الأوامر بتغيير الوضعية والتبديل، بحيث يذهب الذي في الأسفل إلى الأعلى، وهكذا.

كان الصوت واضحًا تمامًا، وكأنه يجري في مهجعنا. أبكانا بشدة الإذلال الذي نتعرض له، وشعرنا بأننا جميعًا ضحاياه.

أبلغنا الشبان الثلاثة بعد تواصلنا معهم، بعدم حصول ممارسة جنسية بينهم، وهو ما كنا متأكدين منه، وما أكده لنا رفاقهم في المهجع، فالواقع هو أن وسائل التعذيب، قضت على المشاعر الجنسية منذ وقت بعيد، كذلك كانت نظرتنا نحن المعتقلين إلى بعضنا، نظرة الأخ إلى أخيه وأهله.

جاءنا ضابطٌ جديد في منتصف أبريل ٢٠١٣، مسؤولًا للجناح الذي يقع فيه مهجعنا، لم يبدأ عهده بعقوبات مثل غيره، تأخر يومين ليبرهن على أنه لا يختلف عن رفاقه. سمعنا صوته في مساء اليوم الثاني من وصوله، يصيح مثل ديك، أدرك للتو سن البلوغ:

- يا عرصات المهاجع، كل واحد منكم يحط لي ثلاثة مخالفين منبطحًا، بنص المهجع.

رقمي على لائحة المعاقبين في المهجع هو الحادي عشر، أما دور العقوبة فقد وصل إلى الرقم ثلاثة، ستتم معاقبة أصحاب الأرقام ثلاثة إلى خمسة اليوم، وسيكون هناك خمسة معاقبين بعدهم، قبل وصول الدور لي.

بدأ الضابط الجديد جولة الضرب من المهجع الواقع خلفنا، كان الأمر

رهيبًا أكثر من أي يوم آخر. على الرغم من منع الصوت في صيدنايا، بحيث نُرغم على كتمه، بوضع أيدينا داخل أفواهنا خلال التعذيب، فقد وصلنا صراخ المعاقبين المرتفع، إن لم يكن وصل إلى سابع سماء. كانت صرخاتهم المتواصلة غير طبيعية، جعلتنا نستبعد تعرضهم لذلك النوع من الضرب، الذي يطال مُخالفين اثنين مفترضين عادةً، لمرتين في الأسبوع، ونتخيل تعرضهم للتقطيع أو الحرق أو شيء مرعب آخر، تعجز عقولنا عن إدراكه.

انتقلت المجموعة الضاربة إلى مهجع ثان، وبقيت فيه بضع دقائق مثل سابقه، ثم تابعت جولتها، اقترب الصياح وارتفعت الصرخات وأصبحت أكثر وضوحًا، كلما اقتربت من مهجعنا. ازددنا توترًا من غموض ما يجري، وازداد رعبنا كلما اقتربوا، خاصةً ونحن نرى زملاءنا المرشحين للعقوبة وسط المهجع، في موقف لا يحسدون عليه.

توجهنا إلى الحائط، فدخل الضابط الجديد ورفاقه إلى المهجع، بدؤوا من فورهم ضرب رفاقنا الثلاثة الممددين على بطونهم، فأطلقوا مع كل ضربة تلقوها، صراخًا تنفلق له القلوب، لا يزال يدوي في أذني.

استعجلت مرور الوقت، للوصول إلى نهاية المذبحة، أصبح همنا هو خروج الجلّادين، لمعرفة ما فعلوه، ومعالجة آثار الكارثة التي سيخلفونها. انتهت العقوبة، حذرونا قبل خروجهم من سماع أصواتنا، حتى إذا متنا، ثم توجهوا إلى رئيس المهجع:

- يا عرصا المهجع، كل واحد يفطس تحطه ورا الباب وما تبلغنا بموته، بكرة إذا جبنالكم وجبة السم الهاري بنطالع الجثث.

لم تختلف التأوهات التي تصدر عن رفاقنا، عن حشرجة الموت، لم نكن ندري كيف نواسيهم ونخفف من أوجاعهم. انفتحت في ظهورهم جراح عميقة

بطريقة السلّم، حيث جرحان طوليان متوازيان، من أعلى الظهر إلى أسفله، يقطعهما جرحان آخران عرضيان، تجمت عن استهداف المكان نفسه مرارًا وتكرارًا. غطت الدماء الجراح، وتخثر بعضها على طرفي الظهر، مثل شلال تجمد في طريقه إلى الأرض، كما تناثرت فوصلت إلى الجدران.

تذكرت جراح ظهري، خاصةً تلك التي حفرتها هراواتهم في الجويّة، لم أعرف حجمها، ولكنني أدركته من القطن الذي دخلها عميقًا، والرعب الذي ارتسم على وجوه من شاهدها فيما بعد، فتخيلت الرعب الذي يرتسم على وجهي الآن، مما أراه، ثم تذكرت بأنني لم أرَ وجهي منذ عامين، ولم أعد أعرف كيف أصبحت ملامحي، بعد كل ما شهدته.

مررت يديّ على وجهي خائفًا، للتحقق من وجود شيء، ظننته لم يعد موجودًا منذ زمن طويل، ورحت ألمس أنفي، شفتيّ، عينيّ وأذنيّ، لا يزال كل شيء في مكانه.

ظل رفاقنا ممددين على بطونهم من دون حراك لثلاثة أيام، أدخلنا خلالها الماء والغذاء إلى أفواههم.

لدينا شقيقان في المهجع، فارق السن بينهما عشر سنوات. سمحوا لأكبرهما بالذهاب إلى الزيارة، في التاسع والعشرين من أبريل، لأنهم يمنعون لقاء أكثر من معتقل بالزائر، في الوقت نفسه، لكنهم لم يسمحوا للثاني بالذهاب للقاء الزائر، بعد عودة شقيقه، فأخذ الأخير يروي له ما جرى معه. ذكر له أسماء الأقارب الذين حضروا، وما نقلوه له من أخبار، ويجيب على أسئلته عنها.

كنت أستمع مع آخرين إلى حديث الشقيقين، عندما نودي على اسمي، في وقتٍ شارف فيه وقت الزيارة على النهاية.

نقلوني إلى غرفة التجميع والتوزيع، وسألوني فيما إذا كنت تلقيت زيارةً من قبل، فأجبتهم قبل ستة أشهر، ثم سألوني عما إذا كنت أعرف تعليماتها، فرديت بالإيجاب. أعادوا على الرغم من ذلك التعليمات عليّ، كان فيها ما هو جديد بالنسبة لي:

- مدة الزيارة من خمس إلى ست دقائق، يُمنع ذكر الأسماء خلالها، يمكنك السؤال عن أقاربك، بالقول مثلًا كيف حال والدي، ماذا يفعل ابني الكبير، ولكن من دون ذكر أسمائهم.

كان شقيقي جوان بانتظاري في هذه الزيارة أيضًا. تحدثنا باللغة العربيّة مع بعضنا، التزامًا بتعليمات السجن السابقة، حول الزامية العربيّة في الزيارة، ومنع التحدث بالكُرديّة خلالها. التزمت بتعليمات السجّان بخصوص الأسماء أيضًا، لم أذكر اسم أحد من أفراد العائلة، عند السؤال عنهم:

- كيف حالك، كيف الأهل، ابني، ابنتي، أمي، أبي؟

جاءتني الردود عامةً، كلهم بخير ويسلمون علي. لا أعلم لماذا كان معظم حديثنا بالفصحى، وكأننا نؤدي مشهدًا في مسلسل تاريخي، سألت شقيقي:

- هل رزقك الله بأطفال جدد؟

ردّ بالإيجاب، قال بأنه رُزق بابن، لكنه لم يذكر اسمه. في نهاية الزيارة، وأثناء توديعنا لبعضنا، قال لي مجددًا:

- إن شاء الله راح تطلع قريبًا.

ربما أراد إبلاغي بمعلومة، لكنني لم آخذها على محمل الجد، لأنها تُعتبر في مثل هذه الأحوال مجرد كلمة تقال، على سبيل التمني أو محاولة لرفع المعنويات، سمعتها منه في المرة الماضية، مثلما سمعها جميع المعتقلين من ذويهم، خلال زيارتهم.

أخذني السجّان إلى غرفة الأمانات، لاستلام الملابس التي أحضرها أخي معه. سألني عنصرٌ هناك:

- شبال إبراهيم؟

- نعم.

- من وين؟

- من قامشلي.

- كورمانجو ما هيك؟

- نعم.

- أخوك ترك لك في الأمانات خمسة آلاف ليرة مع ملابس.

تدخل (متعب):

- أنت حكيت بالكُردي ما هيك؟

- لا يا سيدي، أنا ما حكيت بالكُردي.

- بلى بلى، أنت حكيت بالكُردي، افتح أيديك.

على الرغم من عدم ارتكابي جرم التحدث بالكُرديّة، مددت يديّ على طولهما، فتحتهما فبدأ (متعب) بتنفيذ العقوبة بعصاه. انكسر كوع يدي اليسرى من الضربة الرابعة، لم أجرؤ على الصراخ، على الرغم من الألم الرهيب، خاصةً أن الزيارات لم تكن انتهت بعد، وستكون العاقبة وخيمةً، إذا سمع أحدٌ صوتي. ساعدتني كنزتي المرفوعة إلى أعلى الرأس، والتي عضضت عليها، في كتم الألم.

لم أكن الوحيد الذي يتعرض للضرب، كسروا يدي اثنين آخرين، سمعتهم يقولون بأنهم سجلوا عليهما مخالفة تعليمات الزيارة، أو تسريب معلومات لذويهما.

جلست القرفصاء بعد تنفيذ العقاب، ثم تبعت السجّان بطريقة مشية البطة، أجرُّ ورائي يدي المكسورة، وأجرُّ بالأُخرى صرّة الملابس التي أحضرها شقيقي. عندما وصلت إلى المهجع، وتأكدت من إغلاقهم الباب، انفجر الألم الذي كتمته طوال الوقت بكاءً، شاركني فيه رفاقي جميعهم. استخدم مصطفى وشركس قطعة من الملابس، رباطًا لتجبير يدي، قرؤوا عليها آيات من القرآن، ودعوا لي بالشفاء.

أحضر لي أخي ملابسي القديمة هذه المرة، بالإضافة إلى أُخرى جديدة، أزال عنها الماركات للتمويه، ودفع من يراها إلى الظن بأنها قديمة. يبدو بأنه أصبح على علم، بأن السجّانين يحتفظون لأنفسهم بالملابس الجديدة، التي يأتي بها ذوو المعتقلين، ولا يوصلون سوى القليل منها لأصحابها، ما دفع معظمهم إلى الطلب من ذويهم، جلب مستعملة معهم.

احتضنت ملابسي ليوم كامل، شممتها، فأخذتني بعيدًا خارج هذا المكان، استعرضتها قطعةً وراء أُخرى، متذكرًا الأوقات التي ارتديتها خلالها، ثم قدمتها لرفاقي كأغلى ما أملك، ولم أحتفظ لنفسي سوى بكنزتي الحمراء، على سبيل الذكرى. عادت لي هويتي مجددًا، فالثياب جسرٌ أعاد ربطي بالماضي، بعد طول انقطاع.

شكّلت يدي المكسورة، عبئًا إضافيًا عليّ. لم يهدأ الألم ليل نهار، وبتُّ حريصًا على أخذ مسافة من الآخرين، خشية اصطدامهم بها، ومتخوفًا من أن تزيد أيّ حركة الأمر سوءًا، أو تخرجها من مكانها. نغّص عليّ كسر يدي فرحتي بالزيارة، وتمنيت ألا يزورني أحد بعد ذلك، إلا أن العكس هو ما حدث، وأسرع مما يمكن تخيله، فبينما كنا نتهيأ لتناول وجبة اليوم التالي، فتحوا الباب، ونادوا على اسمي مجددًا.

طلبوا مني وضع رأسي بالكنزة والسير نحو الخلف، ثم وضع يديّ على عينيّ كالمعتاد. رفعت الكنزة إلى أعلى الرأس باستخدام يد واحد، غطيت بها عيني، طلبوا وضع اليد الأُخرى على عيني الثانية، فأبلغتهم بأنها مكسورة، سأل سجّان:

- وليش انكسرت؟

- وقعت في الحمام فانكسرت.

لم يكن مسموحًا لي القول، بأنكم أنتم الذين كسرتموها. قال السجّان:

- حاول ما يلاحظ حدا شيء.

على الرغم من وجودي لوحدي في غرفة التجميع والتوزيع، توّقعت أن تكون زيارة بانتظاري. استغربت وجود زيارتين خلال يومين متتاليين، وأن تتم هذه في غير الأيام المخصصة لها.

نقلوني إلى منطقة الزيارات، من دون إعطاء تعليمات، لم يكن في الجهة الأُخرى من الشبك سوى شخص واحد، طويل ويتمتع بصحة جيدة، بادرني بالكُرديّة، بينما رديت عليه بالعربيّة:

- أنتَ شبال؟

- نعم.

- إذا سألك حدا عني، قل له أنا ابن خالتك.

قريبي ولا نعرف بعضنا، وإذا سألني القائمون على هذا المكان عنه، فإن عليّ الادعاء بأنه ابن خالتي، على الرغم من معرفتهم كل شاردة وواردة عني، وعدم سماحهم بالزيارة وبالتالي بمرور أحد من حواجزهم الكثيرة وأبوابهم المحصنة، من دون تدقيق هويته وتفتيشه ومعرفة شجرة عائلته، وصلته بمن يقصده، والهدف من زيارته!

كنت أفكر بالمشهد الغرائبي الذي يجري إشراكي فيه بغباء، بينما يتابع الزائر حديثه، قدم نفسه قائلًا، بأن اسمه سمير من مكتب رئيس حزب البناء الوطني، قبل أن يقطع عليه استرساله، العسكري الذي يتوسطنا بين الحاجزين الشبكيين، نادى عدة مرات على مسؤوليه، فردّ عليه (الضابط الساحلي)، بصوته الذي لا تخطئوه أذني:

- سيدي، سيدي، سيدي!

- شو في يا ابني؟

- عم يحكوا كُردي يا سيدي.

- وقفوا الزيارة، ممنوع التحدث بغير العربيّة.

لم يتراجع الزائر، ردّ على (الضابط الساحلي) بقوة، لكن الأخير لم يتزحزح عن موقفه:

- أنا جاي بأذن من مكتب السيد الرئيس، وبدي أحكي بالكُردي، بالعبري، وبأيّ لغة أريد.

- حتى إذا كنت جاي من عند الله، فراح تحكي بالعربي.

شعرت بالكراهية تجاه الزائر المجهول، الذي خرج لي من حيث لا أدري، وراح يتحدث بفوقية ويتحدى الجلادين في عقر دارهم، بطريقة تثقل كاهلي، فهو سيذهب في نهاية المطاف إلى بيته، بينما سأبقى بين أيديهم، ولعل أقل ما قد يفعلونه بي، كسر يدي الأُخرى.

قرر الزائر إنهاء المواجهة مع الضابط، الذي بقي مع ثلاثة عساكر لمراقبة التزامنا بالأمر، وألقى خطبة عصماء على مسامعي، بالعربيّة:

- يا شباب شو كان بدكم بالمظاهرات، الوطن كان بخير وكل شيء بخير، وأنتم خربتم البلد، بس الحمدلله، اليوم الجيش العربي السوري وحزب العمال

الكُردستاني حامين منطقتنا أيد بأيد، صرنا بفضلهم بخير، بينما الجيش الكُر وجبهة النصرة والإرهابيين موجودين بمناطق ثانية.

قصد بالجيش الكُر، الجيش السوري الحر المعارض، وكانت هذه هي المرة الأولى، التي أسمع فيها باسم جبهة النصرة.

بينما أفكاري منقسمة بين الخشية مما سيحصل لي بعد ذهابه، والرغبة الشديدة بمعرفة الغاية من زيارته، غيّر سمير من اتجاه الحديث، فقال بأنه يريد مني إشارة أو معلومة يوصلها لأهلي، دليلًا يعلمون من خلاله بأنني حي. ازدادت حيرتي، وشعرت بالقلق مما يجري، خاصةً على شقيقي الذي زارني أمس، والمفروض أن الأهل على علم بذلك، وأن يكون عاد إلى البيت. تدخل الضابط، توجه لسمير محتدًا:

- أنت زرته ووضعه بخير، فليش كل هالأسئلة وطلب إثباتات، خلي أهله يزوروه إذا بدهم.

- أنا جاي بإذن من مكتب السيد الرئيس وهيك طالبين مني، أنا زلمة عبد مأمور.

زوّدت سمير بما طلبه، فانتهت بذلك الزيارة الغريبة، التي لم أفهم منها شيئًا. طلبوا مني على طريق العودة، الوقوف باستعداد، تلقيت ركلةً على رجلي، فسقطت على جهتي اليسرى، جهة يدي المكسورة. اعتبرت نفسي محظوظًا، على الرغم من الألم الذي لا يطاق، لأن اليد اليمنى كانت ستنكسر هي الأُخرى من تلك الضربة، لو كنت سقطت عليها.

لم أتأكد من وجودي في المهجع، إلا بعد مساعدة رفاقي في إنزال الكنزة عن رأسي. بذلوا محاولات لمنع تفاقم وضع يدي المكسورة، وسألوني باستغراب عما يجري معي، من تلقي زيارتين خلال يومين متتالين، الأمر الذي لم يكن لدي

تفسيرٌ له. توقع معظمهم، بأن يكون يوم خروجي من المعتقل، قد بات قريبًا.

لم تترك الآلام المبرحة مكانًا للفرح، بالتوقعات الإيجابية التي ذهب إليها رفاقي.

الفصل العاشر: خارج أسوار الجحيم

تم تنفيذ العقوبة الدورية أكثر من مرة في المهجع، فوصلني الدور. سأُعاقب في المرة القادمة مع رفيقي رقم عشرة، الذي يسبقني في الترتيب على لائحة المخالفين.

أُنهكتُ واستُهلكت قواي، لم تعد لدي طاقة على التفكير بالعقوبة ولا قدرة على تحملها. تغير مزاجي بعد الزيارات، وأصبحت أشعر بعدم الانتماء إلى هذا المكان، بات الخروج منه هاجسًا يسيطر عليّ، بحيث أن كل دقيقة اضافية أقضيها هنا، وأي عقوبة قد أتعرض لها، سيكون وقعها ثقيلًا، أكثر من أيّ وقت مضى.

طلب (متعب) في السابع والعشرين من مايو ٢٠١٣، إخراج المخالفين إلى وسط المهجع، عند إدخال وجبة الطعام. ذهبت مع رفيقي المخالف المفترض إلى ساحة التنفيذ، عندما أدخلوا الوجبة، لكن (متعب) لم يكن موجودًا، فأخلينا المكان وبقي تنفيذ العقوبة معلقًا على غير العادة، مؤجلًا إلى اليوم التالي.

انقطعت الكهرباء ليلًا في المهجع والممر معًا، فساد الظلام. قررنا استغلال الفرصة لخوض مغامرة استكشاف المكان، عبر الشبابيك المرتفعة. جلس البعض القرفصاء قرب حائط المهجع المشترك مع الممر، فصعد آخرون على أكتافهم، وقفوا فتمكن الذين على الأكتاف من النظر عبر الشبابيك، أتاحت لهم بوابة الممر المفتوحة، رؤية مشهد محدود خارج البناء، تحدثوا عن

مشاهدتهم لأضوية كتيبة دبابات قريبة.

صعدت بمساعدة يدي السليمة على كتفي أحدهم، رفعني فنظرت بدوري من الشباك، وقعت عينيّ على لوحة سحرية بعيدة في عمق الظلام، تظهر فيها أضواء تنير بيوت قرية وادعة في حضن جبل، وأُخرى تظهر مثل نجوم تتلألأ على الجبال. سرعان ما فقدت توازني فسقطت، اصطدمت بأحدهم على الأرض، فصدر صوت ارتطام مرتفع. هرعنا بسرعة إلى أمكنتنا، وتغطينا بالبطانيات قبل اكتشاف أمرنا.

على الرغم من أن الأوقات التي يسودها الصمت في صيدنايا، تجعل المرء يسمع صوت سقوط الإبرة على الأرض، إلا أنه لم يتم ضبطنا، فنجونا، لكنهم نفذوا عقوبة التعري على رفاقنا في المهجع السابع، بحجة سماع أصواتهم. طلبوا منهم خلع ثيابهم، وإلقاءها مع البطانيات إلى خارج المهجع.

جعلوا العقوبة جماعية في اليوم التالي، فشملونا بها، باستثناء جزئية إخراج الملابس من المهجع، لم يطلبوها منا، فارتديناها بعد اختفاء أثرهم، وقررنا خلعها كلما شعرنا بقدومهم.

غفوت من شدة الإرهاق في صباح اليوم التالي، عندما كنت جالسًا. صحوت بعد حوالي ساعة، وحكيت لشركس حلمًا راودني. رأيت نفسي عسكريًا في الجيش، وكان الضابط المسؤول عني هو أبو آلان، جارٌ لبيت جدي في القرية، دسّ في يدي تصريح إجازة بيومين، وطلب مني المغادرة إلى البيت. نظرت إلى التصريح، فوجدته مكتوبًا باللغتين العربيّة والكُرديّة، وفي أعلاه العَلَمان السوري والكُردي. فسّر شركس الحلم ضاحكًا:

- راح تطلع من السجن بعد ساعتين، أو يومين، أو شهرين، أو سنتين أو عشرين سنة.

مازحته بدوري:

- أنا متنازل عن الاحتمال الأول، لأني ما بدي فارقك بهالسرعة، وما بدي الأخير، لأنه كثير عليّ وكان واجبك ترحمني منه، بس راضي بأي واحد من الاحتمالات الباقية.

- الفرج قريب إن شاء الله أخي شبال.

بدأت أشعر باضطراب غير مسبوق، ورغبة ملحة بالوصول إلى نهاية ما، بأيّ ثمن. ذهبت إلى المنطقة المحرمة من المهجع، نصفها المجاور للباب الذي يجب أن يبقى خاليًا، حيث ضبط المرء هناك قد يكلفه حياته، اقتربت من الباب ثم تمددت قرب الشبك أسفله، مثل نصيب، أول ضحايا التعذيب الذين شهدتهم في المعتقل، استنشقت الهواء القادم عبر بوابة الممر المفتوحة، فشكّل مزيدًا من الضغط عليّ، وزاد من الشعور بنفاد صبري، وانتهاء القدرة على تحمل الحياة في هذا المكان، الذي ينتظر رفاقي فيه وصول الوجبة اليومية، بينما أنتظر مع رفيقي رقم عشرة تنفيذ العقوبة عند إدخالها، بعد مضي يومين على الإعلان عنها، وحصول تراخي في التنفيذ، لأول مرة.

رأيت عبر شبك الباب عنصرين قادمين، ظهر منهما نصفهما الأسفل، يرتدي أحدهما شورت وحذاء رياضي والآخر بنطال وبوط عسكري. تركت مكاني وعدت إلى الآخرين، أعطيتهم إشارة إنذار، فسارعنا جميعنا إلى خلع ثيابنا، لإظهار أنفسنا ملتزمين طوال الوقت بعقوبة التعري، ثم توجهنا إلى الحائط، عندما توقف العنصران أمام باب المهجع وبدأا بفتحه. نادى أحدهما على اسمي، فرفعت يدي السليمة من الصف الخلفي، حيث أقف:

- حاضر.

كانت تلك هي المرة الثانية التي لا أُرفق فيها كلمة (حاضر) بكلمة (سيدي)،

فعلت ذلك في بداية اعتقالي، عندما نادى الطبيب على اسمي، فجرى شتمي وإرغامي على إعادة الإجابة كاملةً حينها، لأن الواجب مثلما أصبح معروفًا، إرفاق كل لفظة، بكلمة (سيدي). سألني المتكلم:

- شبال، شو اسم والدتك، مكان ولادتك ورقم قيدك المدني، وتاريخ اعتقالك؟

ذكرت له المعلومات التي طلبها، ثم استفسرت:

- سيدي، تاريخ اعتقالي من البداية، ولا بس هون؟

- من لحظة اعتقالك، ومن ايمتى أنت هون؟

- تاريخ الاعتقال ٢٢,٠٩,٢٠١١، وصارلي سنة وأربعة أو خمسة شهور هون، سيدي.

- شبال البس ثيابك أنت إخلاء سبيل، مشان هدول الكلاب يعرفوا، إنُّو اللي مانو عامل شيء، راح يطلع.

تصارعت الأفكار في رأسي في تلك اللحظات، فكانت الغلبة للسوداء منها. فكّرت بلهجة الاحترام التي أسمعها في هذا المكان المرعب، والتي يستحيل على المرء سماعها حتى في الأحلام، وقول السجّان بعد كل العذاب الذي نالني في الجحيم، بأنني سأخرج منه، لأنني لم أفعل شيئًا! لم أُصدق كلمة واحدة مما قيل، لأننا لم نسمع كلمة إخلاء سبيل في صيدنايا من قبل، وكل الذين أخرجوهم من مهجعنا، لم يبلغوهم بأيّ شيء حول مصيرهم، ولم نسمع عنهم شيئًا فيما بعد، لكنني كنت سعيدًا بالوصول إلى خط النهاية، بصرف النظر عن مكانه.

تراجعت إلى الخلف، إلى وسط المهجع، مبتعدًا عن رفاقي الملتصقين بالحائط، وسألت:

- معليش سيدي إذا تأخرت باللبس، لأن أيدي مكسورة؟

- خذ راحتك.

عثرت على ثيابي، ارتديت البيجاما القديمة وتركت السوداء التي أحضرها شقيقي مؤخرًا، قلت لنفسي إذا كان الأمر إعدامًا، فهو لا يستحق لباسًا جديدًا ورفاقي أولى به، أما إذا كان إخلاء سبيل، فتنتظرني حياة جديدة. انتهيت من الملابس، فسألني محدثي:

- ما عندك شي أنظف من هالثياب؟ إذا عندك البسها.

فكّرتُ عندها بأن الموضوع زيارة، وسأعود. جعلت يدي المكسورة خلع البيجاما القديمة لاستبدالها بالجديدة، أمرًا صعبًا، فقررت توفير الوقت والوجع، وارتداء السوداء فوقها، وعندما أصبحت جاهزًا، قال لي المسؤول:

- ودّع رفقاتك يا ابني، وبعدين حط راسك بالكنزة.

توقف تفكيري عند هذه الكلمات، التي عنت لي شيئًا واحدًا، هو أخذي إلى الإعدام، فسألت وكأنني لم أسمعها، في محاولة لتأخير التنفيذ:

- شو سيدي؟

نهرني (العنصر الساحلي):

- تعا لهون، خلاص.

وضعت رأسي في الكنزة، وخرجت من المهجع بصمت، من دون أن أرى وجوه رفاقي. لا زلت ألوم نفسي على ما حصل، أشعر بالندم وتأكل الحسرة قلبي، كان عليّ القيام بما طُلب مني، احتضان رفاقي وتبادل النظرة الأخيرة معهم، وطلب العفو منهم على أخطاء قد تكون بدرت مني أو على تقصير ما بحقهم، من دون طرح أسئلة، مهما كانت وجهتي بعد ذلك.

دفعني (العنصر الساحلي) أمامه في الممر، فتعثرت بملابس المعاقبين من المهجع السابع وبطانياتهم، قال الضابط عندها:

- شوي شوي عليه، شوي شوي عليه.

تغيّر اتجاه أفكاري مرةً أُخرى:

- سأخرج إذًا.

دخلنا غرفة، ربما كانت غرفة الأمانات التي كسروا يدي فيها، قال لي الضابط هناك:

- نزّل راسك شبال، بدنا تحكي شوي، لبينما يعطوني أمر بطلعتك.

- سيدي ممكن أشيل الكنزة، نَفَسي ضاق كثير.

سمح لي بذلك، على أن أضع يدي على عينيّ، وأُبقي رأسي منخفضًا. سألني:

- أنت شو تهمتك يا شبال؟

- مظاهرات سيدي.

- يعني ما كان في قتل؟

- ما كان في قتل بمنطقتنا سيدي، وبوقتي ما كان في شيء غير المظاهرات.

- أكيد؟

- أقسم بالله يا سيدي، ما كان في عندنا غير المظاهرات.

يبدو بأن الجميع هنا يظنونا قتلة، إرهابيون، أو أدخلوا ذلك في روعهم، فيتعاملون معنا على هذا الأساس. كنت أُفكر بهذه الخلاصة، عندما توجه الضابط بالحديث لآخرين:

- شباب، شو عاملين أكل؟

- مقالي، سيدي.

- أعملوا له صندويشة، خبزتين.

عندما سمعت سيرة الطعام، قلت لنفسي لآكل، ولا يهم ماذا سيحصل لي بعدها، حتى إذا كان إعادتي إلى المهجع أو أخذي إلى منصة الإعدام. قال لي

الضابط:

- بتروح لغرفة الحلاقة، راح يحلقوا ذقنك وتأكل بعدها صندويشتك، وبس يجينا إيعاز، بنسلمك لبرا.

سألني (القتدرة الحمرا)، أثناء حلاقة ذقني:

- بشو عم يفكروا الشباب اللي معك بالمهجع؟

رددت عليه، وأنا أفكر بأن هذا وأمثاله، لا يتوقفون عن محاولاتهم عصر المرء حتى النفس الأخير، للإيقاع به والحصول منه على أي معلومة، وكذلك بعائلتي التي تركتها ورائي في المهجع، والتي يستحيل عليّ إيذاءها، حتى إذا كان الثمن المقابل هو حياتي:

- والله يا سيدي ما حدا بيفكر بشيء غير أولاده.

- يعني ما حدا عم يقول بدنا ننتقم، ما حدا عم يحكي مع حدا عن طريق المِنْوَر؟

- أقسم بالله ما حدا عم يحكي هيك شيء، وأساسًا ما حدا يفكر بغير الطلعة، ولقاء عائلته.

- جواب متوقع. كُل صندويشتك هون، وما تتطلع لورا.

وضعوا بين يدي صندويشة طويلة من رغيفي خبز، تشبه سبطانة مدفع، محشوة ببطاطا وباذنجان مقلي، مع بندورة شديدة الاحمرار بالإضافة إلى خيار وبقدونس شديد الخضرة، لم أرّ مثل تلك الألوان الزاهية منذ سنتين، تعرفت حواسي على رائحتها الطازجة وملأت صدري، وكأنني واقفٌ وسط بستان. كان الخبز طريًا مثل الحرير، دخلت بالعضة الأولى جميع المحتويات المملحة إلى فمي، لكنني لم أستطع بلعها. فكرت في عدة أشياء دفعة واحدة:

- سيقولون بأنني لم أصدق رمي كسرة خبز لي، حتى أقبلت عليها فرحًا ونسيت

كل ما فعلوه بي، ثم إنني في هذا البناء الرهيب، الذي يقبع فيه رفاقي على بعد أمتار قليلة جائعين، وهناك واحدٌ سيحل مكاني في العقوبة، حيث سيتم تقديم دوره بعد غيابي، فكيف سأخونهم وآكل، بينما هم جائعون ويتعرضون للتعذيب في هذه اللحظة؟

أرغمت نفسي على ابتلاع اللقمة، خشية ردة فعلهم إذا ما قمت برميها، ثم وضعت الصندويشة جانبًا. صحيحٌ أن سلاح التجويع نال مني، لكنه فشل في دفعي إلى الاستسلام. عاد الضابط، سألني عن سبب عدم تناول الوجبة، فرددت عليه:

- والله يا سيدي مالي نفس.

- لكان يا عمي، الواحد بده يطلع لبرا، طبيعي ما ياكل مقالي!

طلب مني الضابط وضع يديّ على عينيّ، فنفذت بواحدة، أما الأُخرى المكسورة، فوضعتها على بطني، كيلا تسبب لي الألم، إذا تأرجحت. أنزلني درجًا وسلمني إلى عسكري هناك، كان هو نفسه (السجّان الساحلي)، الذي يقسو علينا بالضرب في المهجع، ذكّرني بنفسه بعد ابتعاد الضابط، عبر صوته الذي لن أنساه أبدًا، عندما شتمني مجددًا:

- ليك ولك أخو الـ.. إذا بترفع راسك بدي أ..

فكّرت بيقين، بأنه لن يكون هناك إخلاء سبيل (ولا من يحزنون)، فما أسمعه الآن، هو كلام موجه لشخص يتم أخذه إلى الموت، لكنهم أشفقوا عليّ وجعلوني أعيش لحظات سلام، تشبه تلك التي يتم منحها للمحكوم بالإعدام، قبل التنفيذ، على سبيل الوداع.

مشيت خلف العسكري، مستسلمًا لمصيري، أستذكر آيات من القرآن، وأتذكر أطفالي ووالدتي ووالدي، في آخر مرة رأيتهم فيها. بعد حوالي مئة متر،

طلب مني العسكري الجلوس على حجر قرب باب غرفة، وخفض رأسي إلى ما بين ركبتيّ، توعدني إذا ما رفعته، قبل أن يغيب. عاد بعد دقائق قليلة، وطلب مني الوقوف ثانيةً، ووضع يديّ على عيني، ثم أدخلني إلى الغرفة، وتابع طلبه إبقاء رأسي منخفضًا. سمعت عندها صوتٌ يسأله:

- أنت شو قصتك؟ الزلمة بده يطلع، ليش هيك بتتعامل معه؟

- هيك الأوامر، طالما هو هون، بده يكون صراط مستقيم.

انقلب بي الحال مرةً أُخرى، تنفست الصعداء عندما طلب الصوت الجديد من العسكري الابتعاد عني، مثلما فعل المساعد أول يومًا، عندما قال بأنه (غير مستعد لاستلام الجثث):

- أنت اطلع برا، ما عاد إلك علاقة معه، هو صار عندنا وخلصت مهمتك.

غادر (العسكري الساحلي)، فطلب مني صاحب الصوت الذي جادله، رفع رأسي. رأيت ثلاثة أشخاص في غرفة بها ثلاثة أسرة عسكرية، يرتدي اثنان منهما اللباس المدني، ويجلسان وراء طاولة عليها لوحة مكتوب عليها (ضابط الأمن)، بينما يرتدي الثالث لباسًا عسكريًا، يجلس وراء طاولة أُخرى وأمامه شاشة كومبيوتر. أشار أحدهم إلى السرير القريب، يطلب مني الجلوس، وسألني:

- بتدخن يا شبال؟

- مثل ما بدك سيدي.

كانت هذه الإجابة هي الوحيدة المتاحة لي، لأنني لست معتادًا على إبداء رأيي بشيء في صيدنايا، فممنوع على المرء قول (لا) لأحد هنا، إذا كان لا يريد شيئًا، وحتى كلمة (نعم) غير مرغوبٍ فيها، في مثل هذا الموضع. ناولني العسكري سيجارة حمراء طويلة، وسألني:

- خذ دخن، من ايمتى ما دخنت؟

- من حوالي سنتين.

اصطنعت السعال مع أول سحبة دخان، على أمل إعفائي من التدخين، لأنني بتُّ أراه حرامًا، منذ التزامي دينيًا. طلب مني العسكري إطفاء السيجارة:

- اطفيها أحسن ما يصيرلك شي، فنكون مسؤولين عنه.

تخلصت من إحراج التدخين، فتابع العنصر حديثه بسؤال جديد:

- شو كان سعر الحمراء الطويلة، لما فتت للسجن؟

- خمسة وثلاثين ليرة.

- سعرها اليوم مية وثلاثين ليرة.

لم أستغرب كثيرًا ما سمعته، فقد وقفت على الارتفاع الكبير للأسعار، من خلال المنظفات التي اشتروها لنا. غيّر العنصر الموضوع، يريد تقديم شيء آخر لي:

- راح أحط التلفزيون على قناة كُرديّة، لتسمع أغاني كُرديّة.

توجهت إلى التلفزيون، الموضوع إلى الحائط الأيسر من المدخل، وكنت جالسًا بمواجهة الشاشة أساسًا. غيّر العسكري القناة، فظهرت أُخرى تبث أغنية سريعة الإيقاع، لمطرب كُردي عراقي كث الشارب، ترقص حوله مجموعة من الفتيات، بثيابهن الملونة.

لم يعد موقفي من التلفزيون يختلف عن التدخين، تصنّعت مشاهدته، لكن أفكاري كانت في مكانٍ آخر. تذكرت منعي من التحدث بالكُرديّة قبل أيام، على مرمى حجر، وكسر يدي بحجة التحدث بها.

انتهت المقدمات، وبدؤوا بإنجاز معاملة الإفراج عني. أعلمني أحدهم، بأن لي عندهم في الأمانات ٧٢٠٠ ليرة، هي المبلغ المتبقي بعد استقطاع ثمن المنظفات والحبوب التي اشتروها لنا، من المبالغ التي أحضرها شقيقي معه،

والخمسمائة ليرة التي تم ضبطها معي. سلموني أماناتي الأُخرى، هويتي وجهازَي الموبايل. تحدث العسكري أمام شاشة الكومبيوتر، عن ورود برقيات وتعميم الاسم على الحواجز، فسألته:

- سيدي، ما راح تعطوني ورقة للعبور على الحواجز، للوصول للكراج والسفر بالبولمان للبيت؟

- ما في داعي للورقة، اسمك تعمم على كل الحواجز بأنك إخلاء سبيل من السيد الرئيس، بس موضوع البولمان انسالي إياه، ما عاد في بولمان، صار في شي اسمه النصرة وداعش والجيش الكُر.

لم أفهم ما قصده بنسيان موضوع البولمان، لكنني أدركت بأن له ارتباط بالأسماء التي ذكرها، التي كان داعش جديدًا عليّ من بينها.

رنَّ جرس الهاتف، رفع العنصر المدني السماعة ثم وقف باستعداد يرد:

- احترامي سيدي، حاضر سيدي، فورًا سيدي.

أعاد السماعة إلى مكانها، لكنه أبقى يده عليها، طلب من زميله تبديل ملابسه:

- البس، سيادة العميد طالبك، بدك تاخده لسيادة العميد، بس أول شيء بدنا نحممه، هيك أوامر سيادة العميد.

رفع السماعة مجددًا، اتصل يقول للطرف الآخر:

- بتجي تاخد شاب، تحممه وتطالع لي إياه عريس جديد.

تدخلت وأنا أتحسس يدي المكسورة، وأتذكر المياه الجليدية في حماماتهم، في وقت لم تعد لي رغبة بأي شيء في هذا المكان:

- سيدي أنا نظيف، متحمم، ما احتاج حمام.

- أكيد؟

- والله العظيم ما في داعي للحمام.

أعطاني العسكري جوارب وشحاطة بلاستيك، فلم أعد حافيًا، لأول مرة منذ اعتقالي، أعلمني خلال تبديله للباسه، بأن شقيقي جوان موجودٌ مع شخص آخر في مكتب العميد، وبعد أن انتهى من ارتداء بوطه العسكري، سار باتجاه الباب وطلب مني اللحاق به:

- تعال شبال.

تبعت العسكري، فوجدت نفسي بعد عبور الباب، بمواجهة المبنى الأحمر في سجن صيدنايا. لا أعلم فيما إذا كانت الإضاءة التي تعلو المبنى أم أسلوب التعامل هنا، هو ما جعلني أخفض رأسي بسرعة، وبالتالي لا أحفظ شكله، أو أميز ملامح عشرات العناصر المتشابهين، ضخام الجثث مفتولي العضلات، واقفين مثل تماثيل حجرية بوضعية التحفز، أمام المكتب المكون من طابق واحد والمحاط بالأشجار، والذي نتوجه إليه مسرعين.

وصلنا المكتب، قرع العسكري الباب يستأذن الدخول. وراء طاولة عريضة، حيث توجه العسكري بالتحية وتوجهت بنظري، يجلس رجلٌ كبير السن، يرتدي بيجاما أديداس بيضاء على زرقاء، وأمامه لوحة عليها اسم العميد طلعت محفوض، طلب مني الجلوس:

- اقعد يا ابني.

جلست، فتابع:

- شبال أنت إخلاء سبيل، السيد الرئيس عفا عنك، وبتمنى تعيد حساباتك، وتصير نموذج للمعارض الوطني الشريف تحت سقف الوطن، مشان نعمر البلد مع بعض. في عالم استغلت المظاهرات، وصار في إرهابيين بكل مكان، وهالشيء لازم ينتهي.

أنهى الرجل محاضرته الوداعية، بأن طلب منا الانتظار في الخارج، ريثما يصل الباص لنقلنا، قال بأنه سيرسل عسكري لمرافقتنا، ويكلم حواجز السجن كيلا يوقفوننا، ثم تمنى لنا سلامة الوصول.

غادرنا مكتب الضابط، أغلقتُ آخر أبواب معتقل صيدنايا بنفسي، على صاحبه، ثم سألت شقيقي جوان عن التوقيت، للتحقق من ساعتي البيولوجية، التي لم أشك يومًا بدقتها:

- صارت الساعة خمسة؟

- خمسة ودقيقتين.

إذًا، كنت متأخرًا دقيقتين عن العالم.

بعد المرور على ثلاثة حواجز في منطقة السجن، عبرت الجحيم، وبعد المرور على سبعة خارجها، وصلنا إلى دمشق. أخذنا مرافقنا إلى مكتب رئيس حزب البناء الوطني، يبدو بأن كل شيء كان معدًا مسبقًا، كان هناك كثيرون بانتظاري للسلام عليّ، من دون أن أعلم عن هذه الترتيبات، أو أفهم شيئًا مما يجري حولي.

على الرغم من أنني جائعٌ جدًا، لكن أحدًا لم يسألني عن ذلك، قدموا لي كثيرًا من القهوة والشاي والعصائر.

سألت عن الحمّام، للتوضأ لصلاة المغرب، فدلوني عليه. فتحت الباب، فوقعت عينيّ على المرآة، تجمدت في مكاني مرعوبًا، لا أجرؤ على التقدم لمواجهتها ولا أستطيع التراجع، حسمت أمري بعد ثوانٍ ثقيلة وقررت مواجهة الحقيقة، وقفت أمام المرآة فأصبت بالصدمة، لم أكن هكذا أبدًا، عيونٌ غائرة في وجه شاحب صغير، تغطيه شبكة تجاعيد مثل خنادق، وشعر قصير جعل رأسي يبدو أصغر مما هو عليه، ضربت يدي من المفاجأة على صدري،

فدخلت بين أضلاعي شديدة البروز، ابتسمت:

- لن تعرفني زوجتي بالتأكيد.

أديت صلاة المغرب في الحوش وعدت إلى مكاني، استمر عرض القهوة والعصائر، إلى أن جاء الطعام أخيرًا، فانكببتُ عليه وأخذت التهمه بشراسة، من دون اهتمام بما يجري حولي، أكلت في تلك الوجبة سبعة أرغفة، فقد بقي رغيف واحد من ربطة خبز، فيها ثمانية أرغفة.

لم أستطع النوم في هذه الليلة الانتقالية، التي أذنت مثل ليلتي الأولى في فرع الجويّة بقامشلي، ببدء مرحلة مختلفة في حياتي. شهدت صراعًا داخليًا عنيفًا، بين الكابوس المرعب الذي انتهى قبل قليل، والحلم الجميل الذي أعيشه، اختلط عليّ الأمر أحيانًا، ولم أعلم أيهما هو الحقيقة، انقسمت بين عائلتي التي تنتظرني، ورفاقي الذين تركتهم خلفي في صيدنايا، فتصرفت بتفاصيل الألم، التحفز، الخوف، ولكن الأمل والشوق أيضًا، وكأنني موجودٌ معهم.

بناءً على نصيحة الشخص الذي أمّن لشقيقي الزيارة إلى معتقل صيدنايا، ذهبنا في اليوم التالي إلى المحكمة العسكرية بدمشق، لطلب نسخة من قرار إخلاء سبيلي، لإبرازه على حواجز التفتيش، تحسبًا لتعرضي لإشكالات، مثل تلك التي حصلت لسمي الطالب شبال إبراهيم، الشاب الذي اعتقلوه في المدينة الجامعية بسبب تشابه الأسماء، واحتجزوه في فرع فلسطين وعذبوه مدة أسبوع، ليُترك لحال سبيله بعد التأكد من هويته، ووجودي معتقلًا لديهم.

سرتُ مثل غريب في شوارع المدينة التي أعرفها جيدًا، وأنا لا زلت مرتديًا اللباس الذي خرجت به من السجن، أدقق في كل شيء، خاصةً وجوه الناس

والأسعار التي تغيّرت كثيرًا، وأتساءل عما حدث لهذا البلد، وكأنني أراه لأول مرة.

دخل جوان إلى مبنى المحكمة، فبقيت أنتظره تحت الجسر المقابل لها، أتبادل نظرات الاستغراب مع الوجوه التي تمر بي، وكأننا من زمنين شديدي التباعد، كنت مثل أهل الكهف الذين استيقظوا بعد دهرٍ من النوم، وقد تغير العالم من حولهم، وتعاقبت الأجيال.

عاد جوان بعد قليل مكفهر الوجه، فخشيت تعرضه لمكروه، خاصةً أنه كان سيقدم رشوة للحصول على نسخة القرار، مثل رشاوى كثيرة دفعتها أسرتي طوال مدة اعتقالي، للكشف عن مصيري، ومنها تلك التي ذهبت لعائلة غريب في اللاذقية، التي أعلمني المساعد أول في المحكمة بأنها تلح في السؤال عني، وسألني فيما إذا كنت أعرفها.

سألني جوان مصدومًا، عما إذا كانت لديّ فكرة عن العقوبة التي كنت محكومًا بها، وقبل أن أنفي علمي بالحكم الصادر عليّ، من قبل ثلاثة أشخاص مجهولين، وقفت أمامهم مقيد اليدين من دون محامٍ، في محاكمة لم تتجاوز مدتها دقيقتين، تابع قائلًا:

- أنت محكوم من المحكمة الميدانية، بالسجن خمسة عشرة عامًا مع الأشغال الشاقة.

الطرق البرية في سوريا مقطوعة، وهو ما أشار إليه العسكري، عندما طلب مني نسيان أمر السفر بالبولمان، لذلك لا يبقى لي سوى الطائرة للعودة. كأنّ القدر كتب عليّ إغلاق هذه الدائرة في حياتي، بالنزول في مطار قامشلي، الذي بدأت منه رحلتي برًا إلى الجحيم.

عليّ انتظار رحلة الطائرة غدًا، وليس هناك شيء أستطيع القيام به حتى

موعد إقلاعها، فقبلت بعد إلحاح، الذهاب إلى المشفى لإجراء تحاليل طبية. عندما وضعوا الرباط حول ذراعي، لأخذ عيّنة دم، طلبت منهم التوقف، ليس فقط بسبب تذكري ممرضة المشفى العسكري، التي ثقبت يدي خمس مرات، بل لأنني لا أريد اكتشاف إصابتي بمرض ما، سيجعلني حزينًا، وأنا أود لقاء أطفالي وأهلي وأصدقائي ومدينتي، بمزاج جيد.

الفصل الحادي عشر: العودة إلى قامشلي

دقق الموظف بمطار دمشق في هويتي، تنقل بنظره بيني وبينها وبين شاشة الكومبيوتر أمامه، بطريقة شعرت معها، بأنهم سيعتقلونني ثانيةً.

نظرات الاتهام نفسها ممزوجة بالقرف، تصدمني كلما توجهت بأنظاري نحو نافذة الطائرة، من الراكبين على المقعدين المجاورين، الجالسين إليها، أشغلت نفسي بالنظر إلى الأمام لتجنبها، إلى أن بدأت الطائرة بالقيام بالتفاتتها المعهودة في سماء قامشلي، تمهيدًا للهبوط في مطارها، حيث رأيت المدينة عندها.

هبطت الطائرة أخيرًا، بدأت رائحة كريهة تلفها عندما توقفت، مصدرها جثث عساكر جرى نقلها معنا. أسرع الركاب في النزول والابتعاد، وكنت آخرهم، يسبقني رئيس حزب البناء الديمقراطي. صادفت العنصر في فرع الجوية أبو السعود، عند أسفل السلم، لم أعرفه في البداية، لن تجعله التغييرات التي تعرضت لها يعرفني على الأرجح، سار رئيس الحزب وراءه وأنا أتبعه، وكأنني جزء من ترتيب ما، جرى الإعداد له.

عبرنا ممرًا، لمحت العقيد حسين رئيس فرع الجويّة على طرفه، يتحدث مع آخرين ويضحك، توجه إليه رئيس الحزب، بينما تابعت سيري ودخلت صالة المطار، كان أول ما رأيته، الصدمة على وجه زوجتي وشقيقتي المنهارة على الأرض. سأعلم فيما بعد، بأنها مرضت من شدة حزنها عليّ. ناولتني زوجتي الطفلة التي تحملها، والتي ليست سوى ألين:

- هذه ألين.

لم أعرف ابنتي، كبرت وتغيرت تمامًا، لم تكن ملامحها واضحة في ذاكرتي أصلًا. عرفت ألند ولوند الواقفين قرب أمهم، صدمني منظرهما بالكنزة الداخلية، تساءلت فيما إذا كان سوء الأحوال وصل إلى حد، لم يعد معه بالإمكان توفير ملابس لأطفالي، إلا أن الذي تبين فيما بعد، هو أن الصغيرين كانا يرتديان كنزتين عليهما صورتي وعلم الثورة، انتزعها عنهما عناصر المخابرات في المطار، وتركوهما بذلك المنظر.

لم يكن والداي في المطار، خشيت طرح السؤال الصعب عن سر غيابهما، مثلما كنت أخشى طرحه على شقيقي طوال الوقت، خوفًا من إجابة قاتلة، فاحتفظت بالسؤال لنفسي، ورحت أبحث عن الإجابة بين الجميع، وعن أية كلمة قد تفسر لي الأمر.

غادرنا المطار. عندما رأيت الحشد الكبير الذي قدم لاستقبالي، شعرت بالبلسم على جراحي كلها، منذ لحظة اختطافي إلى المبنى الواقع على بعد أمتار قليلة، وكاد الأمر يلتبس عليّ، بعدما وصلنا إلى الموقع الذي تفرق فيه قبل عامين، المشاركون في مظاهرة الجمعة التي أطلقنا عليها الاسم الكُردي آزادي. في الواقع، تشكّل لدي انطباعٌ منذ ذلك اليوم، الذي كان من أقوى أيام الحراك الثوري، من جهة الالتزام على مستوى سوريا بالتسمية الكُرديّة ليوم التظاهر، وحجم المشاركة والتغطية الإعلامية الواسعة، والمداخلات الكثيرة التي شاركتُ بها على القنوات الفضائية، بأنَّ تعامل نظام الحكم سيتغير معنا، بعد أن بدا منشغلًا بما يجري في المناطق السوريّة الأُخرى، وربما ما جرى لي بعد ذلك، كان أحد تداعياتها.

طرحت مظاهرة قامشلي التي شارك فيها أكثر من خمسة عشر ألفًا، تحديًا

كبيرًا علينا نحنُ المنظمين لها، استمرت مدةً أطول من المعتاد، وكانت هناك صعوبة في السيطرة عليها وإنهائها، بعدما غادر المتظاهرون موقعها في الحي الغربي، وتوجهوا وسط حضورٍ أمني كثيف نحو دوار الباسل جنوبًا، الذي يقع المطار على بعد مئات الأمتار خلفه، الأمر الذي جعلنا نخشى على المتظاهرين من الأذى.

وصل موكبنا إلى البيت، كان يتقدمه سرادق كبير وكثير من الناس بانتظاري، نزلت من السيارة، فرفعوني على الأكتاف وهتفوا موجهين التحية إلي، عشت مشاعر لا توصف. لم أكن الوحيد الذي تغيّر، فكثير من الوجوه لا أعرفها، غادر معظم رفاقي البلاد.

مرت الساعات وكبر السؤال عن والديّ، إلى أن ربتت يدٌ على كتفي، مثل يد (الكُردي)، عندما نقلني من مكان العقوبة في صيدنايا، طلب مني صاحبها الذهاب للسلام على والدتي، ارتميت مثل طفل صغير في حضنها، فبقي السؤال الخائف عن والدي معلقًا، لم أجرؤ على طرحه عليها، إلى أن لمحته في خيمة الاستقبال وسط الناس، فأسرعت إليه.

كان والداي مريضين، اشتد عليهما المرض في الأيام الأخيرة.

اتصل بي في اليوم التالي من وصولي إلى البيت، رفيقي جهاد زيدان، المُفرج عنه قبلي، كان يصرخ، يضحك ويبكي، أبلغني بأنه موجود عند والدة رفيقنا شركس، فسلمت عليها وأكدت لها مكان احتجازه، المهجع الثامن من الطابق الأرضي بسجن صيدنايا، المعروف باسم طابق الزيارات.

ذهبت العائلة بالمعلومات المحددة إلى صيدنايا، تمكنوا من زيارة شركس، بعدما كان نظام الحكم ينكر طوال الوقت وجوده هناك، مثلما أنكر وجودي وأعاد شقيقي لثلاث مرات من أمام بوابة السجن، على الرغم من الرشاوى

الكبيرة التي دفعها، قبل أن يسمحوا له بزيارتي في المرة الرابعة.

الفصل الثاني عشر: عودة إلى المخابرات الجوية

أتيحت لي الفرصة أخيرًا للذهاب إلى طبيب الأسنان، أغلقتُ هاتفي وجلست على الكُرسي الطبي، أُريد فحص أسناني ومعالجة ذلك الذي كسروه في المعتقل، عندما ضربوا رأسي بباب المهجع.

فاجأني رئيس حزب البناء الديمقراطي بالظهور في العيادة، طلب مني مرافقته لأمر هام، لا يحتمل التأجيل حسب قوله، وتمنى عليّ عدم سؤاله عن وجهتنا، رفضت طلبه في البداية، لكنني لم أستطع الصمود أمام إلحاحه، وتأكيده على أنه يضمن عدم تعرضي لسوء، في المكان الذي سيأخذني إليه.

صعدت إلى جانب رئيس الحزب في سيارته، حدثني عن الأوضاع الأمنية الصعبة في البلاد، وانتشار السلاح في كل زاوية منها، وخشيته من تعرضي لمكروه على أيدي إرهابيين، لتوريط نظام الحكم بالاتهام بالوقوف وراءه، ثم عرض تزويدي بسلاح لحماية نفسي، وتزويد أصدقائي المقربين به، قائلًا بأن هؤلاء يلازمونني على كل حال، والأفضل أن يكونوا مسلحين لحمايتي.

دارت في رأسي مزيد من الأسئلة حول هذا الشخص، الذي ظهر مثل المقدم أبو سليمان في حياتي فجأةً، في وقت حرج للغاية، في البداية في المعتقل عبر رفيقه الحزبي الشبيه بحمو، المتعاون مع المقدم في عملية اختطافي، لتنقلب أوضاعي رأسًا على عقب ثانيةً، ثم ملاحقته لي مثل ظلي منذ الإفراج عني، وبتُّ مقتنعًا بأن الموضوع لا يتعلق بالتوسط في زيارات إلى المعتقل مقابل رشاوى، ويتعدى ممارسة الوصاية مقابل ما يحاول تسويقه فضلًا عليّ، إلى نقلي لموقعٍ

جرى التخطيط لتواجدي فيه منذ البداية، مثلما سأكتشف بعد قليل.

في محاولة للتخلص من الضغوط التي يمارسها عليّ، أردت تذكير رئيس الحزب، بحقيقتي التي يصر على تجاهلها، وموقعي الذي لن أغادره مهما حصل، والذي دفعت ثمنه غاليًا، ذكّرته بأنني شخص مدني، تظاهرت سلميًا ولم أحمل السلاح يومًا ولن أحمله، صحيح أنني خدمت في الجيش، لكنني نسيت استخدامه، لا أعرف كيفية إطلاق النار، ولن أفعل بحال من الأحوال، ثم أن مصدر الخطر معروف، لم أستطع مواجهته عندما كنت محاطًا بالناس، ولن أستطيع بعد أن انفرط عقدهم.

توجه رئيس الحزب بسيارته جنوبًا، على الطريق ذاته الذي سلكه المقدم أبو سليمان، عندما أراد الذهاب إلى الصيدلية القريبة من المطار، بداعي إحضار دوائه، واختطفني من هناك إلى فرع المخابرات الجوية داخله.

بينما كنت غارقًا في تفاصيل ما جرى معي على هذا الطريق، وصلنا إلى المطار، تجاوزته السيارة ثم انعطفت يمينًا باتجاه المخابرات الجوية، أخبرني المسؤول الحزبي عندها، بأن لدى العقيد رئيس الفرع ما يريد إخباري به، استسلمت بهدوء هذه المرة، لما بدا رحلة اعتقال جديدة.

ارتفعت عارضة الحاجز، فمرت منه السيارة، توقفت في المكان الذي أوقف فيه أبو سليمان سيارته عندما اختطفني، حيث كان عدد من العناصر بانتظاري يومها، بينما أبذل آخر محاولة للتخلص من بطاقة هاتفي.

كان رئيس فرع الجوية العقيد حسين ينتظرني لوحده هذه المرة، رحّب بي بحرارة وطلب مني الدخول إلى المبنى، دفعني أمامه إلى مكتبه واعتذر عن دوره في اعتقالي، قائلًا بأنه إنما كان ينفذ الأوامر، وعلينا على كل حال نسيان ما جرى، فنحن أولاد اليوم.

طالبت مظاهرة الجمعة في اليوم التالي لاختطافي، بإطلاق سراحي، وحاول شقيقي الوصول إليّ في فرع الجوية، حيث يحتجزني العقيد حسين، ألّح كثيرًا على الضابط السماح له برؤيتي، لم ينكر العقيد وجودي لديه، لكنه رفض طلباته المتكررة لقائي، وأبلغه: هو في هذا المبنى، ولكن ليست لدي صلاحيات للسماح لك بزيارته.

سألت الضابط عما يريده مني، فتحدث عن مفاوضات تجري بين نظام الحكم والمعارضة خارج البلاد، وبأنهم يعتبرونني معارضًا وطنيًا، يتمنون عليّ الانضمام إلى معارضة الداخل للمشاركة في المفاوضات، للعمل مع النظام على محاربة الإرهاب وإعادة بناء الوطن.

استعرضت رحلتي في الجحيم، قربتني أساليب التعذيب الرهيبة خلالها كثيرًا من الموت، يبدو بأن نظام الحكم واثقٌ من تجاحه في كسري، وبأن ندوب جسمي وجراح روحي العميقة، ستذكرني بقدراته على الدوام، لذلك وبدلًا من إبقائي معتقلًا حيث لم أعد مفيدًا، أو التخلص مني بحيث سأكون مجرد رقم، يريد إعادة تدوير حطامي واستخدامه أداةً لترميم صورته.

يبدو بأن رحلتي في الجحيم لم تنتهِ بعد، فحياتي في خطر، أكثر بكثير مما كانت عليه داخله، حيث لم يكن للجلّاد سوى مطلب وحيد حينها: عدم الموت تحت سياطه كيلا يصبح عاطلًا عن العمل، بينما ثمة دورٌ مطلوبٌ مني لعبه الآن، سيقومون من دونه بتصفيتي واتهام إرهابيين مجهولين بالمسؤولية، بحيث تلتبس هوية القاتل على كثيرين، وتضيع دمائي هدرًا.

حسمت أمري مع هذه الخلاصة على وجه السرعة، وغادرت مع عائلتي البلاد باتجاه إقليم كُردستان، توجهت من هناك إلى ألمانيا التي منحتني سلطاتها الحماية. جرى الاحتفاء بي وشاركت في أنشطة مع شخصيات

ومنظمات تهتم بحقوق الإنسان، تعمل على كشف مصير المعتقلين، وتطالب بالإفراج عنهم.

الفصل الثالث عشر: الباوهوف الألماني

التقيت مع عدد من الأصدقاء، مسؤولًا كبيرًا في منظمة تُعنى بحقوق الإنسان، بمحطة القطارات الواقعة وسط المدينة، بناءً على طلبه.

حجز لنا المسؤول القادم من مدينة أُخرى، مقهىً صغيرًا داخل المحطة، أغلقوا بابه علينا وامتنعوا عن إدخال الزبائن. وقف النادل وراء الباب الزجاجي ينظر إلى الخارج، يؤشر للذين يريدون الدخول بأن المقهىً مغلق، ويلتفت بين الفينة والأُخرى إلينا ليسألنا، فيما إذا كنا نرغب بشرب شيء.

كررت على مسامع المسؤول الإنساني، تفاصيل ما تعرضت له. تطرق الحديث إلى الضابط أبو سليمان الذي خطفني، وإلى عميله حمو الذي كان يراقبني طوال الوقت، ويحدد له تحركاتي، وكانت له اليد الطولى في عملية الاختطاف.

ودعنا المسؤول وغادرنا المقهى، تفاجأت على بعد خطوات بحمو نفسه، أمسكت به أريد تسليمه للشرطة، ذكّرته بما فعله بي وسألته عن السبب، فأنكر نفسه، تحدث باللهجة العراقية وطلب تركه لشأنه.

رنَّ جرس هاتفي في تلك الأثناء، لم يكن رقم المتصل يظهر على الشاشة، رديت رغم ما أنا عليه من حال، فسمعت صوت المسؤول الذي كنت جالسًا معه في المقهى قبل قليل، التفتُّ حولي فرأيته ينظر إليّ من مسافة وهاتفه على أذنه، رفع يده ملوحًا للتأكيد على أنه المتصل، وقال لي جملة واحدة، أغلق بعدها هاتفه وأدار ظهره ومضى:

- ليس هذا هو الشخص الذي تبحث عنه يا شبال!

تراخت يدي تحت وقع المفاجأة، فأُفلت حمو وركض باتجاه رصيف المحطة، لحقه أصدقائي بينما بقيت متجمدًا في مكاني، محتارًا فيما يجري. صعد حمو إلى قطارٍ على وشك المغادرة، فأمسك به أصِدقائي، وأوقفوه في منطقة الباب الذي بقي مفتوحًا، وعندما وجدوا الأمر غيرُ مجدٍ، وبأنهم لا يفعلون شيئًا سوى التسبب بتعطيل حركة القطارات، تركوه ونزلوا، فأُغلق الباب وتحرك القطار.

لم يبقَ لي شيء سوى مراقبة القطار يبتعد، تاركًا مكانه لآخر، سرعان ما وصل المحطة، وفتح أبوابه.

فهرس

العبور من الجحيم

قضى بطل هذه الرواية عشرين شهراً في المعتقلات، وقضيت عشرين شهراً في تدوين سيرته داخلها. أمسك بيدي، فتبعته، لا بل سرت القرفصاء إلى جانبه في دهاليزها المظلمة، عارياً محني الرأس، أتلقى الشتائم والضربات المميتة من أشباح تقف على طرفي ممراتها، أرى بعينيه المطمّشتين كل ما يشاهده بإحساسه من فظائع، وأسمع كل ما يسمعه، أتناول معه الخبز العفن ووجبة البرغل الحامض المجبول بمياه المجاري، أعلّق على البلانكو، أُدفن في تابوت القبو المعتم، ينال مني السليكون والأخضر الإبراهيمي، أجلس إلى جانبه جاثياً على البلاط الجليدي العاري وأنام عليه جائعاً، عارياً بارداً مثل جثة، أقترب من الموت كثيراً وأرجوه، لكن خشيتي من عقوبة الميت تمنعني من التوقف عن الحلم بالنجاة، بروحي المثخنة بالجراح وجسدي المتفحم، فأجمع - رغم الإبلاغ عن موتي- بقايا طاقتي التي كانت في طريقها إلى التلاشي، في محاولة قدّرْتُ بأنها ستكون الأخيرة، لإعطاء إشارة ما بأنني حي، فأنجح في اللحظة الحرجة، قبل الغياب دون أثر، حرقاً أو دفناً في مقبرة جماعية مجهولة، ثم أعبر معه الجحيم الذي لم يعبرني، بل بقي - بما فيه ومَن فيه - يسكنني.

العبور من الجحيم - سيرة ذاتية لمعتقل

حسين جلبي

978-625-6589-06-5

موزاييك للدراسات والنشر
MOSAIC FOR STUDIES AND PUBLICATION